المحاماة

فن رفيع

تأليف

محمد شوكت التوني

المحامي

الطبعة الثانية ١٦ و ١٧ شارع صلاح الدين بالفجالة

١٩٥٨

هذا الجزء الاول من الكتاب

الاجزاء الاخر علي الرابط التالي

https://www.facebook.com/groups/1963362150351436/?ref=bookmarks

عدد صفحات الكتاب ٥٢٠ صفحه

الطبعة الاولي سنة ١٩٥٨

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

المحاماة

فن رفيع

تأليف

محمد شوكت التوني

المحامي

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

١٩٥٨

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

المحـــاماة فن رفيع

البَابُ الأوّلُ

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

إهـــداء

إلى الذين علمونى « ولو حرفاً » فى المدرسة وفى الجامعة وما كنت بغير ما علمونى شيئاً مذكوراً .

وإلى الذين « عنهم » أخذت دروس الحياة وعبر الزمان فزادونى علماً وزودونى بزاد التجاريب .

وإلى الذين وقعت عليهم إساءاتى قصداً أو بغير قصد وهأنذا أقدم لهم ندمى وأطلب غفرانهم .

وإلى الذين أساءوا إلىّ عفواً أو بعمد لقد سامحتهم من قلبى وباختيارى .

إلى رجال القضاء الذين جمعنى بهم نضال فى سبيل الحق .

وإلى المحامين فوجاً وراء فوج الذين أحبونى وأحببتهم .

وإلى الذين عملوا معى بمكتبى من محامين وموظفين فأعانونى على مشقة الطريق الطويل .

وإلى الأجيال القادمة . راجياً لهم حظاً أسعد .

أهدى

كتابى هـذا

هدية على قدر مهديها .

فمن طاب له فإن له الشكر على تحيته الصامتة . ونجواه الخفية .

ومن برم به ولم يستطبه فليذكر أنه القطعة الكبرى من حياتى . ولعلنى ألفته وتعبت فى مراسه لكى أحتفظ لنفسى بذكرى هذه الأعوام الثلاثين ؟

٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨

شوكت

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لماذا كتبت هذا الكتاب

انتباه مفاجىء :

فى يونيه ١٩٥٥ خطر على بالى فجأة و بلا سبب أننى أمضيت فى المحاماة خمسة وعشرين عاماً . فبدأت أذكر أول الطريق . وتحرك الركب . واليوم الأول . والليلة الأولى . . . وتتابع الشريط السينمائى يعرض فى مخيلتى حوادث ربع قرن . وما سمعت . وما رأيت . ومن قابلت . . .

وتراكمت الذكريات حتى أصبحت كومة عالية .

وفجأة . ولأول مرة سألت نفسى :

بعد أن قضيت خمسة وعشرين عاماً فى المحاماة .

و بعد أن قضيت فيها كل يوم من أيام الشباب القوية الجميلة والكهولة العاقلة الناضجة .

و بعد أن مزقت إهاب الليالى الزاهرة من العمر فى مقابلة أصحاب الدعاوى . وفى قراءة الملفات وكتابة المذكرات و إعداد الدفاع .

و بعد أن أرقت على ضفاف هذه الليالى نوراً من عينى . وأسلت صبيباً من قلبى . ونثرت مزقاً من أوتار أعصابى .

بعد هذا كله .

و بعد أن أصبت من المحاماة اسماً ذائعاً . ومالا .

ماذا صنعت ؟ وماذا أنتجت ؟ وماذا أفدت ؟ وماذا نال منى المجتمع ؟ !

ولم أجد جواباً على أسئلتى . . و بدوت كالتلميذ الأبله الخائب حين يفاجىء بأسئلة مدرّسه الصارم !

فعدت أتلفت وطال تلفتى . وتشتت تفكيرى وأنا أنثر تلك الأكوام العالية من الذكريات .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وتتابع فى ألوان الطيف — أمام عينى الشاردة النظر — شريط سينمائى من الأشخاص والحوادث .

رجال ونساء . شباب وشيوخ .

متهمون أبرياء .

أبرياء يحكم عليهم .

قتلة وسارقون وزناة . يتسرب من القفص الحديدى بعضهم ويقذف ببعضهم فى ظلمات السجن .

مدعون بالباطل . . ينتصر باطلهم .

أصحاب حقوق مضيعة تعاد إليهم حقوقهم .

شهود صادقون . . يكذبهم القضاء .

وآخرون كاذبون . . . يحكم القضاء بشهاداتهم .

رجال بوليس عادلون ينسب إليهم الظلم .

وآخرون ظالمون لا يؤخذون بظلمهم .

قضاة ترتجف الأقلام بين أيديهم وهم يحكمون . . . لأن ضمائرهم مرهفة الحساسية .

وآخرون يصدرون الأحكام وكأنهم يقذفون بنكتة ساخرة .

وكلاء نيابة يحققون على ضوء ذبالة شمعة . . . وهم يحترقون بحثاً عن الحق والعدل .

وآخرون يلذ لهم أن يقوموا بدور الجلاد .

محامون ينصرون الظلم .

وآخرون يموتون فى سبيل انتصار حق موكليهم .

أسرار . . . أسرار دفينة لو أذيعت لغيرت تاريخ أقوام وأجيال .

وأباطيل وأوهام أخذت مكان الحقائق الثابتة . . . وآمن بها الناس .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

صراخ وعويل .

هتاف وزغاريد .

عرفان بالجميل .

ونكران وجحود .

فى هذه الكومة العالية من ركام الحوادث والأشخاص ذكريات ناعسة وأخرى مستيقظة . وأشخاص يتوارون . وأشخاص يندفعون لكى يبرزوا أمام عينى . . .

حوادث واضحة الصور أحاول أن أجعلها تبدو باهتة ... لأننى خجل منها .

وأخرى مظلمة . أجهد أن أبرزها واضحة المعالم مضيئة .

ولكن أين الحق ؟

هل هو ما عرفته . . . وأدركته ودافعت عنه ؟ أين هو من هذا كله . وفى هذا كله ؟ ! وهو الغاية الهادف إليها سعينا وجهادنا ؟ أم هو ما خفى عنى أو أنكرته أو حاربته بكل قواى ؟ !

هل هو الذى نقلته إلى القضاء منغوماً أو مسطوراً ؟ أم الذى أغفلته ودفعته بالحجة والبرهان ؟

هل هو الذى تلقيته من صاحبى ؟ أم هو الذى تلقاه زميلى من صاحبه ؟

وأخيراً هل هو الذى حكم به القضاء ؟ أم هو الذى أخفاه القضاء الأكبر ؟!

* * *

لقد خرجت من تلفتى إلى كومة الذكريات البالية . ومن وابل الأسئلة العديدة المختلطة والحيرة تعصف بعقلى ووجدانى . والسخرية من نفسى فى نفسى . وعلى شفتى . وفى عينى .

ولم ألبث أن ناجيت نفسى :

« ما أضيع إذن ما مضى من العمر وفات !

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وما أقل المقبل منه وما أذله . إن لحق بسابقه فى الوصف . وفى المضمار !

وما أهون ما بذلنا . وأنقذنا !

وما أتفه ما نلنا وحصلنا !

وما أبخس ما أعطينا أو أخذنا !

أجل ما أهون وما أتفه وما أبخس ما أخذنا وأعطينا . . . نحن المحامين .

فإننى واحد يحتزل فى وصفى مجموع المحامين . تجرى أعمالنا فى فلك واحد . كأننا أشباح تسير وتعمل وتتكلم ثم تنتهى أعمالنا وأقوالنا إلى شباة من أقلام القضاة يجرى بها قضاء الله .

وتساءلت ألم يكن حتماً أن يجرى قضاء الله على أقلام القضاء حتى ولو لم نقم بما قمنا به . . . بل ولو لم يثبت القضاة أو يمحون من أقوالنا . وأقوال موكلينا ؟

وهل نكون نحن والقضاة — قد خدمنا العدالة فعلاً ؟

أم أننا جميعاً مخدوعون . والله يفعل ما يشاء ؟ !

ولكن ما هى العدالة حقاً ؟ أليس هذا هو السؤال الذى يجب أن يُوجه أولا ؟ !

أهى أن يعدم هذا القاتل ؟ ألا يمكن أن تكون العدالة فى أن يقتل الذى قُتل ؟

أهى أن يبرىء الذى سفك الدماء ؟ وهل كان من العدالة أن يفلت ؟

وهل هذا السارق الذى سجن هو وحده الذى سرق ؟

أليست الدنيا دائماً مليئة بالسارقين . ألسنا كلنا سارقون . والحياة فى عالم الطبيعة ، وفى عالم الحيوان . وفى عالم الإنسان تسرب من يد إلى يد . وانتقال من مكان إلى مكان . واغتصاب . وخطف ... وسرقة بإكراه . أو بالتحايل الذى يفقد الإرادة حتى يصبح إكراهاً ؟ !

وهذا الزانى وتلك الزانية اللذان يحاكمان وقد يسجنان أو يبرءان أهما وحدهما

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

اللذان يزنيان . ألسنا كلنا زناة . ولو بالنظرة . ولو بالفكرة . ولو بالتصور . ولو بالرغبة ؟ أليس العالم مليئاً بالزناة منذ بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟

فلماذا يقتص منهما القضاء وحدهما و يترك الباقين ؟

و إذا كان السارق يشترك مع الناس جميعاً فى خلة السرقة . والقاتل كأى شخص غير قاتل من بنى الإنسان الذين إذا تهيأ للواحد منهم فرصة القتل وحسب أن القانون لن يطوله فإنه لن يتوانى عن قتل خصمه . وما أكثر خصوم كل إنسان !

إذا كان الزناة ككل الناس الذين يزنون فعلا أو بالنظرة أو بالفكرة و بالرغبة .

إذا كان الناس جميعاً يشتركون فى الخطيئة وفى الجريمة : واحد يرتكبها و يفلت .

وواحد يريد أن يرتكبها . وواحد يرغب فى ارتكابها . وواحد ارتكبها فعلا ... فلماذا العقاب ولماذا الزجر ؟

ألكى يعتبر الناس فيمتنعون عن ارتكابها . فيصفو وجه المجتمع وتستقر أوضاع الحياة . و يطمئن الناس فى حياتهم ؟!

وهل امتنع الناس يوماً عن ارتكاب الجريمة ؟

فى عصر الجاهلية — وعصور الأنبياء والقديسين — وعصور العلم والنور — وعصر الروحانية . وعصر المادة . فى كل هذه العصور كانت الخطيئة « وارتكبت الجريمة » ولم ينفع عقاب ولم يزجر قصاص !

ألم ترغب الكتب السموية فى حسن السلوك ؟

ألم تتوعد المرتكبين الخاطئين المجرمين بالعذاب والعقاب وجهنم ذات اللهب المستعر ؟

وعرف الناس وآمنوا أنها كتب من عند الله ورسالات من صاحب

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الخليقة . وصاحب الآخرة . وصاحب العقاب والانتقام . ومع ذلك سار ركب الناس فى قافلة الزمن ... الإنسان ومعه الخطيئة والجريمة جنباً إلى جنب !

إذن فهذا عبث ما صنعنا . ومانصنع . فلا عدالة خدمنا . ولا غيرنا سيخدم العدالة وستظل العدالة دائماً لغزاً . وستظل الجريمة دائماً قائمة وسيظل العقاب ضربة قد تستقر على من لا يستحقها . وقد يفلت منها من يستحقها . وهى فى الحالتين لن تصلح مفسداً . ولن ترجع غاوياً .

و إذن فهذا مجهود ضائع الذى قضيت فيه ربع قرن من الزمان لم يثمر للمجموع خدمة . ولكنه أفادنى إذ كنت كعداد التاكسى : مشوار يساوى ستة قروش ومشوار يساوى عشرين وثالث يساوى جنيهاً أو جنيهات ! وقد حصلت على المال فاكتسيت وطعمت وتلذذت و بنيت . ونلت به من أمانى فى الحياة ما طابت به نفسى وقرت به عينى ! .

ولكن ... هل هذا ما طمعت فيه فى أول الرحلة ؟

هل هذا هو الخيال الذى سرت إليه وقد حددت الهدف . ورسمت الطريق ؟

هل هذه هى الثمرة التى أملت فى اجتنائها يوم جلست وراء مكتبى الذى اشتريته بأربعة جنيهات ووضعته فى الشقة الأولى من عمارة عباس الأسكندرانى فى شارع حسن الأكبر التى أجرتها بأربعة جنيهات . وأنفقت على تأثيثها أربعين جنيهاً ... ثم نظرت من النافذة إلى القاهرة .. وتحديت فى نظرتى مليوناً ونصف من سكان القاهرة وقتئذ . إذ كنت وحيداً ليس لى فى هذا البلد الكبير لا عم ولا خال ولا أهل ولا صهر ولا نسب ومع ذلك ناديت هذا المليون ونصف من عباد الله إلى مكتبى ليفيدوا من علمى وفنى ! .

لقد آليت على نفسى عندئذ أن أؤمن برسالتى . وأن أسير على مبادىء الأخلاق التى تعارف عليها الناس . فلا كذب . ولا غش ولا خداع ولا خيانة للأمانة . ولا إسفاف فى التقاضى أو القضايا . ولا مطمع فى مال ليس حلالا لى . ولا شطط فى أموال الناس... ثم سرت خمسة وعشرين عاماً لا أظن أننى خالفت

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

مبدأ من هذه المبادىء بل أخذت نفسى بالشدة والعنف وكنت أكون فى حاجة إلى نصف جنيه فأعف عن عشرات الجنيهات . وطرقت أبواب النجاح بعنف وفتحتها وحدى . ومشيت فى طريق الشوك وقاسيته . وذقت المرارة والألم والحرمان والأذى ...

ثم هأنذا بعد خمسة وعشرين عاماً أجد نفسى بعد صون المبادىء . و بعد عذاب الجهاد . . . عبارة عن تاكسى يسير مشواراً بمبلغ معين . وهو فى هذا المشوار يضرب النفير . ويدوس على البنزين ويسرع تارة أخرى ويقف حيناً ويمرق من سيارات أخرى أحياناً وقد يدهس راجلا . وقد يتفادى آخر .

هأنذا بعد خمس وعشرين سنة أجدنى قد أخطأت وزللت .. وارتكبت مضطراً حيناً وضالاً عن الحق أحياناً .

كل هذا بمبلغ ثابت أناله عند آخر المشوار والفرق بينى و بين التاكسى أنه لا بد أن ينال أجره آخر المشوار و إلا فالعراك والضرب . . ور بما قسم البوليس . أما أنا ففى أغلب الأحيان قد لا أنال الأجر . ولا الحمد ولا الشكر و إنما قد أنال نكران الجميل وجحود المجهود ور بما شيئاً قليلاً أو كثيراً من الشتم وشائعات السوء ور بما أيضاً إلقاء التهم والشكايات .

إذاً فما أضيع العمر . وما أشد غباوتى طوال هذا العهد الطويل إذ لم أتنبه إلى هذه الحقيقة المؤلمة .. !!

ولو كان فى الإمكان الرجوع القهقرى لهان الخطب .

ولو كان فى الإمكان تعديل الحال لخفت المصيبة .

ولكنه زمن تقضى .. ولا يعود .

وحال طواها الماضى . والماضى لا يرد وديعة . يا له من خائن ظالم !!.

لقد تأرقت ليالى سهرتها أنثر ذكرياتى عن هذه السنين . وتألمت حين تصورت ماضىّ على هذه الصورة اللعينة . وقمت الليل بين سيجارة تشتعل وتنطفى

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وهى لا تطفىء لوعتى وحزنى على عمرى الضائع . و بين سير فى جنح الليل المظلم البارد بين أشجار كالظلال الثقيلة . و بين وحشة تكاد تحطم كل حياة فى كيانى الثائر . حتى كان صباح قمته متثاقلا . وصممت على أن أكف قدمىّ عن السير إلى المحكمة حتى أفصل فى قضيتى التى نشأت من تفكيرى فى مرور خمسة وعشرين عاماً على اشتغالى بالمحاماة . وتأخرت فى موعدى عن المحكمة وأخذت طريق فى شوارع القاهرة سرباً . وسرت فى طرقات المدينة التى جئتها طالباً من أواسط الصعيد فقيراً حيناً . ومكفوف الحاجة حيناً . وثرياً ملىء الجيب حيناً آخر . فآوتنى وأسعدتنى بالعيش والحب واللذة الروحية والجسدية وأصبحت هى جزءاً هاماً من حياتى لأنها وعاء الزمن الذى عشته صبياً وشاباً وأصبحت أنا جزءاً منها . فما المدينة إلا معالمها وسكانها .

سرت فى طرقاتها التى ألفت وأحببت السير فيها منذ أن كانت سوارس والعربات « الكوبيل » « والبيزابيه » « وزينب هانم » إلى الكاديلاك والكريزلر والأتوبيسات الضخمة .. والطيارات النفاثة .

هذه الطرقات التى كنت أحن شوقاً إليها وأنا أسير فى شوارع لندن وباريس وفينا وبرلين وروما وجنيف...وأقول أين تراب مصر . أين ذباب مصر ؟ حتى هذين اشتقت إليهما ...

كم أصبحت اليوم أبغضها ...

ولم لا ؟ ألم أشهد فيها مصرع ربع قرن من الزمن ضاع سدى . وأهدر عبثاً .. وذهب ذبيح كفاح ضائع . ومال بغيض ؟ !

لقد خدعتنى هذه المدينة حين آوتنى وحين أعطتنى النجاح . وكنت أحسب أننى انتصرت عليها أنا الوحيد الذى تحديتها . فإذا الحقيقة أنها هى التى خدعتنى . وصورت لى النجاح وقبلت تحدّى .. وهاهى ذى تقذف بى فى طرقاتها يائساً . ضائعاً . باكياً شباباً لن يعود وكفاحاً لن يعوض !!

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

... ووصلت إلى مكتبي الذى عشت فيه كالعش الجميل أحبه حب الطائر لعشه ومهده وحين أتركه لمرض أغالب المرض لكى أعود إليه . وحين أبعد عنه لسفر أو نزهة أختصر اللذات لكى أرجع إليه و إلى شقائى وتعبى فيه فأجد اللذة والراحة . ولكننى رأيته اليوم بغيضاً . ونفرت منه . واستعذت بالله من موقعه وشكله .

وجلست إلى المكتب . مهد أفكارى ومسرح خيالى . أقلب أوراق الدعاوى وملفات القضايا وكأنما تنساب من بين سطورها ثعابين رقطاء . زرق النياب تنهش فى قلبى ووجدانى ...

وجاءنى الساعى ينبئنى بأن سيدة تريد مقابلتى . فلحقتها فى أعماق لعنتى للزمان والمكان . ولعنت معها كل السيدات . ولم ألتفت إلى اسمها وكان طبيعياً أن أعتذر عن مقابلتهـــا . ولكن يظهر أن سخطى المكتوم وإحاطة الألم بنفسى جعلانى أحيا لحظاتى داخلياً . فلم أنبس بالرفض فأدخلها الساعى فإذا سيدة مكتملة الفتوة والأنوثة تدخل علىّ مشرقة الوجه بالأمل والانشراح وفى يديها طفلان بنت صغيرة حلوة وولد يلمع الذكاء فى عينيه و يفيض الإثنان بالصحة والسرور . وأنا أب أضعف من منظر الأطفال . فنسيت فوراً آلامى وضياع عمرى وتقبلت السيدة وطفليها بقبول و بشاشة هى جزء من طبعى . وما أن استقرت السيدة فى مكانها حتى ابتدأت تحيينى وتفتن فى الدعوات الصالحة لى وتعبر عن شكرها وامتنانها لله ولى إذ هيأت لها حياة صالحة وزوجية موفقة . و بيتاً فيه الزوج المحب والأطفال الأعزاء والعيشة الهنية . وأنا لا أذكر أننى لقيتها من قبل حتى كدت أكذب عينىّ وسمعى .. وشيئاً فشيئاً ذكرت اسمها واسم أبيها ونتفاً من موضوعها فعادت إلىّ ذاكرتى وعادت بى هذه الذاكرة عشر سنوات إلى الوراء حين كنت فى بيتى فكلمنى أحد عملائى وكان طبيباً حديثاً وكان ذا مال ومن بيت ذى جاه وقد تزوج فتاة حلوة من بيت طيب ولم تمض أشهر على هـذا الزواج حتى عرض له سفر طارىء فرحل إلى غيبة أيام ولكنه عاد فى نفس اليوم وفيما هو يمر بسيارته على باب إحدى دور السينما إذ أبصر بزوجته و بجانبها شاب ضابط كان خطيباً لها فى يوم من الأيام قبل زواجها وهما خارجان

من السينما يتحدثان . فأخذته النخوة وثارت فى عروقه الغيرة وفاضت ثورته فنادى العسكرى وقبض عليهما أخذاً إلى قسم البوليس . وهناك طلبنى لأحضر تحقيق محضر الزنا وأسرعت فقد وجدت أنه فى ضيق نفسى ما بعده ضيق . ودخلت قسم البوليس وكان المأمور صديقاً لى فلما علم بحضورى استأنى وتمهل فى ضبط الواقعة . وسمعت قصة الزوج وقصة الزوجة التى أقسمت والصدق فى نبراتها والبراءة فى دموع عينيها أنها لم تر خطيبها السابق إلا لحظة أن فاجأها زوجها . وكان عليها أن ترد تحيته فهو خطيبها السابق ومن ذوى قرباها . والزوج مصمم على تحرير المحضر واتهامها وخطيبها بالزنا .

وكان « عملى » الروتينى أن أطلب تحرير المحضر واستمرار الإجراءات .

ولكن « ضميرى » وهو جزء من إنسانيتى أملى علىّ أن أنهى الأمر على خلاف ما أمّل الزوج الثائر فاستأذنت من المأمور وأخذت موكلى الطبيب الثائر . وخرجت به إلى الطريق . إلى المكان العجيب الذى لا يقف فيه أحد فإما راحل أو عائد . هذا يأخذ طريقه سريعاً إلى قلب المدينة وذاك يدبر عن المدينة إلى خارجها .. إلى ميدان محطة مصر حيث يتدفق آلاف من القاهرة وينصب فيها آلاف .

وتنفس الطبيب نفساً عميقاً . وظن أننى أريد « مقاولته » فأخرج محفظته واغتصب منها جنيهات بيد مرتعشة وقال :

— « إن شئت زدت و إنما خلصنى من هذه المصيبة » .

فرددت ماله إلى حافظته ووضعتها فى جيبه وسألته فى هدوء .

— أى مصيبة تقصد ؟

— مصيبة المرأة الفاجرة !

— أى امرأة فاجرة تعنى ؟ وكيف تظن أنها خانتك ؟ ألا يجوز أنها صادقة ؟

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أليس من المحتمل أن تكون رأته صدفة ؟ أليس جائزاً أنها أرادت أن ترد له خطابات أو تتسلم منه خطابات كانا قد تبادلاها فى أيام الخطبة ؟

ألا يجوز أنه هددها أن تقابله . وقد تكون أنت أداة التهديد ...

لماذا لا تكون صديقاً رقيقاً ككل صديق فتقف بجوار زوجتك فى هذه المصيبة التى وقعت هى فيها وتحاول أن تعرف ما يسبقها من الأمر .

لماذا تحاول أن تحطمها وتثبت جريمة مشكوكاً فيها فى أوراق يفنى الزمن وهى باقية وصمة عار فى جبينها وجبين والديها وأهلها وعائلتها وأولادها وأحفادها من بعد ...

— « هل سبق أن شكوت من سلوكها ؟ » .

— « لا » . .

وهدأت أعصابه قليلا .

— « أنا أفهم أن تضبطها فى بيتك أو فى بيت يخلوان فيه لبعضهما فيكون اليقين من خيانتها فتسرحها غير آسف عليها أو تقتلها بالرصاص إن شئت ويعفيك القانون .. أما أن تقتلها أدبياً لشك لم يؤيد فهذا ظلم ... يا أخى .. أنا محاميك ومراعاة مصلحتك هى عملى .. ومع ذلك فأنا ناصح لك أن تأخذ زوجتك الآن إلى المنزل فإن اتضح لك صدقها استغفرت ربك . وإن ظهر لك سوء سلوكها تسرحها فى سكون ولك جزاء الإحسان » .

وظهر أنه اقتنع فإن الحديث انساب إليه من موضع أمانته . والناصح له فى مصيبته هو محاميه فنزل من نفسه موضع الاقتناع .

وعاد معى إلى القسم وتنازل عن شكواه دون أن تثبت فى محضر وأخذ زوجته وعدت معهما إلى المنزل . وقضينا ساعة من الزمن خلا الزوج فيها بزوجته إذا به يخرج من خلوتهما إلى التليفون ليحدث الضابط « المتهم » ويشكره يدعوه إلى المنزل فقد اتضح له أن هذا الضابط قد اكتشف أن أخت الطبيب المدعوة فى زميل له سافل الخلق . دنئ الطباع خسيس الأصل . وأنه قد وعدها

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

بالزواج فراسلته فأخذ يقرأ خطاباتها على زملائه وهو سكران ويفاخر بخداعها فثار عليه زميله الضابط المتهم اليوم وأخذ خطابات الفتاة منه وطلب زوجة الطبيب ليسلمها الخطابات ويرجوها أن تكشف كامرأة لأخت زوجها عن حقيقة خطيبها وأعطاها صوراً لهذا الخطيب الفاجر مع عاهرات . . . وكتم الإثنان الحقيقة حتى كادا يذهبان ضحية الكتمان إلى أن ألحّ عليها فكشفت الحقيقة . فبكى واستدعى الضابط وعانقه وهو يبكى ... ولم يخرج الضابط إلا وهو خطيب لأخت الطبيب .

إذن فقد أسعدت قوماً من عباد الله !

وكان فنى كفن الموسيقار الذى يسعد الناس بألحانه .

وكنت كالشاعر الذى يسعد بعض الناس . فى بعض الأحيان بمزاميره . وسحر بيانه .

بارقة أمل وإيمان

فرحت بزيارة الزوجة السعيدة .

وكانت فرحتى بلقائها صدمة سعيدة زعزعت الكفر الذى استبد بقلبى وخواطرى . الكفر بالمحاماة باعتبارها صنعة يكتسب منها الإنسان رزقاً ولا يفيد المجتمع منها شيئاً .

وقد كان يؤلمنى أن أعيش فى مجتمع إنسانى وينقضى أغلب العمر . أجمل العمر . أقوى أيام العمر ولا أكون قد أفدت الإنسانية فائدة أسعد بها . ويسعد الناس بها .

ولكن زيارة هذه الزوجة السعيدة أسلمتنى إلى لذة جميلة .. حاولت أن أستجلى كنهها . وأدرك حقيقتها فجلست إلى نافذة ذكرياتى وأخذت أتطلع إلى طريق الذكريات .. تماماً كما يجلس المكروب أو المحبوس يتطلع إلى الطريق

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

و يتسلى بمرآى الغادين والرائحين و يفكر فى كل واحد من هؤلاء . و يتجاوب على البعد مع هؤلاء المجهولين منه . وتذكرت يوم كنت محبوساً فى سجن الأجانب — لجريمة سياسية طبعاً — وأخذت مكانى فى نافذة السجن المطلة على مفارق طرق شارع عماد الدين وشارع رمسيس (الملكة نازلى عندئذ) وأخذت أتحدث بالمناجاة و باللسان مع كل سائر على قدميه أو راكب سيارة أو عربة حنطور أو عربة كارو أو عربة نقل وكل ركاب المترو . . كنت أتجاوب مع كل واحد وواحدة منهم . أتحدث إلى المكروب . و إلى الفرحان . إلى المدين البائس وإلى الغنى السعيد إلى العاشق و إلى المحموم إلى المريض الداخل إلى « عيادة » الأمل وإليه وهو خارج يترنح بين اليأس والرجاء . و إلى الذى يفكر فى الجريمة و إلى الذى ارتكبها . إلى القاتل الذى وثب إلى غريمه سريعاً خفيفاً . و إليه وهو عائد يهرب من طيف ضحيته و يداه تقطران من دمائه .

فى هذا العالم المعقد المترنح كالسكران بين الهدى والضلال . عشت أياماً طوالاً وأنا أحدث هؤلاء وأجبرهم على أن يتحدثوا معى وأنصحهم فلا ينتصحون .

تماماً مثل مافعلت مع هذا الطريق . وعالمه . وناسه . ومجتمعه أطللت من نافذة الذكريات وأحضرت الذين عشت معهم هذه الفترة الطويلة من العمر وأخذت أناجيهم وأحاورهم وأتحدث معهم وأجبرهم على أن يتحدثوا معى .

هنا برقت لى بارقة أمل وإيمان .

وأدركت وأنا أنشر ما فى مضاجع ذكرياتى أن هناك آراء ومبادىء وأفكار تهوم من مضاجعها مع القائمين من الناس الذين ناصرتهم وأنقذتهم وأقلت عثراتهم .

وكانت هذه الآراء والمبادىء والأفكار حية . قوية . أشد حياة من الناس . وأقوى بنياناً من الآدميين . ولقد كانت الآراء والمبادىء والأفكار دائماً أشد حياة وأقوى . لأن الإنسان فانٍ بطبعه وخلقته أما هذه الآراء فخالدة لأنها قبس من « نور الله » .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الكفر والإيمان :

أدركت أول ما أدركت أن الكفر بالشيء هو أول مرتبة من مراتب الإيمان به . ولقد حضرتنى قصة قرأتها فى شبابى . إذ وقف أعرابى وابنته الصبية فى الطريق وإذا بجماعة يحملون رجلاً شيخاً ضعيفاً على محفة فسألت الصبية أباها .

« من هذا الذى يحمله الناس يا أبى ويقف له من بالطريق » ؟

فأجابها أبوها :

« هذا يا ابنتى الفخر الرازى !

« ومن الفخر الرازى يا أبتى ؟

« أنه يا ابنتى الذى أقام ألف دليل على وجود الله ...

فأجابت الصبية فور البديهة :

« قاتله الله ... لقد قام فى نفسه ألف شك فى وجود الله ! »

وتأسيت عن كفرى بالمحاماة . وبالعدالة فلولا هذا الكفر الذى استبد بعقلى وقلبى وخواطرى ما تقصيت أسباب إيمانى بهما . وما سلكت الطريق إلى هذا الإيمان .

وإنه ليتأسى بهذا كل كافر بشيء ... فإن أنت كفرت ببلادك ونقائصها فلا تحزن فإنك لا شك باحث عن علاج لهذا النقص وقد تصل إلى الدواء . وقد تكون هادياً ومصلحاً .

وإن أنت كفرت بالشباب . بالمثل العليا . بالتضحية . بالروحانيات فلا تبتئس فأنت فى منعرج الطريق .. وأنت لاشك آخذ سمتك إلى الإيمان بها ..

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

العبادة والعمل :

وجاءنى بعد ذلك الرأى الذى يقول لى ويخاطبنى وكأنه ينهرنى :

« ألست تعمل ؟ أليس من العمل ما هو خيرٌ ومنه ما هو شر ؟ !

« أليس العمل هو « التروس » التى تسير بها عجلة الإنسانية ...

أليس العمل هو الذى أراده الله — القوة العظيمة الخفية الخالقة المدبرة — لكى يتكون به المجتمع ويسير نحو رقى مضطرد ...

أليس هو الذى عناه الله سبحانه وتعالى حين قال :

« وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون »

والعبادة كما يراها المفسرون النابهون .. هى العمل . إذ أن العمل هو أساس عمران الكون . وسر سيره وتقدمه .

وأما نتائج العمل فليس لك يد فيها فإن عملك مترتب على عمل غيرك . ونتائجه مدبرة بيد المدبر الأكبر ويكفيك أن تعمل وأنت تعتقد أنك تعمل عملا صالحاً وتؤدى واجباً .

« قل اعملوا فسيرى الله عملكم »

سيراها إن كانت شراً . أم خيراً . أردتها أنت شراً أم خيراً . أما نتائجها فلست محاسباً عليها .

يكفى أنك تعمل وأنت تريد صلاحاً وإصلاحاً وخيراً ... « فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى » .

ارتحت إلى هذا الخاطر وآمنت به ثم عدت إلى الناس فرأيت صوراً ! :

صورة هذا الشاب الذى تآمرت عليه عائلته إذ ورث مئات الأطيان ووقف عليه أبوه مئات الأطيان وكان قاصراً فلما بلغ أشده وضعوه تحت قوامة أخته التى زوجته ممن تأمر بأمرها وأخذت هى وزوجته وأقارب به يلتهمون ثروته التهاماً ..

وجاءنى وزوجة جديدة كانت تعمل ممثلة ناشئة فى إحدى الملاهى . . وقد استنكر أهله زواجه بها . . وركب رؤوسهم العار منها ولم يركب هذه الرؤوس عار سرقته ونهبه وأكل ماله بالإثم .

جاءنى الزوجان وليس معهما أجرة العربة التى أقلتهما إلى مكتبى فدفعتها لهما . . وظللت أكافح معهما السارقين ومن يناصرهم من أصحاب النفوذ خمس سنين . . حتى رددت إليه ماله وعينت الممثلة الناشئة التى استعارت منها العائلة حارسة وناظرة وقيمة فأحسنت عملها . وزارانى أخيراً فإذا لهما البنت المتزوجة ، والبنت المتعلمة ، والإبن الطالب فى الحقوق . . وهم سعداء .

ورأيت صورة الفتاة التى كانت كلما كربها كرب قدمت إلىّ لأقضى على كروبها وأفتح لها باب الأمل ، فقد كانت جميلة جمالا فائقاً وكلما تزوجت ساء حظها . . إلى أن تزوجت شاباً متعلماً تعليما عالياً ويمارس صناعة راقية ، ولكنه سكير إلى حد أسلمه الإدمان فيه إلى الإباحية . . فهو يجمع فى منزله شباناً ومعهم زوجاتهم وأخواتهم وصديقاتهم . . ويتبادلونهم ! وإذا هو يريدها أن تفعل مثل ما يفعلن . . وكانت عفة ، طاهرة ، تريد حياة شريفة . فلما أنكرت مسلكه ضربها وحبسها وظلت حبيسة معذبة حتى استطاعت أن تبعث إلىّ برسالة مع صبية ذكية هى إبنة البواب . . وكان الشاب الراقى من قرباه ذوو نفوذ ، فأقمت الدنيا وأقعدتها واستعديت أعلا الجهات ، وقمت ومعى وكيل النائب العام وأحد كبار رجال البوليس — وكان من أقارب الشاب رجل من أكبر رجال البوليس عندئذ — وأخرجنا الضحية وهى فى حالة يرثى لها من الضعف والعذاب . . واكتفينا بتطليقها ، ثم تزوجت من بعد رجلا كريماً لا يعرف شيئاً عما وقع لها ، ولها منه اليوم بنون وبنات ، وهى تسأل عنى بين حين وآخر . . وإن كان سؤالا مختصراً فى التليفون إلا أنه صوت جميل من عرفان الجميل . . وصورة الرجل الكريم الفاضل العف النزيه الذى كان قد أشرف على الإحالة على المعاش بعد خدمة سنوات طويلة فى الحكومة ، فإذا به يبتلى برئيس إنجليزى كبير يتهمه بالسرقة والاختلاس والتبديد والتزوير — ٢٧ تهمة جناية ! وتنعقد لجنة تحقيق

يرأسها رئيس نيابة كبير ، وتظل هذه اللجنة ـ مسايرة للرجل الإنجليزى الكبير ـ تضع الحبل حول عنق هذا الرجل الفاضل النزيه العف عاماً ونصف عام ، ثم تشكل محكمة عسكرية عليا لمحاكمته . . وأترك كل عملى وأظل ماثلا أمام المحكمة سنة كاملة ترافعت فيها ٥٢ يوماً وكتبت فيها مذكرات عدد صفحاتها ألف ومائتى صحيفة !

فلما برىء من جميع هذه التهم كان قد استكمل معاشه . ومات بعد أسبوع من استكماله المعاش ، مات وهو ضاحك سعيد يدعو لى بالخير والتوفيق . . وعاش بعده أولاده هانئون ينظرون إلى حين يزورونني — وقد كبروا — كأننى المنقذ .

* * *

السعادة .. وأين هى ؟

تتابعت الصور ، بالمئات ، بل الآلاف ، وخرجت من هذه الصور ، صور الناس الذين أسعدتهم ، والذين لم أستطع أن أسعدهم لأن قضاء الله كان أغلب ، وأقوى ، ولكننى كنت راضياً عما قدمت لهم من ذات عقلى ، ونفسى ، وقلبى ووجدانى .

خرجت من هذه الصور بأمر كان له أعظم الأهمية فى حياتى :

أننى أسعدت الكثيرين من الناس .

وأننى أديت واجبى حسب ضميرى فى كل ما قمت به من عمل .

وكانت هذه النتيجة كافية لتقرر لى مبدأ هو أعظم وأسمى فلسفة خرجت بها فى حياتى .

تلك هى أن السعادة ليست فى كثرة المال فعندما أصبح لى مال أصبحت تياً ، بحفظه ، وحل مشاكله .

وليست هى فى المجد والشهرة والحياة ، فإن متاعب المجد والشهرة والجاه الكثرة والقوة بحيث تقلب نوم الإنسان أرقاً وابتسامته عبوساً ، ولذاته شقاء

وتخلق العداوة والأعداء ، والحسد والحاسدين ، والحقد والحاقدين ، وتظلله بغمامة سوداء من كراهية الناس ، من يعرفه ، ومن لا يعرفه .

وإنما السعادة فى أمرين لا ثالث لهما .

أداء الوجب .

وإسعاد الآخرين .

يزينهما إيمان بالله وإيمان بالإنسانية ، وإيمان بالوطن ، وإيمان بالمجتمع ، وإيمان بالأسرة وإيمان بالأخلاق والمثل العليا .

ولقد تذكرت وأنا أطرح المال والجاه والشهرة والمجد من « كشف » أسباب السعادة ، وأحل مكانها عاملين روحيين قد لا يكون لهما اعتبار ما عند أكثر الناس ، وخاصة فى عصر المادة ، وحيث أصيب أكثر الناس بسعار المال والجاه والشهرة والمجد .

تذكرت حديثاً قرأته أو سمعته عن محمد النبى الأمى ، قال صلى الله عليه وسلم أو كما قال :

« من جعل الدنيا همه ، فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولن يصيبه منها إلا ما كتب الله له .. ومن جعل الأخرى همه ، جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى صاغرة » .

لقد تبدد أكثر كفرى بالمحاماة ونسخ أغلب حزنى على الفترة الطويلة التى أمضيتها فيها ..

ولكن بقيت أمور لم تحل !

العدالة ودورنا نحن المحامين فيها :

أما المحامى الذى يعرف القاتل والسارق والزانى والآثم ويقول إنهم أبرياء .

والذى يعرف أن صاحبه مبطل كافر ويقول إنه صاحب حق ، فهذا لا شأن

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لنا به الآن ، و إنما شأننا معه فى فصول هذا الكتاب .

إنما أقصد المحامى الذى يؤدى واجبه بأمانة .

ما دوره فى ميزان العدالة اعتدالا أو بخساً ، ترجيحاً أو تفويتاً أو قلباً ؟

أو بمعنى آخر ، أو فى سؤال آخر هل يستطيع المحامى دائماً أن ينجى البرىء و يرد الحق ، و يعين على الأخذ بناصية الآثم ويكف يد الظالم عن مال المظلومين ؟

نعم ، ولا ..

أما نعم فجزئياً — إذ أن المحامى الفنان المبدع . الذكى المؤمن بما يقول . المتمكن من علمه . المسيطر على تفكيره وتعبيره . والذى تزينه المواهب والأخلاق التى سنبينها فى هذا الكتاب . هذا المحامى قد يفلح كثيراً فى إنارة الطريق بمشعل فنه للقاضى الذى يقضى ويحكم .

ولكن يتفرع من هنا أمر لا بد من بحثه ...

هل نجاح المحامى فى مهنته . و بلوغه القصد فى قضيته هو تحقيق للعدالة ؟

إنه مؤمن بعدالة ما يدافع عنه !

ولكن أليس يحكم بظاهر الأمر ؟

ألا يجوز أن يكون مخدوعاً ؟

ألا يحتمل أن يكون قد وضحت له أمور واستسر عنه الأهم من تلك الأمور ؟

أجل . ذلك جائز . ومحتمل . لأن المحامى الحق الذى يؤمن بعدالة ما يترافع عنه لا يستمد معرفته من الغيب المستور ولكن من المقروء والمنظور ومن المنقول والمعقول ...

ولكن هناك فى عالم الغيب تخفى الحقائق عن الأبصار والبصائر لا يعلمها

إلا علام الغيوب . وهو يقضى — سبحانه — بما يراه عدلا لا ما نراه نحن عدلا .

ومن آياته سبحانه وتعالى ما جاء بسورة الكهف من قصة موسى والعبد الصالح إذ أراد الله أن يضرب للناس مثلا يوضح سر أحداث الحياة الدنيا و يبين للخلق : أن للأحداث وجهان وحكمتان وجه ظاهر وحكمة ظاهرة وأخريان خفيان ...

فضرب مثل السفينة تنقل موسى والعبد الصالح بغير أجر وتفضل أصحابها عليهما بنقلهما عبرَ بحرٍ لجيّ لاسبيل إلى خوضه أو عبوره إلا على جارية . فإذا العبد الصالح يرتكب «جريمة» إتلاف السفينة ويحكم موسى بأنه عمل نكر ، وأنه جريمة . ويضيق العبد الصالح بتعجله ويهدد موسى .. و يسيران فإذا العبد الصالح يرى صبياً جميلا تهفو العين إلى مرآه و تحنو على تطلقه و إشراق محياه . . فلا يداعبه أو يلاعبه أو يهديه شيئاً جميلا ولكنه يمسكه ويذبحه و يرتكب أشنع جريمة هى « جريمة القتل العمد » . . بغير حق وضحيته بريئة لم تقترف ذنباً ولم ترتكب إثماً و يصيح الإنسان من أعماق موسى النبي :

« أقتلت نفساً بغير نفس ؟ »

ويحكم على العبد الصالح بأنه قاتل . وقاتل من الطراز الأول ولا سبيل إلى أخذه حتى بالرأفة !

ويضيق العبد الصالح مرة أخرى بموسى النبي الذى خفى عليه علم الغيب وحكمته . . . ولكنه تحت تهديده بالفراق يعاهده أن يسكت وإذا هما بعد حين فى قرية بخل عليهما أهلها وضنوا بإيوائهما أو إطعامهما وقد أخذ الجوع منهما مأخذ القتل . و بلغ الظمأ بهما حد الهلاك فإذا بهذا الجحود يقابله العبد الصالح بعمل صالح إذ يرى جداراً يكاد أن ينقض فيهدمه ثم يعيد بناءه غير ملتمس أجراً .

ويضيق موسى النبي .. و يفضل أن يتلقى التفسير ثم ينطلق مفارقاً صاحبه ...

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وكشف العبد الصالح عن الحقيقة الخفية . والحكمة الإلهية المستسرة التى لايدركها البشر « فأما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . أما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . أما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً » .

« صدق الله العظيم »

إذن فالحكمة الخفيــة ليست هى التى تنتهى إليها نظرتنا إلى الأمور ولا يثمرها تفكيرنا فيها . ولا التى يتفاعل بها وجداننا . .

فقد نعتقد أن هذا الشاب الذى اتهم بقتل المرأة التى كان يحبها والتى كان قد خطبها ولم تبق إلا أيام لكى يتزوجها قاتل . . ولكنه لم يكن له مصلحة فى قتلها . . لم تمتنع عليه . ولا رفضت مطلبه . ولا كرهته . ولا شاع عنها سوء ...

ولكن لم يظهر بطل للجريمة غيره . كان عندها . ورؤى خارجاً من مسكنها .. واكتشفت جثتها بعد قليل من تركه إياها . .

لقد قضى ببراءته .

فهل قتلت لأن قتلها يحسم شراً عنها أو عنه أو عن آخرين ؟ .

وهل قتلها هو .. بسبب قد يكون شعوره بعد تورطه معها بعجزه كرجل .. والرجل إذا أحس بعجزه الجنسى اقترب من الجريمة بسرعة و بعمى وجنون . .

ما الحق فى كل هذا الأمر ؟

إن الظاهر الذى يدافع عنه المحامى .. إنه برىء .

ولكنه — كما علمت بعد ذلك — لم يكن بريئاً ..

أما فلسفة العدالة قد تسلمنا إلى تيه لاهدى لنا فيه و إلى ضلال لامنقذ لنا منه إلا بالتجاءنا إلى حكمة الله البالغة تلك التى أوضحها بين موسى والعبد الصالح .

وحسب المحامى أن يدافع عن يقين يؤمن به .

وحسب القاضى أن يحكم بما يقرأه فى الأوراق و يسمعه فى التحقيق والمرافعة و يمتلىء به يقينه .

أما العدل .. فهو عند الله فى سمائه .. لا نستطيع الوصول إليه بعقولنا القاصرة عن فهم الأسرار العليا ولا ببصائرنا المغمضة عن النظر إلى غيوم الغيب وخفاياه .

أما أن المحامى لاينجح فى تحقيق العدالة فى قضية ما رغم مواهبه وما أوتى من طبع وسجية ومران فيرجع إلى أن المرجع فى النتائج إلى القضاة وفهمهم واختلافهم فى مراتب الذكاء والعقول . وإلى تباين أعصابهم ووجدانهم . وانفعالهم وشعورهم . فقد يكون الأمر واضحاً لدى أحدهم وهو غامض عند آخر مما سنفصله فى كتابنا هذا .

* * *

وننتهى من هذا إلى أن المحامى عليه فقط أن يؤمن بالقضية التى يدافع عنها . وأن يؤدى واجبه .

وليس له أن ينفعل بالنتائج لأن الحق وديعة عزيزة عند صاحب الحق الأعلى.

ولأن النتائج ليست من ثماره وحده . ولكن يشاركه فيها الذى يقضى فى الحق .

* * *

إذن فقد انحلت مشكلتى إذ انتهيت إلى أن المحامى يسعد بعدد من يسعدهم وكذلك بأداء واجبه كاملا .

وحسبه رضا تحقيق هذين الأمرين .

* * *

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وعندما انتهيت إلى هذا الحل للمشكلة التى كربتنى . وأحزنتنى و بعثت الحسرة فى نفسى على السنين الطويلة التى قضيتها لم أترك الفرصة لهذا الحل تذهب أباديد . ولم أفلت الفرصة التى أتاحت لى هذه السعادة بعد الشقاء الأليم تتبخر كالدخان فى الهواء .. بل تلمست منهما منفذاً إلى إفادة الجموع بأن أكتب كتاباً لم يكتبه أحد قبلى . هو هذا الكتاب . فإن الذين كتبوا وأحسنوا وأجادوا بما لا أصل إليه بقصور باعى فما أنا شىء بالنسبة لهنرى روبير مثلا . . إنما كتبوا دراسات . . أما أنا فأسطر انفعالات وأحاسيس وذكريات ودراسات نفسية لم أقرأها فقط ولكننى حصلتها أيضاً وأنا فى مكتبى — وفى الجلسة . وفى كل خطوة بين ردهات المحاكم .

وعاونني على ذلك أمران : طبيعة ناقدة فاحصة . وذاكرة لاتنسى .

أما طبيعتى الناقدة الفاحصة فهى علة من علل الكثيرة وعيب من عيوبى الوفيرة فقد اعتدت من صغرى إذا رأيت إنساناً أو حادثاً وضعته تحت مجهرى وقلبته على كل وجه . وأخرجت له أكثر من وصف . وأكثر من تعليل .. وقد أفلته بعد ذلك فلا أفيد منه شيئاً .

وكم رثيت وأرثى لحال صاحب الدعوى الذى ما أن يجلس أمامى فى مكتبى حتى أكون قد سلطت عليه مجهرى الفاحص فأرى وجهه وكيف يعبر وعما يعبر . ونظرات عينيه ، ونغمات صوته وحركات يديه ، وقد أسرح عن حديثه إلى تفكيرى وإلى النتائج التى أصل إليها . وقد أتغابى بعد أن أكون قد انتهيت إلى نتيجة .

وما أنسى لاأنسى رجلا جاءنى فأخذ يشرح لى قصة اغتيال حقوقه فى ميراث وكيف أن إخوته قد تآمروا على أكل ماله بالباطل وظل يتباكى ويلعن الزمان والدهر والإخوة والظلم ونكران الجميل .

وما راعه بعد ساعة من الزمان وهو يتكلم إلا أن أواجهه بقولى :

« دع هذا التمثيل . وقل لى الحقيقة . ماذا تريد منى ؟

« هل تريد أن أعاونك على صحة عقد بيع مزور حررته وبصمته بختم أبيك؟

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وحيانى الرجل وخرج صامتاً .. وخشيت أن يكون قد حسبنى مجنوناً .. وندمت على تسرعى بإظهار الصورة الإيجابية لما انطبع من مجهرى فى يقينى .. ولكن ندمى زال فى اليوم التالى إذ جاءنى إخوته يوكلوننى فى قضية ضد هذا الأخ الذى ظهر أنه أكل تركة أبيه التى تربو على خمسين ألف جنيه بعقود مزورة !!.

* * *

وكم أرثى لحال القاضى الذى أجلس تحت منصته ، أو المحامى الذى أرفع بصرى إليه فإذا كلاهما موضوع تحت المجهر و بعد قليل أستطيع — فى أغلب الأحيان — أن أضع القاضى فى درجته من العلم والذكاء والخبرة والعصبية والوجدانية .. وكذلك المحامى .

* * *

إن هذه الخبرة التى حصلتها فى مدة تزيد عن الربع قرن وتقرب من ثلثه لجديرة بأن تقدم إلى القارئين من رجال المحاماة والقضاة ومن المبتدئين ومن الطلاب ومن جمهرة المتقاضين لتفيدهم فى كثير أو قليل . وأعتقد أن الإخلاص والصدق اللذين لعلهما الميزتان الغالبتان فيما سطرت سيكونان عوناً للكثيرين على الأقل من قراء العربية .

والله المستعان

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فن ... أم صناعة

إن المحاماة فن رفيع .

ومن أدركها فناً فقد ظفر .

ومن اتخذها صناعة فقد فشل ولو أصاب فيها مجداً ومالا وصيتاً ذائعاً .

وهى إن كانت صناعة — أو مهنة كما يسميها العوام من أهلها — والجاهلون من جمهرة الناس المتأثرون بأخلاق وسلوك بعض المحامين — فهى لا تستحق أن يمارسها ذو كرامة أو ذو علم أو ذو دين وخلق .

فإنها إن كانت كذلك فقد سارت بصاحبها إلى اعتناق الجريمة ومصاحبة الباطل ، وإن ذلك نفسه لجريمة !

أما إن كانت فناً .. وفناً رفيعاً فإنها وسيلة لإسعاد الخلق و إلى رفع مستوى المجتمع وتدعيم بناءه وتمكين قوائمه . بل إنها طريق من طرق نشر السلام فى هذا الكون .

* * *

ما هو الفن .

لم يستطع أحد من المتقدمين أو المحدثين أن يضع تعريفاً جامعاً للفن .. ذلك أنهم يعقّدون الكلمة والمعنى عندما يريدون وضع تعريف لها .. وأبسط من التعريف .. الفهم .. وقد يفهم الإنسان أمراً ولكنه لا يستطيع أن يصفه أو يعرفه ، أو يعبر عنه .

والذى نفهمه عن الفن أنه تعبير راق للون من الجمال ينبع من إحساس الفنان و ينصب رقيقاً وادعاً إلى إحساس الآخرين ..

والمحاماة تعبر عن الحق والعدل .. وليس أجمل من الحق .. ولا أبهى من العدل ..

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وهى تعبر بأشرف ما ميز الله به الإنسان عن باقى الحيوانات وهو اللسان .

ولولا اللسان ما كان الإنسان . ولا الحياة الدنيا .. إذ ماذا يكون حال هذه الدنيا لو كان الإنسان فيها حيواناً أخرس !

لكانت حتماً كلها خرساء .. شوهاء لا جمال فيها ..

وهى تعبر أيضاً بالقلم وحسب القلم شرفاً أنه أداة كل فن جميل ورفيع ، وأنه الذى علم به الله الإنسان . علمه مالم يعلم .

ولكى نقرب الأمور إلى الأفهام .. وإن كانت القضية ليست عسيرة ، ولكن الأمثال تلينها وتسيغها ..

كنت أستمع إلى محام .. ذائع الصيت للأسف !

فإذا به يظهر مشوش الملبس .. لا يكاد يستقر طربوشه على رأسه .. ولا تكاد تنتظم شعرة فى رأسه مع شعرة أخرى .. يتكلم بصوت ضخم مدوٍ . أجش . متقطع الأوتار .. عالى إلى حد أن أصداءه تتضارب شرقيها مع غربيها فتجعل فى السمع وقراً ، وهو يحرك رأسه وعينيه ، ورقبته . ويداه تشوحان بإشارات غير مفهومة ولا متسقة مع نغمات صوته ولا معانى كلامه وهو يضرب بشدة على الطاولة أمامه فتكاد تهتز الأفلاك ويتفزع الدهر .. ثم يروح ويجىء ، ويسجد ويركع ثم يشب على مقدم قدميه ، وقد تفصد وجهه عرقاً ونضح العرق على بدلته وهو فى حديثه — إن كان مفهوماً — يقلب الحقائق بصورة مزرية ..

فمثلا يقول « هل معقول أن يمر هذا الشخص من هذا الطريق مع أن هناك طريقاً آخر يمكنه أن يمر فيه .. لا يمكن أن يمر من هذا الطريق — مستحيل ! — وما دام لم يمر عليه فهو لم ير المجنى عليه ، وما دام لم ير فهو لم يقتله حتماً ..

ولماذا لا يمر بالطريق الآخر ما دام هو حر فى أن يسير فى أيهما ؟ »

ثم يقول .. « وإذا كان هذا المتهم هو القاتل فكيف يضرب المجنى عليه بسكين .. مع أنه كان يستطيع قتله بطلق نارى ! » .

« لكن .. هذا ما حصل » — كما رد وكيل النيابة ..

« وهل يستطيع هذا الشاب الضعيف أن يطعن المجنى عليه وكان عملاقاً عدة طعنات .. »

ولِمَ لا ؟

كنت أسمع هذا المحامى الذائع الصيت وأنا سارح بخيالى متمثلا أحمد لطفى ومرقس حنا ، وقد سمعتهما يترافعان عن ماهر والنقراشى والشيشينى وأنا طالب فى الحقوق .

ثم مَرقس فهمى ووهيب دوس وأحمد علوبة وأحمد رشدى ، وقد عرفتهم وتشرفت بزمالتهم طول مدة اشتغالى بالمحاماة ، فإذا المظهر الجميل ، و إذا الملبس الأنيق ، و إذا الصوت كخرير الجدول الصافى ، و إذا التعبير الساحر ، و إذا المنطق الذى قد تناقشه ولكن لا تستنكره أو تشمئز منه .

فقلت : إن المحامين إما فنانون (artists) أو صنّاع (artisans) . والصنايعى قد يكون ماهراً أو صانعاً بدائياً كنجار السواقى فى الأرياف !

والمحامى الحق هو الفنان أما الصنايعى فهو محام فاشل .

عناصر الفن :

١ — الموهبـــة :

إن فن المحاماة ككل فن يستلزم موهبة خاصة ، فليس كل إنسان يمكن أن يكون موسيقياً فناناً . . حقيقة يمكن لأى واحد أن يعزف . . ولكن ليس كل عازف فناناً ، ولذلك فقد أمكن « أى » شخص أن يكون محامياً ، ولكن ليس كل محام فناناً .

إذن فالموهبة هى من أهم ما يميز الفنان عن الصانع ، والموهبة هى مجموعة الأصول الكامنة فى « روح » « وشكل » الفنان بحيث إذا صقلهما العلم والمعرفة والخبرة لمعت وأضاءت ورآها الناس شعاليل مضيئة هادئة .

والموهبة سر خفى فى خلقة الإنسان يكشفها العلم والتوجيه ، وقد تظهر مصادفة .

أما العلم والتوجيه فإن خير مثل لهما اعطيه عن فنان هو طه حسين ، فإن طه قد نشأ فى القرية وأصيب منذ طفولته فى عينيه ، وأضر ، وكان المفروض أن يبقى فى البيت ، وأن يحفظ القرآن ، وأن يظل بين والديه ثم إخوته وقد يصل إلى وظيفة إمام ومقرىء جامع من جوامع القرية أو مأذون الشرع فيها .

ولكنه عندما تعلم وتثقف برزت الموهبة التى كشفت عن فنه .

والأديب الألمانى الكبير والقصصى العالمى توماس مان ظل إلى ما فوق الأربعين يعمل موظفاً .. ولم يكتب قصة واحدة .. ثم مصادفة كتب قصة فاشتهر وذاع صيته ونبه اسمه .

وكذلك الأديب العالمى الدانمركى هانس كريستيان أندرسون ، فإن المصادفة المحض أبرزت مواهبه .

وسيد درويش كان أجيراً يعمل فى دهان المنازل ، ثم غنى ألماً أو فرحاً فإذا صوته يعجب السامعين .. وإذا به ينتقل من الغناء إلى التلحين ، وبقليل من العلم استطاع أن يقلب الموسيقى المصرية فتصبح من أوتار عوده وقيثارته فناً جميلا .

وفى الطب ، والهندسة ، والموسيقى ، والتمثيل ، والتصوير ، والنحت .. كل هذه الفنون تستوجب الموهبة ، وهى السر الخفى الذى يخلق مع الإنسان ، ويظل كامناً حتى يصقله العلم أو تكشفه المصادفة ثم يكمله العلم . وبغير الموهبة لا يمكن أن يكون الإنسان فناناً ولو اشتغل فى الفن مائة عام .

***

٢ — الاستعداد :

الاستعداد هو الإعداد ، والصقل .

الإعداد :

فلا تكفى الموهبة ، فإنها من غير إعداد ومن غير علم تظل دفينة ،

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وقد تومض ومضات تحاول الموهبة بها أن تظهر للحياة . . للنور ولـكنها لا تسطع إلا كومض النور ثم تخبو .

فالعلم هو الذى يبرز المواهب ويخرجها من ظلمات الأعماق إلى مشارف النور والحياة . وهو الذى يحيلها من صفات غامضة إلى صفات واضحة .

والعلم تعلم وتثقف فليس يكفى أن يدخل الإنسان المدرسة ويخرج منها ظافراً بإجازة علمية ... إن هذا ضرورى جداً ولـكنه غير كاف فإن الثقافة علم الـكتب وعلم الحياة . ولا يفلح المرء فى خطواته فى الحياة بغير هذين السندين : علم الـكتب وعلم الحياة ، واختباراته وتجاريبه .

وعلم الـكتب أن تلم بالعلم الذى تتخصص فيه .

والثقافة أن تلم بعدة علوم وتعرف وترتشف من معين معارف تحصلهـا من الـكتب وتحصلها من مخالطة الناس ومجالستهم ومعاملتهم ، ومايقع لك من تجاريب .

إن علم الحياة أغلبـه مسطور على ألسنة الناس وفى تصرفاتهم وفى قسمات وجوههم .

ولذلك فإن المحامى الفنان يجب أن يكون معداً إعداداً علمياً كافياً . .

يجب أن يكون متعمقاً فى علوم القانون . متمكناً من لغة أجنبية إن لم تـكن لغتان فأكثر .

ويجب أن يكون دارساً للفلسفة وعلم النفس والتاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع وسنرى أنه فى عمله فى حاجة ماسة إلى علوم أخرى كالزراعة والتجارة .

ويجب فوق كل هذا أن يتلقى علوم الحياة . يجب أن يكون اجتماعياً يخالط الناس فى النوادى والمجتمعات ويتصـل بالنشاط الذهنى حيثما وجد . إنه يعمل فى أمور الناس فوجب أن يعرف هؤلاء النـاس . يجب أن يختلط بالريف والحضر لطبقات العليا والطبقات الدنيا لأنه يدافع عن الحياة والحق .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وما أضعف المحامى ويا لخيبته وما أشوه فنه حين يكون قليل التجربة فى الحياة فقير المعرفة بأحوال الناس تراه كفأر المكتبة قرض الكتب وحفظها . فإذا طبعتها تتساقط من ذهنه إلى فمه ظلمات فيطلقها من فمه معميّات لا تشع منها الحقيقة ولا يبدو فيها الإخلاص والفهم .

الصقل :

والصقل هو المران والخبرة . وليس هناك من يمارى فى أن الجوهرة النفيسة هى حجر غير واضح المعالم حتى تتعهده يد صانع حاذق فيحيلها جوهرة تشع نوراً وتتلألأ على صدور الغوانى .

فالفنان كالماسة تكون أصلا تراباً ورملا ثم تلتقط وتنظف وتصهر وتصقل ثم أخيراً تصبح ماسة لألاءة وضاءة .

وطريق الصقل والخبرة طويل وشاق . ومما يصرع الفنان أن يتسرع الخطى إلى الإنتاج . واعتداد بالنفس يخرج من حدود الثقة إلى الغرور . ومصرع الفنان فى غروره .

بل إن التواضع هو دعامة من دعامات النجاح لأن الخبرة كالعلم لا حدود لبحرها . ولا وصول إلى أعماقها . فكلما سبح فيهما المرء وجد موجاً ولم يجد ساحلا ومهما خاض فى أعماقها وجد أعماقاً ولم يجد قاعاً .

وكلما كان الفنان متواضعاً كلما سبح وغاص فى أعماق الخبرة والعلم . ولذلك فإن المحامى الفنان هو الذى يقضى فترة تمرينه متحملا صعابها راضياً بعذابها مشوقاً إلى الخبرة والعلم فإن زادها زمناً لم يندم فإذا استقل بعمله كان أول ما يفكر فيه هو أنه لا يزال على أول الطريق وأنه يجب أن يكسب دائماً خبرة وعلماً .

فإذا ظن المحامى أن إجازته العلمية قد أهلته للعمل والنجاح فما أشد بؤسه وما أسرعه إلى الفشل ! وما أبعده عن النجاح !

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الخلق :

الخلق خير ما يزين الفنان ويعينه على النجاح والوصول إلى أهدافه .

ومن الخلق الذى يجب أن يتحلى به الفنان . التفاؤل . الصبر . الإيمان . المثابرة . التواضع . الأدب . ضبط النفس . التسامح . الأمانة . الإخلاص . شجاعة الرأى . التضحية . الاستقامة .

فإن كثيرين من الفنانين قد صرعتهم شهواتهم ومال بهم عن الفوز افتقارهم إلى عنصر الأخلاق .

وإن الأخلاق لأهم فى حياة المحامى الفنان — كما سنرى فى تفصيل ذلك — من العلم والخبرة ... بل إن المحامى الفنان صاحب الخلق القويم أقرب إلى النجاح ممن التوت به أخلاقه إلى منحدر وهاوية ...

ولست أقصد بهذا التعميم أن يكون المحامى متزمتاً ، متعصباً ، صلباً غير ذى مرونة ، جافى الطبع ، مظلم الرأى ، ولكن أقصد أن يكون مثالياً فى حدود ضعف الإنسان البشرى كما سنرى .

الغاية :

مما يميز الفنان عن الصانع الغاية التى يهدف إليها .

فالفنان له هدف ... يسعى إليه ، وينطلق نحوه ويهيىء نفسه ويعد عتاده للوصول إليه .

أما الصانع فإنه يسير ، ويسير ، ويعمل ، ويكد ولكن ليس له هدف ولا غاية .

فإذا كان لكل منهما غاية بان اختلاف الغايتين واضحاً .

فالفنان هدفه روحى . فيه سمو وعلاء . وإيثار وغيرية .

أما الصانع فهدفه الرزق والمال والصيت والجاه والأثرة والأنانية .

وهى أهداف مادية من اليسير على كل إنسان أن يصل إليها إذا برر الوسيلة وامتطى مطايا دنيئة أو غير دنيئة ولكنها موصلة جيدة للرزق .

كان — وسيظل دائماً مفرق الطرق واضح المعالم ، فالفنان لا يهدف للمال كغاية ، ولكنه يعتبره دائماً ثانوياً يستعمله لكى يعيش ويعيش لكى ينتج ، إن جاء فمرحباً به عبداً يؤمر ليطيع ، ومطية تركب لتسير ، وإن غاب وتعسر فسحقاً له ، لن يكون المال أبداً سيداً آمراً للفنان ولا فارساً يمتطى صهوة الفنان لكى يصل به ذليلا إلى غايته .

أما الصانع والإنسان المسلوب فغايته المال ووسيلته : أى شىء !

فإن نال المال طمع فى الأكثر وسعى للأوفر وذل للسيد الآمر ورضخ لأوامره وركع أمام قدسيته وعظمته !

وكم يحفظ التاريخ لنا من فنانين كان عليهم أن يختاروا بين فنونهم وروحانيتهم معتزين بثمار هذه الفنون و بين المال يمزق هذه الثمار و يحيلها باطلا وملذات ضائعة للمشترين فآثروا الفقر وخمول الذكر على المجد والغنى والثراء ... ولم يُنصفوا إلا بعد موتهم و بعد أن ذاقوا الحرمان والحاجة وعفرت جباههم المتربة .

أما المسلوبون فقد غنموا صيتاً ومالا وشهرة ثم ماتت كلها بموتهم فما أفادوا ولا استفادوا ...

وليس أوضح فى التفرقة بين المحامى الفنان و بين المحامى الصانع صاحب المهنة من مفرق الطريقين ...

فالمحامى الصانع يؤثر المال والصيت و يقبل عليهما منهوماً لا يشبع ، لا يهتم بالحق والعدل ولكنه يعمل متعامياً عن المثل العليا فى سبيل جمع المال فإذا جمعه واكتنزه ومات مات فقيراً لأنه لم يؤد رسالة و إنما أضر ولم يفد .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أما المحامى الفنان فهو الذى يقف دائماً بجانب الحق والعدل و يستفيد بشرط إن تعارضت مثله العليا مع المال داس بقدميه المال مؤثراً الرضا بالقليل قانعاً بما يسقيه جرعة ماء و يطعمه لقمة خبز عن أن يذل للمال فتضيع إنسانيته . وتتهدم مروءته وفضائله . فإذا مات من بعد فقيراً فقد مات غنياً بما أفاد الآخرين ... إذ أن السعادة وغنى النفس كما انتهينا فى الفصول السابقة إنما تنحصر فى أمرين :

أداءَ الواجب .

و إسعاد الآخرين .

وتلك غاية الفنان شاعراً كان أو موسيقياً . أو كاتباً أو مصوراً أو محامياً .

ليست غايته المال ولا الصيت ولا المجد .. و إنما غايته أن يبدع و يجلى جمال الروح والحياة والمثل العليا . فإن أصاب مالا أو صيتاً أو مجداً فخباً وكرامة و إن لم يصب فما أسعده إذ أدى واجبه وترك تراثاً يسعد الناس على مر الزمان ..

الحياة فى الفن :

ومما يفرق الفنان أيضاً عن الصانع أن الفنان يعيش فى فنه فهو يؤمن به . وهو يحيا من أجله . وهو يتعصب له . وهو يسعد بتوفيقه . ولا ييأس من نكرانه .

وهو يشقى بهذه الانفعالات كلها ..

أما الصانع فهو لا يعيش لعمله و إنما يعيش لكسبه ورزقه وهو لا يؤمن به ولكنه يؤمن بما يستولد من هذا العمل .

وهو لا يحيا من أجل عمله و إنما يحيا من أجل ما يدره عليه هذا العمل . وهو بعد ذلك متسامح لا يسعد بتوفيقه إلا إن كان جالباً للمال ولا يحزن إن فشل إلا أن يكون أساه على ما فقد من مال .

والمحامى الفنان هو الذى يحيا لفنه و يتعصب له و يؤمن به وهو يشقى بهذا كله . فإن أدى واجبه فى قضية وهو مؤمن بعدالتها ثم خسرها شقى بهذه النتيجة وكافح من أجلها فإن فاز فقد رضى و إن دام خسرانها آلمه وآذته أحاسيسه .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أما المحامى الصانع فهو يسعد بنجاح قضيته مهما كان رأيه فيها . ومهما كان ضرر صاحب الحق من هذا النجاح مادام قد نال أجره .

وهو إن خسرها سعى إلى إقناع صاحب الدعوى باستئنافها وأصاب مغنما جديداً من الأجر فإن خسر الاستئناف أقنع صاحبه بالطعن بالنقض أو إعادة الدعوى فى صورة أخرى .. حتى تكون الدعوى بقرة حلوباً .

العلاقة الإنسانية :

ومما يفرق بين الفنان و بين الصانع أن العلاقة التى تربط الفنان بمن ينتج لهم علاقة إنسانية .. لاهى حيوانية تتحكم فيها الشهوات ، ولا هى مادية .. الغرض منها سلب المال .. و إنما إنسانية فيها إيثار وتضحية .

أما الصانع فعلاقته بالناس علاقة مادية . الغاية منها اكتساب أكبر نصيب من الرزق سواء كان السبيل إشقاء الناس أو تحطيمهم أو أكل لحومهم أحياء !

والمحامى الفنان حين يعمل من أجل المظلومين والبائسين يكون مواسياً لهم . مداوياً لجروحهم . ناصحاً . هادياً ولو كان ذلك على حساب كسبه فإنه يؤثر الذين يعمل لهم بالسلامة و يضحى مغانمه من أجل إسعادهم .

أما المحامى الصانع فإنه يتوسل بكل وسيلة لكى ينال أجراً ولو كان فى ذلك ضياع حق موكله أو حق خصمه .. أو كان فى ذلك خراب بيوت وفقدان حقوق وضياع أعمار .. إنه يضحى بالآخرين من أجل كسبه ..

هذا مقياس التفرقة بين الفنان و بين الصانع .

وهذا هو تطبيقه على المحامى الفنان — والمحامى الممتهن لصناعة المحاماة .

ولذلك فمن الحق أن نقرر أن المحاماة فن وفن رفيع وأنها إن تكن صناعة أو مهنة فبئس ما امتهن المحامى ويا بؤس حاله وضيعة أيامه ولياليه ..

أما أن تكون فناً .. فإنها الفن فى أجمل مرائيه ومراتبه .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

المحاماة ورفاهية المجتمع

مشاكل المجتمع كلها تنصب من المتاجر والبيوت والطرقات والحقول إلى مكاتب المحامين قبل أن تنصب إلى دور المحاكم ثم تعيش فى هذه المكاتب إلى أن تنتهى .. إن كتبت لها نهاية !.

ومن المؤكد أن دور المحامى من أعظم المؤثرات فى رفاهيـة المجتمع أو شقاءه ..

١ — الحياة الزوجية :

لنفرض أن سيدة متزوجة وقع بينها وبين زوجها خلاف طبيعى أن يقع بين زوجين فخرجت الزوجة من بيت زوجها ولم تأخذ طريقها إلى بيت أهلها أو أخذته إلى هذا البيت ثم انحرفت منه إلى مكتب أحد المحامين وشرحت له خلافها مع زوجها فنصحها بأن ترفع دعوى نفقة شاملة للسكن والمأكل والـكسوة وحضانة الأولاد ونفقة خادمة وطلب منها الرسوم القضائية وجزءاً من الأتعاب وأمرها ميسور وليس فيهما تعجيز لقدرة سيدة ثائرة الأعصاب مغيظة .

وأعد المحامى عريضة الدعوى وأرسلت بواسطة مُحضر إلى الزوج الآمن الذى كان ينتظر أن يعود إلفه الغاضب إلى عشه فإذا به يفاجىء بخصومة لا ترده إلى الذهول فحسب وإنما تلوى كرامته إلى رد الخصومة فيسارع إلى مكتب محام ويقدم له الإعلان فينصحه المحامى فوراً بأن يرفع دعوى طاعة ودعوى أخرى بأحقيته فى حضانة الأولاد . وتشهد من بعد ذلك المحاكم ألواناً من الخصومة والحقد والمقت والـكراهية وقد يتطرف أحد الخصمين فيعتدى بالقول أو بالضرب على الطرف الآخر وقد تأخذ أقارب أحد الزوجين المتخاصمين ثورة طارئة من

غضب أعمى فيرتكب جريمة شروع فى قتل أو ضرب يفضى إلى الموت أو إحداث عاهة مستديمة .

وقد يقدم أحد الزوجين المتخاصمين مستنداً فينصح محامى الطرف الآخر بأن يطعن فيه بالتزوير . ويطعن فيه بالتزوير فعلا ويدخل الأمر فى نطاق قانون العقوبات وتفتح أبواب السجون كما تفتح منافذ الطرقات والشوارع للأولاد الذين يحرمون من الأم أو يحرمون من الوالد فيتشردون ويتسكعون وينشأون على الحرمان من أجل وأعظم العواطف الإنسانية وهى عاطفة الحب الأبوى .

هـذا مثل لما يصنعه المحامى الذى لا يتقى الله فى أسرة هى إحدى دعامات المجتمع . لأن الأمة مجموعة أسر . ولا ريب أن المحاكم الشرعية قد كان لها نصيب كبير مؤثر فعال فى إقلاق المجتمع وتفرقه وتفككه وتقطع أواصر الأسرة وازدياد مشاكل الأولاد .

ولو أن هـذه السيدة عندما ذهبت إلى مكتب المحامى وهى ثائرة حاول أن يهدىء من ثورتها وينهنه من غضبها بالنصيحة الجميلة وبالكلم الطيب ثم حاول أن يجمع بينها وبين زوجها عندما تهدأ الأعصاب الثائرة لعادت إلى منزل الزوجية واستقرت أسرتهـا على الوفاق والمودة والرحمة التى عناها الله سبحانه وتعالى إذ قال :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليهم وجعل بينكم مودة ورحمة » .

إن هذا المثل بسيط فى تصوره . أو فى الإدلاء به . ولكنه أخطر ما فى حياة الأمة المصرية .

فإن النزاع فى الأسرة مؤدى حتماً إلى شقاء الزوجين . ومتى شقيت الزوجة جعلت منزلها جحيماً للزوج أو انقلبت خائنة لأمانة زوجها ولعرضها وشرف أسرتها .

ومتى غضب الزوج وكره زوجته عاش فى بيت هو الجحيم . ومتى عاش

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فى الجحيم الذى كان مفروضاً أن يكون جنـة ونعيماً فقد اضطربت حياته . وطاشت سهامه وضاع إنتاجه ففشل وقد يؤدى به الشقاء إلى الثورة والتمرد والغضب فيصبح خارجاً على القانون .

والأولاد فى البيت المضطرب تصيبهم الأمراض الجسمية . والعلل النفسية . وتتكون فيهم العقد النفسية التى تجعل منهم فى المستقبل شباناً ورجالاً وشابات مرضى وأعضاء فاسدين فى مجتمع يصبح بهم مجتمعاً فاسداً . مليئاً بالحقد والحسد والضغينة والرغبة فى الانتقام .

وهذا هو ما نشكوه فعلاً فى المجتمع المصرى .

بيوت خربة . . سواء كانت محطمة خاوية . أو عامرة بسكانها الذين تجمعهم على الكراهية .

زوجات تعيسات .

أزواج محطمون . مرضى .

أولادٌ هم ضحايا للبيت المضطرب والعلاقة الزوجية الفاشلة .

هؤلاء المشردون فى الطرقات . المتسولون . الباعة المتجولون . المجرمون نزلاء سجون الأحداث والسجون العامة كل هؤلاء من ضحايا مكاتب المحامين وساحات القضاء .

فلو تصورنا النزاعات الزوجية يحسم شرها فى مكاتب محامين اتقوا الله . ونزعوا إلى الفن دون الجنوح إلى اكتساب المال . ويقضى عليها فى دور القضاء بالحسنى وبإعادة المودة .

لوجدنا مجتمعاً صالحاً هو مجموعة أسر مستقرة . متحابة . بينها رحمة ومودة .

٢ — التاجران :

وقع خصام بين تاجرين كانا شريكين وقد أصابا نجاحاً فى تجارتهما فحسدهما الحاسدون ومشوا بينهما بالوشاية فقام الخلاف وتطور واستفحل فقصد

أحدهما مكتب المحامى الذى أوصى به لأنه من أكثر المحامين معرفة بفنون التحايل على القانون ومشاغبة الخصوم وتعقيد الإجراءات فإذا به ينصحه — والآخر ينتصح — بأن يرفع قضية حراسة وقضية استحقاق ومحاسبة وتصفية للشركة ثم يبلغ النيابة باتهام شريكه بتبديد أموال الشركة وفى الأرجح أنه لا يكون قد بدد شيئاً .

ويسمع الشريك الآخر بقصة ذهاب شريكه إلى المحامى الشهير بفنون المشاغبة والمخاصمة فيهرع إلى محام يعتقد أنه أكثر قدرة من محامى شريكه وما أن يسمع هذا المحامى تفصيلات العلاقة وما ينتويه شريكه ومحاميه من إجراءات قضائية حتى يتفتق ذهنه عن إجراءات جديدة أقوى أثراً وأسرع طريقاً لمقارعة الكيد بالكيد .

ويبدأ الإثنان الشريكان كل منهما يبدل بود صاحبه ومعاونته ومشاركته خصاماً وعراكاً ويصب فى مكتب محاميه أوراقاً ومستندات ومصروفات قضائية وأتعاباً يدفعها بسخاء ثمناً لإشفاء غله ورغبة الانتقام . وتنصب المستندات والمصروفات إلى المحاكم وتحدد الجلسات وتتجدد الضغائن بتجدد القضايا والمواعيد واشتداد الخصومة . كلما سمع أحد الخصمين كلاماً مثيراً من محامى خصمه أو من خصمه نفسه وقد يكون الكلام غير مثير ولكنه فى ظروف كهذه يصبح وكأنه سهام تراش أو قذائف توجه فتصيب مقتلاً .

ويتحمس كل خصم ويتحمس معه محاميه وفى غمرة الحماسة يضيع الحق وتُصطنع أساليب لاتتفق مع الود السابق وتتكسر فى القلوب النصال على النصال وتوغر الصدور وتنفر النفوس وتمر الأيام تلاحق الأيام فلا استقر حق ولا عرف صاحب مصير ماله ويوضع المتجر تحت الحراسة ويؤتى بغريب عن صاحبيه ليديره فيعبث ما شاء له الهوى فإذا اكتملت الأيام أعواماً بدأ الملل يتسرب والأمل يفقد والندم يطفو من أعماق النفوس إلى العقل واللسان فإذا أفاق كل منهما وجد أن حقه لا يزال مضيعاً وأدرك أن المال الذى أراد كل منهما أن ينقذه من صاحبه قد

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فنى وفنيت معه حقبة من العمر وبدّلاهما الإثنان من هدوئهما قلقاً ومن غناهما فقراً ومن دهرهما عبوساً وتشاؤماً .

لو أننا تصورنا المحامى الأول وهو مؤمن بفنه مؤمن بالحق والعدالة ومؤمن بدوره فى رفاهية المجتمع وقد نصح موكله بأن يجمع بينه و بين شريكه وحاول أن يهدىء ثائرات النفوس وأن يحطم نباتات الحقد التى بدأت تنمو فى القلوب فإذا فعل زميله محامى الشريك الآخر مثلما فعل زميله لتقابل الشريكان وسويت الأمور وهدأت النفوس وصفت القلوب واستقر المتجر على حال من الود والمعاونة فازدهر وتقدمت أسباب نجاحه وأخذ سمته إلى الصعود لا يعرف خسارة ولا هبوطاً .

٣ — القرية الهادئة :

عرفت قرية عاشت على الهدوء والتعاون بين أهلها تربطهم بعضهم ببعض وشائج من القربى والنسب .

وقال واحد من أصحاب القرية كان قد أثرى من تجارة ولنرمز إليه باسم « محمد » إنه سمع من أبيه أن أربعة قراريط تكوّن « حوزة نخل » أى غابة نخيل هى ملك لجده وأنه رهنها مقابل قروش معدودات لوالد (علىّ) واضع اليد عليها . وأنه مستعد أن يدفع هذه القروش و يسترد « الغابة » مع أنها ذات تمر مُر لا تمر حلو .

ورفض علىّ وقال إنه ولد ونشأ تحت ظلال النخيل وهو لا يعرف لها صحباً غيره .

وكانت مناقشة استعمل كل منهما فيها ألفاظاً تجرح الثرى المحدث النعمة وتجرح الثرى الذى نزلت به نوازل الأيام . فقصد الثرى إلى المحامى لاستشارته فرفع له دعوى بطلب إنهاء الرهن الحيازى مصحوبة بدعوى استهلاك الدين . وضحك علىّ ولكنه سرعان ما عبس وضاق بالأمر حين أبرز محمد عقد رهن بادى القدم يرجع تاريخه إلى أكثر من ثلاثين عاماً . واضطر إلى أن يلجأ إلى محام فنصحه

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

بالطعن فى العقد بالتزوير ، وفى المجتمع الصغير — كالقرية — سرعان ما يصبح كل واحد من أهلها متعصباً لرأى من الرأيين . ووُجد من يقول بأنه يعرف حكاية الرهن — وقد يكون هؤلاء القائلين صرعى الوهم وخداع المخيلة — ووجد من ينكر هذا الرأى ومنهم كبار فى السن يقسمون أنهم ما عرفوا لهذه الغابة صاحباً إلا أبا علىٍّ وجدّه .

وانفق كل منهم على الدعوى المال . وشد كل فريق أزر صاحبه .

وكان علىٌّ يوماً وأهله فى الغابة . ومر عليهم موكب زفاف وكان فيه محمد يركب حصاناً فاستوقف الموسيقى وأخذ يرقص حصانه على رفرف الغابة . واستشاط أهل على فسبوه وكانت معركة ذهب ضحيتها عدد من الفريقين . وانتقلت الخصومة من المحاكم المدنية إلى المحاكم الجنائية .

وأصبحت القرية كلُّ طريق فيها كمين . وكل ظلام ستر لجريمة . وكثر القتلى والجرحى وقام طلب الثأر بين أهليها . وانتقل العاملون الكادحون من الحقول إلى السجون . وأقفلت أبواب القرية فى الليل على التربص والترصد . وانطوت على العبوس والخصام نهاراً .

وكنت دائماً أسائل نفسى من الذى أوحى إلى محمد بأن يعد عقداً مزوراً لخدمة الدعوى ؟

وهل عرف محاميه أن العقد مزور أم لم يعرف ؟ وهل نصحه إذ عرف أنه مزور أن لا يقدمه ولا يستعمله ؟

أم أنه فضل المال فضحى فى سبيله بالحق . أم أنه كان ضحية لصاحب الدعوى الذى أدخل عليه الغش ولم يكن فطناً إلى حد أن يدرك بعد أمد من الخصومة أمام القضاء أن العقد غير صحيح .

كل هذه أسئلة قد نجد الإجابة عليها وقد لا نجدها ولكن السؤال الذى لا يحتمل إلا إجابة واحدة هو: ألم يكن من واجب المحامى أن يسعى للصلح مقدراً

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أن نفقات التقاضى حتما ستزيد على مرور الأيام على قيمة الأرض موضوع النزاع . هذا إذا لم يكن قد دخل فى اعتباره وفى تقديره ما قد يتفرع عن هـذه الخصومة من خصومات .

لو أن هذا المحامى وزميله المحامى الآخر نظراً إلى الخصومة نظرة أسمى من نظرتيهما إلى المصلحة الخاصة لاتفقا على مصالحتهما وقدّرا النتائج التى كان يحتمل وقوعها والتى وقعت بالفعل .

ولو أنهما فعلا لكان أجرهما من الله ومن الناس أكبر كثيراً وأبقى أثراً وأنفع لهما مما نالاه .

ولكانت القرية قد ظلت هادئة . تطوى قلوباً تحب ونفوساً تتقاسم المشاعر ورؤوساً تتعاون على الخير وكانت بذلك مجتمعاً فيه رفاهية وسلام .

الخلاف بين الأخوة :

توفى رجل عن تركة كبيرة عبارة عن أرض زراعية وعمارات بالقاهرة وإحدى عواصم المديريات جمعها بكده وسعيه وعرق جبينه وأخلف من بعده ذرية كانت فى نظره صالحة فعلم شبانها تعليماً عالياً وربّى فتياتها تربية كاملة . فلما أن مات أجمع الورثة على أن يتركوا للابن الثانى مهمة إدارة التركة وكان هذا الاختيار الذى تجاوزوا فيه الإبن الأكبر له ما يبرره لأن الإبن الأكبر كان يعمل فى الاسكندرية موظفاً كبيراً وكان متزوجاً بسيدة أجنبية ويعيش منعزلا عن إخوته . أما الإبن الثانى فكان يعمل فى الأعمال الحرة وكان عطوفاً على إخوته معروفاً بحسن السمعة ودماثة الخلق .

ولم يلبث الصفاء بين الإخوة طويلا وتعجل زوجات الأبناء الدخل الكبير كما تعجل أزواج البنات نصيب زوجاتهم وألح الجميع فى أن ينالوا حقوقهم سريعة ومشت النميمة والفتنة بين الإخوة كما تمشى دائماً بين حنايا البيوت المصرية

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وحاول الأخ الأكبر أن يوقف هذا التيار الخبيث وأن يسد كل ثغرة تفتح ولكن سعيه قد خاب إذ انبرى أحد أزواج البنات بخصومة انبعثت من مكتب أحد المحامين ثم انقسم الأبناء إلى ثلاث فرق — فريق يناصر الإبن الذى يدير التركة . وفريق يناصر زوج البنت . وفريق محايد يقف موقفاً سلبياً يندفع مرة إلى الخصومة ثم ينثنى إلى التعقل والتريث .

وكان زوج البنت حقوقياً خائباً نال إجازة الليسانس فى الحقوق بعد طول ركود فى كلية الحقوق ثم اقتنع بوظيفة يكفل له مرتبها وجاهة المظهر وأناقة الملبس واتصل اتصالا مستمراً بمجتمع المقاهى والنوادى وكان له أصحاب من مختلف الهيئات والبيئات وكان هؤلاء الصحاب — عند ما أثار الخصومة هذا الموظف بين أفراد العائلة الهادئة التى كان يكفى أقل إيراد منها لإرضاء الجميع وضمان العيش الرخاء لهم والشكر على نعمة الله — من المحرضين عليها .

وعند ما احتدمت الخصومة القضائية بعد عدة قضايا وعدة جلسات تنافرت القلوب وملئت ضغينة أساسها رغبة كل منهم فى الثأر لكرامته وهم يفهمون الكرامة فهماً خاطئاً .

وكان أحد المحامين الموكلين فى هذه القضية يدرك معنى المحاماة السامى ويعرف أنها عدل وإنصاف وحق . قبل أن تكون ارتزاقاً وكسباً ومعاشاً فبذل سعياً قوياً متواصلا حتى جمع الإخوة معاً فى مكتبه وسرعان ما سالت دموع الندم من عيون الإخوة المتحابين الذين لم يقع بينهم من قبل نفور أو خصام واتفقوا على أن ينهوا الخصومة القضائية بتحكيم وقسمة ووكلوا شفوياً إلى المحامى أن يهيىء لهم الأوراق ليمضوها ويوقعوا عليها ليرتبطوا كتابة بما اتفقوا عليه شفوياً وفى اليوم التالى وإذ كان المحامى قد أغلق عليه باب مكتبه وأخذ يعد أوراق صلح شريف بين الإخوة الأحباء ، إذا به يتلقى اللوم فى محادثات تليفونية من زملائه المحامين الموكلين عن باقى الإخوة وكانت كلها تجرى فى لفظ واحد ومعنى واحد هو قطع الرزق إذ كانت التركة وأصحابها بقرة حلوباً تدر أضراعها كل يوم لبناً سائغاً

للشار بين ودجاجة سحرية تبيض فجر كل يوم بيضة من ذهب لهؤلاء المحامين .

ونصح المحامى زملاءه ما شاء أن ينصح ولـكنه كان يضرب فى حديد بارد و ينادى من فى القبور فإن الرغبة فى كسب المـال سدت منافذ الاسماع فيهم فلم ييأس وتابع عمله حتى أنهاه واتصـل بالورثة فإذا بعضهم ينكلون عن اتفاقهم . و بعضهم الآخر يتهر بون من محادثته .

وعادت الإنذارات تتوالى منبعثة من مكاتب المحامين وفشل الصلح وخاب سعيه وزاد أمره سوءاً أن عزله موكله من مباشرة أعماله كمحام .. جزاء أمانته إذ ظن أنه إما ضالع مع باقى الورثة و إما أنه فقد حماسته للقضية .

وراقب المحامى الأمين الدعاوى عن بعد ، ومرت السنوات ولم ينل أحد من الورثة إلا فتاتاً من الإيراد وأثقلت ذممهم المالية بالديون للانفاق على القضايا و بخست القيمة الإيجارية للأرض الزراعية وأهملت العمارات ، واستغل الموظفون قيام الخلاف واستمراره فعبثوا وسرقوا واختلفوا .

وأخيراً ساءت حالتهم وتولاهم الندم فلجأوا إلى المحامى الأمين مرة أخرى ، ووضعوا الأمر بين يديه فأنقذ لهم ما أمكن إنقاذه بعد أن أصبحوا هم والتركة وعلاقة الأخوّة حطاماً .

وكان أسوأ من نهايتهم هذه ما سمعه المحامى الأمين من أحد الورثة من أن بعض أولادهم كانت تجمعهم مدرسة واحدة وأنهم قد نقلوا معهم من البيت إلى المدرسة خصومات آبائهم وأمهاتهم فتنكروا بعضهم لبعض وتخاصموا هم الآخرون.

إنى لأتسـاءل كم كان يمكن أن يكون حال هذه الأسرة من السعادة والرفاهية ومن المحبة والوداد لو أن هولاء المحامين نظروا إلى التركة والورثة نظرة سامية وجعلوا مصلحتهم الشخصية هى آخر ما يُعمل له حساب .

بين إبن وأبيه :

كان الأب ثرياً بالغ الثراء وكان الإبن وحيده وقد بذل له من ذات نفسه

ومن ذات ماله مالا سخاء بعده ، وتخرج الإبن فى إحدى مدارس الزراعة وأخذ يشتغل مع أبيه فى زراعته ، ثم حدث أن توفيت الزوجة وهى أم الإبن وتركت من ورائها ميراثاً ضخماً وأراد الإبن أن ينال نصيبه ليشعر باستقلاله وكرامته كرجل وأراد الأب أن يحافظ على كرامته فيظل ملك الزوجة مع ملكه كسابق العهد ووقع خلاف بين الأبن و بين أبيه وكان لهما محام مؤمن بمبادىء المحاماة السامية فنصحهما بأن يوجدا حلا يحفظ للاثنين كرامتيهما بأن يوكل الأبُ الإبنَ فى إدارة الأرض جميعها بما فيها ملكه أو جزء منها أو أن يؤجر له نصيباً كبيراً من الأرض أو ماأشبه ورضى الاثنان ، ولكن جرياً على عادة كثير من المصريين لجأ كل منهما إلى محامى آخر لاستشارته فى هذا الحل فأشار كل من المحاميين على صاحبه ببدء الحرب ، فبدأت واستمرت سنين تصدعت فيها العلاقة المقدسة بين الإبن وأبيه وأصبح البيت الواحد يضم عدوّين بعد أن كان يضم قلبين حبيبين وأصبح لكل منهما عصبة تنتفع من ورائه حتى سارت الإشاعات بأن الإبن يؤجر على قتل أبيه وأن الأب يؤجر على قتل إبنه ، وتزوج الإبن كريمة ألد أعداء أبيه ، وتزوج الأب فى سن الشيخوخة فتاة شابة لكى تنجب له إبناً آخر واضطربت الأمور واستفحلت وكان مصيرها سيئاً بالنسبة للاثنين .

* * *

هذه أمثلة ضربتها ، وصورٌ عرضتها ، ولو راعيت الإسهاب لملأت صفحات ومجلدات ، ولكننى أردت أن أبرز من هذه الأمثلة معانى آلمتنى حيناً وساقتنى قسراً إلى التفكير فى أمر مايتركه المحامى من أثر حسن أو سيىء فى رفاهية المجتمع . فإن المجتمع هو مجموعة أفراد وأسر . وهو اقتصاد وعلاقات . فإذا ساء حال الفرد ساءت حال الأسرة واضطرب الاقتصاد وتمزقت العلاقات وشقى المجتمع ، و إن سعد الفرد واستقر حال الأسرة وانتظم اقتصاد الفرد والجماعة وقامت العلاقات بين الأفراد والجماعات على أساس من التعاون والمودة سعد المجتمع . والمجتمع هو الأمة وليس من أمة جرى فيها العدل والحق فى مجراه الطبيعى وسلك فيها الناس مسلك التعاون والتسامح واتقى فيها كل عامل ربّه وراعى ضميره واستلهم نفسه الأمارة بالخير

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

إلا سمت وعلا نجمها وأثرت وضربت بسهام فى ميدان الحضارة والتقدم . وإنى كما قلت لأومن إيماناً راسخاً بأن من أسس الاضطراب فى حياة الأمة المصرية عدم الخشية من الله ومن الضمير وعدم الإيمان بالعدل والإنصاف .

إن بطء التقاضى لسبب أيضاً من أسباب ضعف الإيمان بالعدالة فى نفوس الناس فى مصر .

وإن نظرة المحامين إلى المحاماة نظرة مادية وتعاملهم مع موكليهم وهم أفراد الشعب على أساس المصلحة الخاصة .

كل هذه هى أسباب اضطراب المجتمع المصرى .

إن الطبيب إذا غلب مصلحته الشخصية إنما يؤثر فى فرد واحد ، وكذلك المهندس ، ولكن المحامى يتصل عمله بالأسرة بما تحوى من زوجة وزوج وأولاد وإخوة وآباء وأمهات . والأسرة مختزل للأمة فإذا فسد أمرها تفشى هذا الفساد فى سائر كيان الأمة .

وإن عمله لمتصل باقتصاد الأفراد والهيئات ويتوقف حسن المآل أو سوء المصير على اتقاء المحامى ربه أو على تغليبه مصلحته الشخصية وإيثاره المنفعة على الحسنى .

قد يرى بعض القارئين مبالغة فيما أقرر وأرى من الإنصاف أن أقول إننى هوّنت من الأمور ولم أبالغ ولعل الذين اكتووا بالنار التى أصف بعضها وأصور جزءاً من شواظها ولهيبها ينصفوننى فيقولون لقد هوّن من الأمر ولا يقولون إنه مبالغ فيما قص وروى وقرر من الحقائق أو المبادىء . وقد يتساءل البعض كيف يوفق المحامى بين التقليل من المنازعات وبين كسب عيشه وإننى أرى ويرى معى كثيرون من ذوى الخبرة الطويلة فى المحاماة أن تقصير الخصومات بالصلح وبالتوفيق وبالنصح الجميل لا يمكن أن يضيع على المحامى حقه فى كسبه بل إننى أعتقد أن الشخص الذى يرى أنه قد نال حقه فى وقت قصير أو منع عن شرّ يكون دائماً أجزل عطاءً وأرضى بذلاً خاصة بعد أن تهدأ ثائرة الخصومة فى نفسه ويدرك أى نفع ناله على يد المحامى الأمين .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

هذه آراء عثرت عليها فى عملى و بحثتها على نار التجربة فى سنوات طويلة وحققتها فآمنت بها ، ومع ذلك فإننى أضعها موضع المناقشة و إن كنت أقول وأنا مطمئن غاية الاطمئنان إننى عرفت محامين أمناء ميالين للخير مناعين للشر ناصحين بالمعروف قد أثروا واقتنوا و بارك الله لهم فى مالهم .

كما أننى أدرك أن شباباً وافر العدد يقبل على المحاماة وهو حيران لايدرى أى طريق يسلك وأجد من واجبى وقد أمضيت فى المحاماة قرابة ثلاثين عاماً ألاّ أقول إنى رأيت فيها أو شاهدت أو سمعت فحسب ، و إنما أقول إننى أخطأت فيها وأننى أتقدم بثمرة أخطائى قبل ثمار أعمالى الصالحة لكى أهيب بالمحامين كبارهم وصغارهم وخاصة الشباب الجديد أن أمامهم طريقين عرفهما الناس من قديم الأزل وأوضحت معالمهما الكتب السماوية والشرائع الدنيوية .

هما طريق الخير ، وطريق الشر .

طريق الأمانة ، وطريق الخيانة .

طريق الأثرة والأنانية ، وطريق الإيثار .

طريق المال والغنى والثراء من المصدر الحرام .

وطريق الباقيات الصالحات وهى خير عند ربك عقبى وخير ثواباً . فمن شاء لنفسه ولمواطنيه سلام الدنيا وسلام الآخرة فليسلك طريق النور ليتنكب طريق الظلام .

أما من سخر وتولى وضحك واستهزأ فإننى أصلى من أجله وأخشى عليه من يوم الندم حيث لاينفعه ندمه ولا تكفيره ولا توبته ولا تجديه فى العزاء دموعه ولو جرت بحوراً .

و ياويلتا له يوم يقف هو والذى ظلمه أو تسبب له فى ظلم بين يدى العادل الديان مالك يوم الدين وتشهد عليه يداه ولسانه .

ياويلتا له وأنا أدرك سوء حاله إذ لاتزال فى أذنى ذكريات النائحين والنائحات

اللاعنين واللاعنات ممن أصابهم بلاء الخيانة فى أنفسهم وفى أموالهم وهم يستعدون الله على من تسبب فى خراب نفوسهم و بيوتهم .

كما أننى أذكر — والبشر ينطلق على وجهى ، و ينير فى قلبى — أولئك الزملاء الكرام الذين أسعدوا الأفراد فأسعدوا الجماعة ، وأخذوا بالمجتمع إلى حياة رغيدة ، وعيش طيب .

أولئك لهم جزاء فى الدنيا .

ولهم عند الله جزاء المتقين ، مقعد صدق عند مليك مقتدر .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

المحاماة والسلام

لم يعرف الناس حاجتهم إلى السلام كما عرفوه اليوم .

حقيقة إن الخصومة قديمة . والحرب قديمة . وكذلك الرغبة فى السلام قديمة .

ولكن اليوم غير الأمس .

اليوم قد تقدم العلم وتكشفت منه آفاق واسعة . حتى أصبح أداةً للرفاهية كما أصبح أداة للخراب والدمار . وهاهى تلك المهلكات النووية تهدد العالم بالقلق الذى يحطم النفوس والقلوب ويجعل عيش الناس هماً وتفكيراً وليلهم سهراً . ويبث فيهم روح التكالب على الماديات . والسعى إلى الغنم بشراهة ونهم . ويثير أعصابهم . ويضيق صدورهم ويسلبهم الإيمان والصبر .

كما تهددهم بالفناء وانتهاء هذه الحياة بما تضمن من سرعة التخريب والموت .

ولقد ضاق الرزق بالدول والممالك فلم يفكر الناس فيها بالتعايش والتعاون والرضاء بالقليل . والقليل كثير حين ترضى النفوس . وتقنع . ولكنهم فكروا فى أن يأكل كل إنسان لحم أخيه حياً وميتاً !

ولقد تجاورت الدول المتخاصمة وازدادت اقتراباً بما صنع العلم من طائرات وآلات لاسلكية . وأصبحت المسافات البعيدة التى كانت تقاس بآلاف الكيلو مترات مسافات قريبة تقاس بالدقائق والثوان .

لقد كانت بريطانيا حين تريد أن تغزو دولة ضعيفة تعد أسطولا وجيشاً يقطع الطريق فى أشهر . وتقطع المؤونة إليه البحار واليابسة فى أشهر .

أما اليوم فالطائرات تنقل الجنود والمدمرات فى ساعات ، والأوامر تصل فى لحظات . والمؤونة والعتاد يتلاحق فى اليوم الواحد عدة مرات .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وبذلك اشتبك العالم واشتجر فى مصالحه ومنافعه وخصوماته ومطامعه بحيث لم تعد دولة من الدول مهما قل شأنها تستطيع أن تعيش بمنأى عن المخاصمة والعراك .

وتعالت صيحات الخائفين ، وترامت إلى الآفاق صرخات المحذرين المنبهين المبصرين بالأخطار . الداعين إلى كلمة سواء .

وكان أول الصائحين العلماء الذين وضعوا أدوات الدمار والتخريب فى الأيدى المرتعشة التى هدمها القلق والخوف والإفناء .

ولست مبالغاً حين أقرر أن كل من تظله السماء أو تقله الأرض قد أصيب بالخوف والجزع وسيطر عليه القلق ، وتهددت حياة البشرية تهديداً جدياً . إذ أصبح الأمر فى هذه الحياة كلها — كما يقولون — متوقفاً على خطأ يقع من فرد واحد موكول إليه استعمال آلة من هذه الآلات نتيجة فهم خاطىء لأمر صادر من آلة لاسلكية صماء لا تعقل قد تخطىء و بلا سبب !

ومن العجيب أن كل فرد جازع يدعو للسلام .

ومع ذلك فهو يعمل للحرب .

وكل دولة فى قلق تدعو للسلام .

وهى تعمل ليل نهار للحرب ، وتسخر جميع ما تملك من مال وقوى وعقول للحرب .

ونُسيت حقوق الله علينا .

ونسيت حقوق الشعوب فى أن تحيا فى عيشة راضية .

ونسيت حقوق الذين تقدموا بالخير والذين يأتون من بعدنا يترقبون — وهم فى عالم الغيب — منا الخير والبركات .

ومن العجيب أيضاً أن تجتمع الدول فى مؤسسة أقيمت للتشاور فى صالح

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الأعمال ، وقد جمع بينهم ميثاق مكتوب بعد الرضـاء الشامل الجامع بينها ... وتنتكب الدول الميثاق ومبادءه ، وتتحول الاجتماعات التى هيئت أصلا من أجل السلام وتنـكب الحروب والخصومة إلى حرب كلامية تهيء الطريق إلى حرب الفناء !

تلك المؤسسة هى هيئة الأمم المتحدة .

ومن العجيب أيضاً أن تصبح الصحافة وهى رسـول العقل والعلم والفنون أداة للحرب لا تقل خطورة وأثراً وخطراً عن الطائرات والغواصات والدبابات والقنابل النووية .

وكذلك الراديو وهو من أعظم الاختراعات التى وجدت لرفاهية الشعوب قد أصبح أداة لحرب مستعرة تقتل وتفنى وتدمر وهى التى أسموها الحرب الباردة .

إن الناس يصبحون ويمسون يسمعون أنباء هذه الحرب فتتحطم أعصابهم وتعصر قلوبهم ويقع كثيرون وكثيرون صرعى الأعصاب وقد تتمزق القلوب وتنفجر شرايين الرؤوس من أثر هذه الحرب التى يسمونها باردة . وهى فى سخونة البارود والحميم .

ومن العجيب أيضاً أن تحارب الدول التى تريد أن تعيش فى أمان وتدعو للتعايش السلمى وإلى الحياد .

وقد كان من حق الأجيال المـاضية والحاضرة والمستقبلة على كل مفكر . وكل قادر على أمر أن يعمل من أجل السلام .

فلنعمل نحن المحامين على السلام ، واقراره ، بما نستطيع ، وما يسع الجهد .

وآية ذلك أن نوفر السلام بين الأفراد .

فنوفره فى مجتمع الدول منفردة .

ونحن قديرون على ذلك بما قدمنا وأوضحنا ، بأن يكون المحامى رسول

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

سلام بين المتخاصمين ، وأن يضع ماء على النـار المشتعلة بالخصـومة بين الأفراد ، وأن يهدى الى سبيل المحبـة والمودة والأخاء ، وأن يصلح بين المتخاصمين ، وأن يجمع بين الشتيتين المتنافرين .

فإذا استقر السلام فى نفوس الأفراد .

استقر فى كيان المجتمع .

واستقرت الدولة على حال من السلام .

والدولة التى تشعر بالسلام يظلل أرباضها تدعو للسلام ، وتعمل له ، وتسعى من أجله ، ولا ترضى بغيره بديلا .

ولا يظنن ظان أن هذا حديث خيال .

بل إنه حديث صادق منطق .

ولا يحسبن من يأخذ الـكلام بخفة أن الأمر اليوم للقنبـلة الذرية أو الهيدروجينية فى إقرار السلام .

فإنها أكبر خدعة أن يَدّعى دعاة الخراب أن الاستعداد للحرب هو الذى يمنع الحرب .

و إنما ندعو إلى التعلق بالروحانيات .

إلى الدين فنرجع إلى الله و إلى أمجاده . و إلى أوامره ونواهيه .

إلى الخلق القويم . إلى الصدق والأمانة . إلى التضحية والإيثار . إلى التسامح . إلى الدفع بالتى هى أحسن .

إلى التحاب والتعاطف . والتوادد .

فإذا غلبنا الروحانية كانت وسيلتنا أقوى من القنابل على اختلاف أسمائها وألوانها وأنواعها .

ذلك لأن الله أقوى . وأعظم . وأقدر .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ولقد عاد الملحدون فى جميع الدول أمام شناعة المدمرات وفظاعة آلات الحرب إلى الدعوة إلى الله . . بعد أن أنكروها أو نسوها أو تناسوها .

وما أحرانا نحن بلاد الشرق . حيث ولد موسى وعيسى ومحمد ورهط الأنبياء الصالحين إلى اعتناق الروحانية والاستظلال بظلها الرطب ثم نمضى فى ركب التقدم والعلم والمدنية فى غير خوف ولا طمع حتى نحقق لشعوبنا السلام .

لعل الغرب من بعدنا يؤمن بما آمنا به ، ويعمل مثل ماعملنا فينتهى إلى السلام .

لنبدأ بأنفسنا .

ليبدأ كل فرد بنفسه فيملأ أعماقه سلاماً ومحبة وتضحية وإيثاراً .

وبعد حين يصبح المجموع سلاماً .

وتصبح الدولة سلاماً .

ثم يصبح العالم كله سلاماً .

لنبدأ بالصغار فننزع من أيديهم اللعب والدمى التى ترمز لآلات الحرب والدمار ونقودهم إلى معرفة الله والإيمان به .

ونعلمهم السلام كما نعلمهم الكيمياء والطبيعة والجغرافيا .

ليكن درس التاريخ للصغار درساً فى كراهية الحرب وحب السلام .

فنضمن على الأقل أجيالا قادمة تحب السلام وتحيا من أجله .

لنبدأ فوراً قبل أن تسبقنا الأحداث .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

المحاماة والحريات

والحياة السياسية

من أروع وأكمل الأعمال الصالحة التى قامت بها المحاماة فى تاريخها الدفاع عن الحريات . وخلق الوعى لفهمها والكفاح فى سبيل الحصول عليها . ثم المجاهرة فى الاحتفاظ بها .

سواء كانت الحريات العامة أو حريات الأفراد الخاصة .

إن نشأة المحاماة فى مصر بمعناها الصحيح صاحبت عهداً مظلماً فى تاريخ مصر من ناحية الحكم .

فقد احتلت بريطانيا مصر .

وكان من شأن الاحتلال ومن مستلزماته أن يقتل الحريات العامة وأن يحرم على المصريين حرية الاجتماع وحرية الكلام ، وحرية الكتابة ، وحرية العمل .

كما كان من هم الاحتلال أن يخنق حريات الأفراد ليخلق شعباً ذليلا يرضخ . ويرضى الهوان . وعاون الاحتلال الحاكم المستبد (الخديوى) الذى شارك فى عمليتى قتل الحرية وخنقها ! .

وامتدت الأيدى التى تنفذ للاحتلال مبادءه وللحكم المطلق أساليبه لتقوم بهاتين العمليتين عن عمد وقصد . وهى أيدى أجانب وأتراك وأرمن ويهود . ومن جميع الملل والنحل والجنسيات . وهؤلاء — وهم موظفو الدولة عندئذ — كانوا يدركون بعقولهم أنهم يخدمون الاحتلال ويخدمون الحاكم المطلق ويتقاضون أرزاقهم من أيدى هؤلاء فهم لا يخدمون الشعب ولا ينالون منه رزقاً ولذلك عرفوا هدفهم وهو .. الاستبداد .

ولقد أحسنوا وسائلهم .. السجن . والضرب بالسياط . والنفى . والجلد . ومصادرة الأرزاق والأقوات .

اجتمع الاحتلال والحكم المطلق والموظفون غير المصريين والمصريون — الذين ضعفت أخلاقهم . وهانت وطنيتهم — على هذا التفكير والتدبير .

ولم يتنفس فى وجداناتهم إحساس واحد بالإشفاق . . فهم نوع غير نوع الشعب . وهم أجناس غير جنسه .

ولذلك فقد اجتمع العقل الإجرامى . مع الإحساس بالكراهية والبغض فأثخنوا فى الشعب جراحاً ..

وخرس الشعب .. حتى عن أنات التألم .

وهى طبيعة الشعوب حتى فى هذا العصر المتمدين أن تخشى الظلم وتخاف العذاب وتستكين . وتنام على الأذى وتقيم على الذل .. ولكن إلى حين .. فإن الفطرة تأبى الظلم وتكرهه .

والشعوب ككل الكائنات الحية تنطوى حتى يظن بها الموت ثم تنشر لتثب .

ولقد كان هذا حال الشعب المصرى فى أوائل عهد الاحتلال .

فقد المعين . والنصير . والمدافع .. إلا المحامين فقد وقفوا فى المدن والعواصم والقرى .. وقفوا بجانب أضعف الفقراء من الفلاحين .

فكان إذا أوذى فلاح ضعيف أو عامل بسيط لجأ إلى المحامى وأمطر المحامى النيابة العامة برقيات وشكاوى .

وإذا وقع على متهم اعتداء دافع عنه المحامى بأنه قد ارتكبت ضده جريمة تعذيب ودفع ببطلان الاعتراف أو جعل من التعذيب وسيلة إلى تخفيف الجريمة .

وكان المحامون يتكلمون مترافعين فى المحاكم . أو يكتبون شاكين بالبرقيات

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أو العرائض ويسمع الشعب أصواتهم الشجاعة . الباسلة . فتشتد عزيمته . شيئاً فشيئاً . وتقوى معنويته . قليلا قليلا . وترضى نفسه . فإن خير عزاء للمظلوم أن ينال من ظالمه ولو .. بالكلام !

وقد تكفل المحامون ببث روح الشجاعة فى الشعب ضد الظالم . كما تكفلوا بتعزية المظلومين من أفراد الشعب عما وقع عليهم من ظلم .

أدرك أفراد الشعب — من موقف المحامين — أن الظلم ليس حقاً للحاكم . ولكنه ظلم . وأنه عمل سيء وأنه من الممكن مناهضته . ومقارعته .. أو على الأقل الاحتجاج عليه . وتسميته ظلماً . والتنديد بمرتكبه وتصويره فى أبشع صورة . وعرفوا أن هناك شيئاً اسمه العدل . وهو على الأرض يتمثل فى القضاء .

هذا فى قضايا الأفراد . أما القضايا الوطنية فكان دور المحامين لا يقل قدراً وقيمة ونتيجة عن قضايا الأفراد .

وكانت أول محاكمة هزت مصر والمصريين . بل هزت العالم . هزته بموقف المحامين . تلك هى محاكمة قضية دنشواى .

وقف المحامون ينددون بالمحتلين . وظلمهم . ويتهمون البوليس المصرى بالاستبداد والظلم . ويصورون المتهمين فى صورة الضحايا . ويرسمون الضباط الإنجليز بأنهم القتلة الحقيقيون ..

واستمع الفلاح المصرى . والعامل والطالب والتاجر .. وذهلوا .. إذ أنهم سمعوا مصريين يسبون الغازى الفاتح ، المعز المذل ، المحيي المميت ، الرافع الخافض بأنه ظالم ومستبد وسمعوهم يدافعون عن الفلاحين الفقراء — الذين لم يدفعوا أجراً لهؤلاء المحامين — ويصفونهم بأجمل الأوصاف . وينعونهم بأكرم النعوت . .

هنا لك عرف المصريون أن قتال الظالمين لا يكون بالسلاح فحسب وإنما بالحق . الإيمان به والسعى إليه والدفاع عنه . وأن سلاح الحق ماض وفعال وأنه أقوى فى المعركة من السيف والنار .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ولقد أيقن الشعب أن مهمة المحامى هى الدفاع عن المظلومين . ورد عدوان الظالمين وآمن بذلك إيماناً عميقاً وليس أدل على صدق ذلك أنه لما شذ واحد من المحامين — هو المرحوم الهلباوى بك — ولعله كان معذوراً . ولعله كان يريد تخفيف حدة الظالمين .. فدافع عن الضباط المعتدين وترافع ضد المتهمين .. لم يغفر له الشعب هذه الغلطة طول حياته . وأطلق عليه لقب جلاد دنشواى.. على أنه لم يكن عضواً بالمحكمة التى قضت بالعقوبة . .

نسى الشعب أو تناسى الحكم الذى صدر . أعضاء المحكمة الذين أصدروه . ونسى أو تناسى ظلم الظالمين .

ولكنه لم ينس وقفة المحامى ضد الحرية . والعدل . وفى صف الظلم والظالمين ..

إن هذا الموقف يوضح إيمان الشعب بالمحامين . و بأنهم الدعاة إلى الحق والحرية . وأنهم مقاتلو الاستبداد والمستبدين .

و بعد قرابة ثلاثين عاماً من هذا الحادث وقع حادث آخر فى قضية القنابل التى كان بطل التجسس فيها شخص اسمه ابراهيم الفلاح . وكان الشعب يعرف أن القضية قد لفقت فى عهد اسماعيل صدقى باشا للايقاع بنفر من كرام المجاهدين على رأسهم الدكتور نجيب اسكندر وعصبة صالحة من العمال .

وكان الشعب يعرف أن ابراهيم الفلاح هو مرشد البوليس وكان مقدماً كتهم . وترافع عنه الأستاذ عطية الفسخانى . وكان محامياً مقتدراً ولكنه أصبح علماً على الشر فى رأى العامة .. لأنه وقف مع الظالم . وعهد الناس أن يقف المحامى مع المظلوم .

إذن فقد أدرك الشعب قبل أن يقوم الحكم النيابي وقبل أن ينال الدستور وثيقة الحريات أدرك فى خرائب المدن . وفى عشش البوص والحطب فى القرى . . وفى كل مكان أن المحامين له هم « **حصن الأمان** » من ظلم الظالمين . و بطش

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الباطشين . سواء فى القضايا العامة أم فى القضايا الخاصة .

ولم يخذل المحامون الشعب فكانوا دائماً وعلى مر الأيام . وفى أحلك الأيام ظلمة وأحفلها بالظلم شجعاناً لا يهابون حاكماً ولا يجبنون أمام قسوته . ولا ينافقون . ولا يتزلفون .

ولذلك اعتبروا فى العاصمة أنهم العدو للاحتلال ورجاله وللخديوية ثم السلاطين والملوك .

واعتبروا فى الأرياف العدو الأول للمديرية ومفتشى الداخلية الإنجليز وللمأمير وضباط البوليس .

ولو أردنا أن نعدد أو نحصى لما وسعت مواقفهم المشرفة النبيلة المجلدات .

وقد أوردنا فى هذا الكتاب عدداً كبيراً من القضايا العامة وخاصة قضايا الصحافة والقضايا السياسية التى هاجم فيها المحامون الخديوى عباس . والسلطان فؤاد والملك فؤاد .. وكذلك الملك فاروق .

ومن الواجب أن نقرر حقيقة وهى أن المحامين وإن عاشوا مكرمين مقدرين من الشعب إلا أنهم كانوا مكروهين مبغوضين . مضطهدين من الحاكمين . وطالما وقع عليهم الاعتداء نتيجة لقيامهم بواجبهم دون خوف أو وجل .

حقوق العمال :

ومما يجدر ذكره وتسجيله أن المحامين هم الذين قاموا فى مصر بحركة العمال وأنهم هم الذين كونوا النقابات وطالبوا بحقوق العمال وترافعوا عنهم فى المحاكم واكتسبوا لهم حقوقاً كبيرة قبل أن تصدر تشريعات العمال .

ونستطيع أن نقول إنه لولا المحامين لتأخر الوعى العمالى سنوات وسنوات .

ذلك أن المحامين عمال فإن العامل هو الذى يكسب عيشه من عمله لا من رأس مال معين .

ويجب أن نذكر بالحمد والشكر الأستاذ عمر لطفى بك على تفكيره البكر فى شؤون العمال . ومحمد كامل حسين الذى أنشأ أول نقابة عمالية فى مصر وأنفق عليها ماله كله وظل يملك زمام العمال فى القاهرة ردحاً طويلا من الزمن .

ونذكر للأساتذة زهير صبرى ورافع محمد رافع وعبد الحليم رافع وحسنى الشنتناوى — ولا أنسى أن أذكر اسمى تواضعاً فقد كنت مستشاراً عاماً لاتحاد نقابات العمال من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٥ .

ثم جاء نفر كريم من المحامين يقفون وراء كل نقابة ويدافعون عن حقوق العمال .

ومما يذكر للمحامين أيضاً أنهم وهم فى البرلمان قد كافحوا من أجل قوانين العمال فصدرت متكاملة بعضها وراء بعض حتى أصبح لهم اليوم فى عهد حكومة ثورة ٢٣ يوليه نقابات محترمة غنية ولهم ممثلون فى مجالس الإدارات . وممثلون فى المجلس التشريعى : مجلس الأمة .

* * *

ولا ريب أن موقف المحامين فى دفاعهم عن المجاهدين فى سبيل حرية مصر سواء كانوا ثائرين أم زعماء سياسيين كان له أعظم الأثر فى تغذية الحركة الوطنية واستمرارها ، وتقويتها ، واندفاعها أبداً إلى الأمام .

كما أن حرية الصحافة وجدت من المحامين دائماً فيلقاً محارباً مناضلاً عنها . لم يتخلّ عنها لحظة فى تاريخ طويل مما جعل الصحافيين : الشجاع منهم يزداد شجاعة والمتردد يقدم . فعاشت الصحافة دائماً شجاعة قوية تحارب وتضرب . تحارب باستماتة ، وتضرب بشدة وهى مرخصة التضحية أزاء نبالة القصد وهى تشعر بالاطمئنان إلى قوة الدفاع عنها .

إن جهاد الصحافة المصرية فى مناضلة الاستبداد والاحتلال صفحة مشرقة خالدة ... تستوجب أن تؤلف عنها المؤلفات وأن ترفع التماثيل لزعمائها وقوادها .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فى المجالس النيابية :

البرلمان هو المجلس التشريعى — وهو السلطة التشريعية .

لذلك دخله المحامون ليشرعوا للمجتمع المصرى .

والبرلمان هو حصن الحريات .

وقد دخله المحامون ليواصلوا تحت قبته معركة الحرية .

إذن فلم يكن عجباً أن يكون المحامون دائماً هم الكثرة بالنسبة لباقى طوائف الشعب المصرى وإنما العجب أن لا يقود المحامون البرلمان دائماً . لأنهم ليسوا أهل الكلام فحسب كما يسميهم بعض الجاهلين الظالمين وإنما هم أهل الفكر المنطق بطبيعة دراساتهم ومرانهم وما يمارسون من فن — وهم أيضاً رجال التشريع وهم المقننون الذين يعرفون مواطن الداء فى القوانين القائمة . كما يعرفون مواضع الحاجة إلى التشريعات الحديثة وهم أيضاً رجال آمنوا بمكافحة الحكومات الفاسدة . وعرفوا كيف يقاتلون من أجل الحرية .

وفى البرلمان ميدان لهم واسع الرحبات . مرتفع الصوت . لأن البرلمان حصن الحريات ومشعل نورها.

* * *

التقاليد البرلمانية :

كان من الحتم وقد قامت الحياة البرلمانية فى مصر على أسس ديموقراطية على نمط مثالى لأحدث الدساتير على الرغم من النقائص والثغرات التى أراد الحاكم المستبد أن يحتفظ بها للنفاذ منها إلى شهواته ومآربه . ولكم نفذ منها كثيراً حتى أضاع قيمة الحياة الدستورية . كان من الحتم أن تصاحب ممارسة الفن البرلمانى تقاليد برلمانية . وسرعان ما انعقد مجلس النواب ١٩٢٤ حتى بدأ نشاط العقل التشريعى ممثلا فى المحامين بوضع اللائحة الداخلية ، وتنظيم اللجان ، وتطبيق الدستور تطبيقاً صحيحاً من حيث أعمال اللجان ومناقشات المجلس وإدارة الأسئلة والاستجوابات والمناقشات .

وكان المحامون وحدهم هم أصحاب الفضل الأول والأخير فى ما أحرزته الحياة النيابية من ابتداء حسن واستمرار ناجح بالنسبة لممارسة الفن البرلمانى .

قد يعترض معترض بأن الحياة النيابية لم تنجح ، ومهما كان الأمر فى هذا القول صحةً وفساداً فإن مرجع ما يؤخذ على الحياة النيابية إنما هو محاربة الاحتلال لقيام الحياة الدستورية فى مصر وعداوة الحاكم المستبد سواء كان — فؤاداً — أو — فاروقاً — لقيام سلطة تحد من سلطته وتجعله يملك ولا يحكم .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى شهوة الزعماء للحكم . وهى الشهوة التى صرعت كثيراً من الزعماء الصالحين كما كان فيها مصرع الحياة النيابية فى مصر — وهذا على أى حال موضوع آخر . ولا يتعارض مع موضوعنا الحالى وهو أثر المحامين فى الحياة النيابية .. لقد وقف المحامون فى جميع المجالس النيابية يتكلمون — لا لمجرد الرغبة فى الكلام — أو لأن صناعتهم التى يحذقونها الكلام . وإنما وقفوا مدافعين عن الحريات العامة . والحريات الخاصة . سواء كانوا معارضين أم مؤيدين واضعين بذلك أقوى الأسس للتقاليد البرلمانية وأبقاها . وأشدها تمكناً وتأصلا فى تاريخ الحياة الدستورية .

القوانين :

ولما كان أهم مجال للنشاط البرلمانى هو التشريع . والتشريع هو عمل من أعمال المحامين . ليس فقط بسبب تخصصهم فى علم القانون ولكن بسبب تكوين العقلية القانونية mentalité juridique وهى عقلية تتميز مع مرور الزمن بنضوج علم وفن القانون على نارين من دراسة ومن عمل . ومتى اجتمع الدرس نتاج العقول وتراثها من قديم الزمان مع العمل القوى المتواصل حيث تمتزج المشاعر والأحاسيس مع العقل وأحداث الزمن فإن النتيجة الحتمية عقلية تحل المشاكل وتهون العسير . وتزيد الأمل وتدفع نحو المستقبل .

وعلى هذا الأساس أخذ المحامون ينظرون فيما بين أيدى السلطة التنفيذية والسلطة القضائية من قوانين وهم أصلاً يعرفون أوجه النقص فيها وثغرات الضعف

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ولذلك أخذوا منذ سنة ١٩٢٤ يغيرون و يبدلون و ينشئون و يقترحون و يساهمون فيما يقترحه غيرهم من النواب أو ما تقترحه الحكومات حتى تغيرت جميع القوانين فى مدى ربع قرن ولم يبق منها شيء فى النشاط القومى أو المرافق العامة لم توضع له القوانين أو تبدل قوانينه إلى ما هو أحسن .

وليس المجهود قاصراً على اقتراح أو مناقشة مواد القوانين فى الجلسات العلنية إنما العمل الجبار هو العمل الخفى عن نظر الجمهور وسمعه... العمل فى اللجان حيث تبحث كل كلمة من كل مادة وتقارن بجميع قوانين العالم .

هذه أعمال يجب أن تذكر للمحامين بالفخر والشكر .

شجاعة الرأى :

تخلق المحامون منذ القدم بخلق مميز يكتسب عادة بالعقيدة ثم بالمران وقد أصبح على مرور الزمن فطرة فى المحامى ... ذلك الخلق هو شجاعة الرأى .

إن المحامى لايخشى عند أداء واجبه المحكمة أو النيابة أو السلطات الإدارية ولا يثنيه أبداً عن قولة الحق لوم لائم ولا بطش جبار .

وهذه من مميزات المحامى ... بل إنها من الصفات التى تعصف بأعصابه .

وقد نقلها المحامون — إلى دار البرلمان وكان لهم دائماً — سواء كانوا مؤيدين أم معارضين — مواقف تميزها الشجاعة التى لا ترهب المستبد وحده فقط و إنما تشيع روح الشجاعة فى الشعب الذى عانى من الظلم ألواناً كادت فى كثير من الأحيان تذهب بشجاعته .

وشجاعة الرأى ليست من المميزات الخلقية فى الحياة فحسب سواء بالنسبة للفرد أو للجماعة . و إنما هى سبب قوى للتقدم ودافع من دوافع الرقى والاندفاع نحو الأحسن .

ولولا شجاعة الرأى لتأخر ركب الفكر والفن والسياسة . . وتأخر ركب المدنية أجيالا وأجيالا .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لقد كان سعد زغلول وهو رئيس الأمة ورئيس مجلس النواب مارداً.. وكان له من كفاية شخصيته . وعلمه وزعامته ما يروع النفوس . ويلقى الرعب فى القلوب ومع ذلك فقد وقف له عبد الرحمن الرافعى المحامى الشاب وأحمد ماهر المحامى الشاب أيضاً . الأول من المعارضين والثانى من المؤيدين بل من الحواريين . وقفا له معارضين بشجاعة قفزت بروح الشعب المعنوية عشرات السنين نحو المستقبل وبعد قرابة ثلاثين سنة وقف كاتب هذا الكتاب يؤبن أحمد ماهر فقال :

« إن مفتاح شخصية أحمد ماهر هو شجاعة الرأى .

وشجاعة الرأى أمضى من شجاعة السلاح فى الحروب .. حتى فى حروب السلاح .

إن الجندى بشجاعته يغلب جيشاً فقد الشجاعة ولازمه الجبن وملىء قلبه بالرعب » .

لنذكر هـذه المعنويات فإنها جزء من تقدم الأمم وبه يكتب تاريخها . ويجدد مستقبلها ويستنير المظلم من أركان حياتها .

الأدب البرلمانى :

فن الكلام يمارس فى دور القضاء . . كما يمارس فى المحافل السياسية .

ولما كانت مصر قد غبرها دهر بل دهور كممت فيها الأفواه . وألجمت الألسن بالأحكام العسكرية والقوانين الظالمة لذلك انفرد المحامون وحدهم بممارسة فن الكلام فى دور القضاء .

وعلى ألسنتهم وحدهم كان للغة العربية فن فى الكلام . وبرز منهم خطباء يقفون مع خطباء العالم فى محاذاة واحدة ومستوى واحد .

وكم أعجبنى المرحوم الأستاذ على أيوب المحامى العظيم — وكان متحدثاً ومتكلماً وخطيباً ومترافعاً متميزاً بجميع صفات الفنان المبدع — أعجبنى حين رئى مرقص فهمى المحامى الخالد فقال « إنه لم يتفوق على زملائه فى مصر وحدها ولا فى الدول العربية . ولا فى الدول الغربيـة . . بل إنه يذكر مع شيشرون . وقد

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لا يذكر معهما ثالث إلا فى مستوى أقل من مستواهما » .

و إننا لنذكر مع مرقص فهمى — سعد زغلول وأحمد لطفى وأحمد عبد اللطيف ووهيب دوس ومحمد على علوبة ومحمد كامل حسين والهلباوى وأبو شادى ومرقص حنا وعشرات غيرهم ممن جعلوا المرافعة فناً . وجعلوا من الفن إبداعاً .

هذا حال المحامين عند ما كان مجال الكلام لهم وحدهم فى دور المحاكم .

فلما جاء دور الثورة : ثورة١٩١٩ وكانت حطبها ولهبها من ألسنة الخطباء .. كان المحامون . . فى كل مكان من أرض مصر هم لسان الثورة .

و إن أنسى لا أنسى أيام كانت تهرع القاهرة وضواحيها وزوارها إلى الأزهر لكى يسمعوا الخطباء . . وكان من أئمتهم أبو شادى ومحمود بسيونى وابراهيم عبد الهادى — الذى سمى فتى الثورة وخطيبها عندئذ — وغيرهم من المحامين .

لقد تحدث المحامون إلى الشعب فأيقظوا الراقدين ، وألهبوا المستيقظين ، وأوقدوا نار الملتهبين حماسة فكانت الثورة الرائعة سنة ١٩١٩ ، وكانت الثورات من بعدها .

ولا شك أن خطباء الثورة — وعلى رأسهم المحامون — قد استحدثوا فناً نسميه أدب الثورة الخطابى بحق . كما أن كتّاب الثورة سواء الذين كانوا يكتبون فى الصحف أو يحررون البيانات والنداءات السياسية قد استحدثوا فناً من حقه أن نسميه أدب الثورة الكتابى .

و إن كان كتّاب تاريخ اللغة والأدب يتحدثون عن الخطابة فى الجاهلية ، وفى فجر الإسلام ثم فى الدول الأموية والعباسية والفاطمية .. كما يؤرخون للنثر فى هذه العصور فإن من حق الثورة أن يؤرخ أدبها المكتوب وأدبها الخطابى و يدرس و يرد إلى التقدير الصحيح له .

ولا شك أن هذا الأدب سيكون — بعد دراسته — قد جعل عصره

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

عصراً ذهبياً للغة العربية تجاوز حدود مصر إلى العالم العربى كله ، بل إنه دفع اللغة إلى التقدم والمرونة للتعبير عن شتى المعانى والأحاسيس .

الأدب البرلمانى :

ولما أعلن الدستور وانعقد البرلمان كان على المتكلمين فى دور المحاكم ، والذين هزوا أعواد المنابر السياسية أن يثبتوا وجودهم تحت القبة الخالدة ، حيث يستمع لهم زملاؤهم وينصت لهم شعب مصر ليدرك مقدار ثماره من ثورته ، وينصت لهم العالم ليعرف مدى صلاحية هذا الشعب للحياة الدستورية . . ويمسك لهم التاريخ قلمه القاسى ليسجل ما يقولون .

كان عليهم أن يعرفوا أن ما يقولونه تحت قبة البرلمان ليس الهدف منه فك رقبة متهم أو رد حق مضيع لفرد من الأفراد ولا هو إثارة الجماهير . . وإنما هو لخير الأمة وصلاح المجتمع ، وأنه باق من بعدهم للأجيال ، وأنه خالد فى التاريخ ليكون فصلا مجيداً من كتاب تاريخ هذه الأمة المجيدة التاريخ .

وقد شعر المحامون فى مجلس البرلمان بعظم المسؤولية الملقاة على كواهلهم . . فكانوا لها . . كانوا أبطالها وكانوا كلماتها وخلقوا أدباً خطابياً من نوع خاص هو الأدب البرلمانى . . فهو ملىء بالتعبير القوى ، واللغة السليمة ، والعبارة الواضحة ، ليس فيه حشو مقصود به الإثارة ، ولا تحده حدود ضيقة كفن الأدب القضائى الذى تحده الدعوى وموجباتها .

• لم يكن الأدب الذى يخاطب الجماهير لتنفعل وهى أصلاً قابلة للانفعال .

ولم يكن الأدب الذى من شأنه أن يقنع قاضياً أو ثلاثة أو خمسة موحدة تقريباً ثقافتهم وهو محصور فى موضوع القضية .

ولكنه كان الأدب الذى يقنع به الخطيب أكثر من مائة مستمع . . مائة مستمع تختلف ثقافتهم وتتباين أمزجتهم ، متنوعة عواطفهم ، وهو أدب منقول إلى أسماع الجماهير وعيونهم — فوراً على صفحات الصحف — وهم الحكم الأخير

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الذي ينعقد ويعجب ولا يرحم وإنه نوع من الأدب عسير، صعب ، لا يحسنه إلا موهوب صقلت مواهبه التجربة والمران .

ولقد أحسنه النواب والشيوخ من المحامين ، واتقنوه وتفننوا فيـه ، حتى أصبح مثالا راقياً يبعث على الإعجاب والتقدير ، ويصلح للمحاذاة والمحاكاة ، كما هو خليق بالدرس والتأدب عليه .

إنه أدب لم يخلق المجد لأمة تأدبت عليه فقط وإنما خلق المجد لدولة بنيت قواعدها الحديثة عليه .

وإنه لأدب خالد . . عند المنصفين .

هذا موجز لفضل المحامين والمحاماة على الحريات الخاصة والحريات العامة وعلى الحرية السياسية فى مصر وعلى الحياة البرلمانية فيها .

إنه أثر عظيم يستحق أن يخلد فى مجلد بل مجلدات ، وأحسبنى أطمع فى أن يكون لهـذا الموجز التأثير الذى يحفز رجالا يكتبون عنه ويصنفون الـكتب والمجلدات فيه .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

المحاماة والكفـــاح الوطنى

فى سبيل حرية مصر واستقلالها

بعد أن تم للانجليز احتلال مصر بدأت صفحة سوداء لأعمالهم الاستعمارية كما بدأت صفحة بيضاء لكفاح شعب أعزل من السلاح . سلاح الكفاح بجميع أنواعه. فقد كان الشعب محكوماً بحكومة على رأسها عدو لدود له هو الخديو توفيق فكان الشعب بمثابة الجسم الذى لا رأس له . أو بمثابة الجسد الذى يتسرب إليه المرض القتال من رأس متخمة بالميكروبات القتاكة.

وكان زعماء الرأى والفكر قد نكبوا بعد الثورة العرابية فنفوا أو سجنوا أو شردوا أو حوربوا فى أرزاقهم .

وكان الجيش قد انحل ولم يبق له من أثر .

وكانت الأداة الحكومية بأيدى الأجانب والأتراك والمرتزقة من جميع الأمم ومختلف الملل والعمل .

وكان الشعب يعانى فوق ذل الهزيمة الفقر والمرض والجهل ..

وكان اليأس يرين على النفوس .

وكان طبيعياً فى حياة الأمم الأصيلة فى الحرية أن لا يظل الحال كذلك .

وكان لا بد للنور أن ينبثق .

وللصوت الحبيس أن ينطلق .

وكان لا بد أن يتحرك الصريع وتدب فى أوصاله الحياة .

وقد دبت الحياة فعلا فى المارد الصريع — مصر — التى كافحت الغزاة على مر السنين . فكان تاريخها لا تاريخ احتلال مستمر كما يزعم الجهلة المأفونون

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وإنما تاريخ كفاح مستمر فى سبيل الحرية والاستقلال . وقتال دائم لطرد الغزاة المستعمرين . وتضحيات متوالية بالأرواح والأموال .

دبت الحياة فى الصريع أول ما دبت فى مدرسة الحقوق وانبثق النور من فضائها . وانطلق الصوت من مئذنتها .

وكان صاحب الصوت الذى انطلق معبراً عن نجوى زملاءه هو صوت الشاب مصطفى كامل وهو الذى كتب إلى أخيه يبرر له رغبته فى الالتحاق بمدرسة الحقوق فقال فى خطابه المؤرخ ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ :

« ولكننى أؤمل أن تعود إلىّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم .. الخ » .

فلما انضم الشاب الثائر إلى صفوف طلاب مدرسة الحقوق — مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم لقى فى هذه الصفوف شباباً تغلى فى عروقه دماء الثورة . من أمثال فؤاد سليم ولطفى السيد واسماعيل صدقى وأحمد رمزى ومرقس فهمى فتلاقت أرواحهم وقلوبهم وآلامهم وآمالهم .

ولا شك فى أن مصطفى كامل — كفرد — ما كان له ككل فرد أن ينهض بمسؤولية أو يصيح بدعوة إلا بمؤازرة رفقاء وإخوان . وقد حدثنا معاصروه أمثال عزيز خانكى وعلوبة وأحمد رمزى ومرقس فهمى بذلك .

كانوا يجتمعون فى المدرسة وفى القهاوى وفى «المنادر» والمنتديات ويتحدثون ويتناقشون ويتبادلون آراء الثورة .

وكانوا يتصلون برجالات مصر المثقفين أمثال عبد الله النديم ولطيف باشا سليم وإسماعيل باشا صبرى .

وإننى أخالف هنا رأى الأستاذ الجليل المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

فى كتابه عن مصطفى كامل ص٣١ إذ أنه بعـد أن سرد ما ران على النفوس من اليأس استنتج أن الفضل فى دعوة مصطفى كامل فى هذا الجو المظلم :

١ إنما هو فضل عبقريته .

وعبقريته لا تنكر .. ولـكن العبقريات كنوز دفينة لابد من أيدى تعمل لإخراجها وصقلها و إبرازها فى صورتها البهية ، إن العظماء والعبقريين ليسوا ذواتاً مستقلة عن بيئاتهم وما هم مقودون بأنفسهم و إنما يرتفعون بالمعاضـدة والمؤازرة والمعاونة .

كان النبى محمد فقيراً ، أمياً ، يتيما ، ولـكن نصر الله جاءه على يد المؤمنين الذين التفوا حوله بالرأى والتضحيات والمهاجرين معه ، والأنصار الذين شـدوا أزره ومكنوا لدعوته ، والمؤلفة قلوبهم .

كذلك الحال مع مصطفى كامل وجد فى مدرسة الحقوق العش الذى يسقسق فيه كالعصفور المغرد فلما اجتمعت العصافير صارت شواهين ، وصقوراً ونسوراً . باجتماعهم فى الرأى والعمل .

وليس أدل على ذلك من حادث أول مظاهرة بعد الاحتلال ، وكانت فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٩٣ حين قامت أزمة بين اللورد كرومر والخديو عبـاس الذى كان قد أقال وزارة مصطفى باشـا فهمى فتدخل اللورد كرومر لـكى يلطم الخديو الجديد لطمة يظل بعدها صريعاً ، وطلب أن يغير الخديو موقفه و يبقى مصطفى فهمى رئيساً للوزارة ، ووقف الخديو الشاب يدافع عن حقه .

عندئذ تحمس طلاب الحقوق ، وتحمس معهم طلاب المدارس العليا وراحوا يثيرون الشعب حتى إذا ما كان الخديو يؤدى صلاة الجمعة بمسجد الإمام الحسين رضى الله عنه كانت المظـاهرة مصطفة على طول الطريق يقودها طلاب الحقوق الذين شقوا عنان سماء القاهرة لأول مرة فى تاريخ الـكفاح الوطنى منذ الاحتلال البريطانى بهتافاتهم بتأييد الخديو وسقوط الاحتلال .

وأعادوا نفس المظاهرة ، مساء السبت ٢١ يناير سنة ١٨٩٣ عندما حضر الخديو تمثيل رواية عايدة بالأوبرا .

وتخرج مصطفى كامل فى مدرسة الحقوق الفرنسية بجامعة تولوز وعاد إلى مصر يشتغل بالمحاماة وهو يقول فى خطاب له لشقيقه مؤرخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤ .

« واليوم أحمد الله حمداً كبيراً وأشكره شكراً جزيلا على فك قيد أسرى والمن علىّ بإطلاق فى ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق ، وعولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ولو أتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع . . الخ » .

وفى نفس الشهر أدلى بحديث إلى جريدة (جازيت دى تولوز) التى تصدر فى تولوز عقب تخرجه قال فيه :

« ومتى عدت إلى مصر أنضم فى الحال إلى صفوف المحامين لأنى ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شىء لدينا وهو الدستور » .

وعاد إلى مصر فنشرت جريدة المؤيد فى عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ما يأتى :

(قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندى كامل صاحب جريدة المدرسة والحائز للشهادة النهائية فى الحقوق محامياً أمام المحاكم الابتدائية وهو من نخبة الشبان الأذكياء) .

* * *

بعد ذلك انضم إلى جمهرة صالحة من رجال المحاماة أمثال أحمد لطفى وعمر لطفى وأبى شادى واسماعيل عاصم واسماعيل الشيمى ومرقس فهمى ولطفى السيد وغيرهم و بدأوا الكفاح وأعدوا عدته من مال وذخيرة فكرية ، وأخذوا يتصلون

بزعماء الرأى والفكر فى البلاد وأخذت الخلية يطن فيها أزيز .

إلى أن أصدر اللواء فى ١٩٠١ فكان محرروه من المحامين : محمد فريد ومصطفى نجيب وإسماعيل شيمى وويصا واصف ومحمد سالم وفؤاد سليم ومحمود أنيس وعبد القادر حمزة ولطفى جمعة ، ثم تكون نادى المدارس العليا . وكان حصن الجهاد ومنارته ولواءه . وكان رئيسه حقوقياً هو عمر بك لطفى . وكان من أعضاءه البارزين مصطفى كامل وعبد الخالق ثروت و إسماعيل زهدى وأحمد أمين و بديع قربه ومحمد على دلاور وصالح جودت وفؤاد أنور وأمين الرافعى ومحمد فايز وحاتم يوسف العسكرى ونبيه سلام وعبد المقصود متولى .

حادث دنشواى :

فى ١٣ يونيه سنة ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواى .

وإنها لحادثة دنشواى .. وكفى !

فانبرى لأول مرة صوت المحاماة على لسان أحمد لطفى ولطفى السيد ومحمد يوسف وأبو شادى يلعنون الاستعمار و يمجدون الحرية . وهم يدافعون عن ضحايا وضعوا فى قفص الاتهام قسراً وظلماً وهم المقتولون وأولياء الدم .

وعلى صوت هؤلاء المحامين تنبه المصريون ، ومسح النائمون عن عيونهم غفلة النوم ، فهبوا يلعنون الاستعمار و يكافحونه و يقاتلون من أجل الخلاص منه .

الحزب الوطنى ١٩٠٧ :

ثم تكون أول حزب فى مصر فكان أغلب أعضاءه من المحامين — محمد بك فريد — ويصا واصف — محمد حافظ رمضان — محمود فهمى حسين — إسماعيل بك شيمى — مرقص حنا — محمود أبو النصر — محمد على علوبة — محمد كامل مرتجى — محمود بسيونى — مصطفى النحاس (وكان قاضياً عندئذ) وغيرهم .

وكان لهذا الحزب أول صوت فى الشرق نادى بطلب الحرية والاستقلال

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وظل هذا الصوت مدوياً . تتفرع عنه أصوات مدوية إلى أن هبت الشعوب جميعاً حتى فى وسط القارة المظلمة أفريقيا تطالب بالحرية والاستقلال وانهارت الامبراطوريات وتداعت دعامات الاستعمار وثلت العروش . وانكمش طغيان الحاكمين أمام جبروت الدعوة إلى الحرية . هذه الدعوة التى بعثتها حناجر المحامين منبعثة من رؤوس مدركة لمعنى الحرية وقلوب مؤمنة بقيمة هذه الحرية بالنسبة للحياة والوجود .

محمد فريد :

وحمل المشعل بعد مصطفى كامل محام آخر هو محمد فريد وفى أيامه تلاقى الطغيان مع دعاة الحرية أمام المحاكم لأول مرة فى قضايا متعددة .

منها قضية الشيخ عبد العزيز جاويش — وكان من المجاهدين الأبطال الأبرار — وكان ميدان جهاده الصحافة . وكان يملك قلماً من نار إذا هجم به أحرق من يهاجمه وأشعل لهباً فى صدور القارئين .

وكان يتولى تحرير جريدة اللواء وكان قد حدث فى السودان فى بلدة تسمى الكاملين أن قامت ثورة بزعامة شيخ يدعى عبد القادر فجردت الحكومة قوة من الجيش نكلت بالزعيم والثائرين وقتلت عدداً كبيراً منهم ثم قدمت متهمين للمحاكمة فقضت المحكمة بإعدام ١٢ شخصاً ومعاقبة ثمانية بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومنعت الحكومة المصرية نشر النبأ . فلما علم اللواء بالحادثة نشر عنه كلمة بعنوان (دنشواى أخرى فى السودان — ٧٠ مشنوقاً وسجيناً) فأقامت النيابة الدعوى العمومية على الشيخ عبد العزيز جاويش وقدمته للمحاكمة أمام محكمة عابدين وترافع عنه الأساتذة أحمد بك لطفى و إسماعيل بك شيمى ومحمود بك فهمى حسين (وقد توفى أخيراً وقد عرفناه وقضينا معه سهرات فى النادى الأهلى أمتعنا فيها بالحديث عن ذكريات تلك الأيام الكريمة) .

ترافع المحامون عن أول صحفى يتهم بتهمة خاصة بحرية النشر . وكان

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لمرافعاتهم صدى فى البلاد . وقد قضى فيها بالبراءة .

وعرف الناس بفضل المحاماة أن للكاتب أن ينشر ما يشاء ويهاجم من يكون مهما تناهت قوته .

وكم عجب الناس عندئذ لما ذكره المحامون عن حرية النشر وحرية القلم !

قانون المطبوعات :

وكان من أثر مرافعة المحامين وحكم القضاء أن لجأت الحكومة المصرية التى يديرها الإنجليز المستعمرون إلى إصدار قانون المطبوعات الذى حد من حرية الصحافة . وجعل صمامات وأكنة وكمامات على أقلام الكتاب والمحررين أمداً طويلا ودهراً دهيراً .

وقامت المظاهرات احتجاجاً على إصدار هذا القانون .

وقدم للمحاكمة من المتظاهرين كثيرون نذكر منهم أحمد حلمى محمود رمزى نظيم (الزجال المعروف) وعثمان طلعت صبور ومختار طلعت صبور وترافع عنهم المحامون مرافعات قوية هاجموا فيها القانون ومن أصدره والاحتلال وأساليبه وشنوا حرباً شعواء على الوزراء الذين يحكمون باسم الاحتلال . وقضى فى القضية بالبراءة والحبس مع إيقاف التنفيذ ومع النفاذ .

ولكن المهم أن مرافعات المحامين كانت تنشر . وتنشر غصباً عن الحاكمين فكان الشعب يتلهف على قراءتها ويحفظها عن ظهر قلب .

محاكمة عبد العزيز شاويش مرة أخرى :

ونشر فى سنة ١٩٠٩ الشيخ عبد العزيز شاويش مقالا فى اللواء بمناسبة ذكرى حادث دنشواى عدتها النيابة قذفاً فى حق بطرس باشا غالى رئيس الحكومة والذى كان رئيساً للمحكمة وفتحى زغلول باشا أحد أعضائها .

وترافع عنه الأساتذة أحمد بك لطفى واسماعيل بك شيمى ومحمود بك بسيونى

دار المحامي للإصدارات القانونية
المحاماة علم وفن وعمل
تأسست في ٢٠١٨

وأبدعوا وأجادوا إذ وجهوا كل همهم إلى المحتل والحاكمين باسمه . وقضى بتغريم المتهم ٤٠ جنيهاً ثم استأنفت النيابة وكانت المحكمة الاستئنافية برئاسة بوغوص أغديان بك — فقضت بتعديل الحكم إلى الحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ وسخط الناس على الحكم ولكن مرافعات المحامين التى كانت تنشر على الناس وتتناقلها الألسن كانت تشعل النيران حماسة وسخطاً فى نفوسهم .

قانون النفى الادارى :

ولعل من أثر دفاع المحامين عن المتهمين ونفاذ هذا الصوت إلى آذان وقلوب الجماهير والقضاء أن سنت الحكومة قانون النفى الإدارى و بمقتضاه أصبح للادارة أن تنفى أى شخص تعتبره خطراً على الأمن العام إلى جهة نائية كالواحات دون محاكمة ومحامين .

القضايا الصحفية أمام محاكم الجنايات :

ولعله أيضاً من أثر دفاع المحامين ابتدائياً واستئنافياً عن المتهمين فى قضايا الرأى أن أصدرت الحكومة قانوناً يجعل القضايا الصحفية من اختصاص محاكم الجنايات .

قضية مقتل بطرس باشا غالى :

قتل ابراهيم الوردانى بطرس غالى باشا على أثر الاتفاق على مد امتياز شركة قناة السويس وكان قد عرض على الجمعية العمومية . وكان الرأى العام قد هاجم تفريط الحكومة فى أمر قناة السويس .

وكانت أول حادثة قتل سياسى فى تاريخ مصر الحديث .

وكانت الرصاصة التى انطلقت — و إن كنا لا نقر الاغتيال السياسى — إنما تعبر عن ثورة مكتومة فى صدور المصريين .

وقدم الوردانى ومعه ثمانية من الطلاب والمحامين إلى قاضى الإحالة بتهمة القتل للأول والاتفاق الجنائى بالنسبة للآخرين .

وتولى الدفاع عنهم الأساتذة أحمد لطفى ومحمود أبو النصر وعبدالعزيز فهمى وابراهيم الهلباوى وعمر لطفى واسماعيل شيمى ومحمود فهمى حسين ومحمد على علوبة ومحمود بسيونى وأحمد عبد اللطيف ومصطفى عزت .

فأصدر قاضى الإحالة (محمود غنيم) الحكم الخالد بألا وجه لإقامة الدعوى على الثمانية لعدم وجود نص يعاقب على الاتفاق الجنائى .

وحوكم الوردانى وترافع عنه الأساتذة أحمد لطفى وابراهيم الصاوى ومحمود أبو النصر.

وكانت مرافعاتهم آيات من الوطنية الصادقة ، ومن الأدب القضائى السامى . ونماذج تبقى على مر الأيام .

وكانت هذه المرافعات تمثل شجاعة المحامين أمام ثورة الحاكمين والمحتلين وهياج الرأى العام القبطى فى مصر وفى الخارج .

قضية وطنيتى :

أخرج الشيخ على الغاياتى ديوان شعر باسم (وطنيتى) وكتب مقدمة له كل من محمد بك فريد والشيخ عبد العزيز شاويش فأقيمت على الثلاثة الدعوى العمومية بتهمة تحبيذ الجرائم والتحريض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة ولم يكن المؤلف حاضراً ولا محمد بك فريد فترافع عن الشيخ شاويش الحاضر أحمد بك لطفى ومحمد على علوبة بك (باشا) . وكانت مرافعتهما رائعة ، مثيرة ، وآية من آيات الوطنية ، وقضى فى الدعوى غيابياً بالنسبة للشيخ الغاياتى بالحبس سنة وأما الشيخ شاويش فقد حكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ ونفذت العقوبة فوراً .

قضية الدستور فى طنطا :

اصطف الطلبة فى يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٠ على إفريز محطة طنطا للاحتفال بمرور الخديو عباس ، وقد ساقهم الحاكمون كالعادة ، ولكن الخديو ورجال

حكومته فوجئوا بهتافات الطلبة « تحيى مصر » « ليحيى الدستور »، وانزعج مدير الغربية (محمد محب باشا) فطرد الطلبة وقبض على بعضهم .

واتهمت الإدارة الأستاذين مصطفى بك الشوربجى ومحمد نبيه سلام بك بتحريض الطلبة .

وفى يوم المحكمة ازدحمت طنطا بالجماهير وفدت عليها لتسمع مرافعة المحامين الذين ترافعوا عن المتهمين وهم أحمد لطفى واسماعيل شيمى بك والشيخ حسن عبد القادر وأحمد وجدى وعلى كامل حبيشه وعبد الفتاح رجائى ، وكانت مرافعات حماسية غذت لهب الوطنية .

محاكمة محمد بك فريد :

فى سنة ١٩١٢ خطب محمد بك فريد فى الجمعية العمومية السنوية للحزب الوطنى وحمل على الحكومة حملة شعواء وطالب بإنشاء الجامعة المصرية و إصدار الدستور كما طالب الشعب بالكفاح وهاجم المعتمد البريطانى .

وقدم للمحاكمة بتهمة التحريض على كراهية الحكومة و إهانتها وازدرائها .

استقالة سعد زغلول :

وبهذه المناسبة نذكر أن سعد زغلول وقد كان وزيراً للحقانية استقال احتجاجاً على الإجراءات التى اتخذت مع محمد بك فريد .

وترافع المحامون عبد العزيز فهمى باشا ومحمود أبو النصر وأحمد لطفى وأحمد عبد اللطيف ومحمود فهمى حسين .

وكانت مرافعاتهم كلها تدور حول إباحة النقد و اظهار أن كل ما ذكره محمد بك فريد فى خطبته ونشرته جريدة اللواء هو آمال الأمة وهو فيض الإحساس الذى يحس به كل مصرى ..

وقضى فى القضية بالحبس .

قضية واكد وطاهر العربى وعبد السلام البرعى :

اتهمت النيابة العمومية إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام البرعى بالاتفاق على اغتيال الخديو ومحمد سعيد باشا رئيس الوزراء واللورد كتشنر ومحمد مجدى باشا رئيس محكمة الجنايات ومستر ولبر وجلى رئيس محكمة الجنايات .

وقد كان مدبر المؤامرة وناسج بردها هو جورج فلبيدس مأمور ضبط محافظة مصر — وقد قضى بسجنه فيما بعد فى تهم رشوة و ابتزاز أموال المعتقلين خمس سنوات — وتلاقى فى السجن مع ضحاياه واعترف بتلفيق التهمة — وقد ترافع عن المتهمين ابراهيم الهلباوى ومصطفى الشوربجى وعبد الوهاب البرعى وكانت مرافعاتهم فاضحة لأساليب فلبيدس والاستعمار .

قيام الحرب وإعلان الأحكام العرفية :

أعقب ذلك خروج الخديو وإعلان حرب ٩١٤ — ٩١٨ . وإعلان الأحكام العرفية . ونزل السواد على البلاد فمن ظلم لطغيان لنفى ومن غصب للأقوات والأرزاق . إلى الاستيلاء على الدواب والمواشى . ومرت على البلاد فترة حالكة الظلام . قسا فيها المحتل وأعوانه على الشعب قسوة كان من نتائجها المباركة — ككل ظلم — أن تهيأت النفوس للثورة . وأحست السلطة العسكرية بما كان يجيش فى نفوس المصريين فاعتقلت عدداً كبيراً منهم ونفتهم إلى مالطة وإلى غيرها . وفى سنة ١٩١٦ قبض على خمسة من المحامين من أعضاء الحزب الوطنى واعتقلوا وهم محمد زكى على (باشا) وعبد الرحمن محمد الرافعى بك ومصطفى الشوربجى بك وأحمد وفيق وعبد المقصود متولى .

ثورة سنة ١٩١٩ :

ما أن أعلنت الهدنة سنة ١٩١٨ وأذاع الرئيس ولسن مبادىء حق تقرير المصير حتى قامت فى البلاد ثورة بدأت بالمطالبة السلمية بالاستقلال وانتهت بثورة دامية . إذ تنفس المصريون أنفاساً كانت شعاليل الثورة . ثورة

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الشعب المكبوت ، المظلوم المستعبد الذى ظل يرسف فى أغلال الذل والعبودية قرابة أربعين عاماً وهو يتألم ويتأوه ويثور. ثم يُضرب فيصمت . حتى كانت الحرب العالمية الأولى فظلت المطارق تضرب فى عظامه محماة . ملتهبة. حتى أضوت جسده. ولكنها أيقظت روحه وأشعلت نفسه وألهبت قلبه . فهب من رقدة ذله مارداً عملاقاً يحارب بيديه جيشاً مظفراً . كامل العدة . نشوان من خمر الانتصار . يسانده سلطان نصبته على البلاد سلطة الاحتلال فهو مكروه بغيض تنفذ أغراضهما الدنيئة قوات الحكومة ورؤساء هذه القوات من الإنجليز .

ومع ذلك فقد حارب الشعب الثائر وهو أعزل .

وهزت بسالته شعوب الشرق فقامت من رقدتها وصحت من غفوتها واحتذت مثاله وحاربت من أجل الحرية .

وقادة على رأسى الثورة المصرية المحامون :

... لقد قصد المعتمد البريطانى ثلاثة من رجالات مصر يمثلون آمالها ويتكلمون باسمها هم سعد زغلول المحامى وعبد العزيز فهمى المحامى وعلى شعراوى .

وكان من وراء هذه الحركة الرسمية حركات تهيئة وإعداد ظلت زمناً ، أثناء الحرب ، وبعد انتهائها ، وكان قوامها المحامون فى نادى المدارس العليا ، وفى المنتديات والأسمار ، بل وفى المقاهى .

فقد عرفت من مصادر ثقة أن ماهر والنقراشى وشفيق منصور وحسن الشيشينى وعبد الحليم البيلى وغيرهم كانوا يجتمعون فى قهوة اسبلنديد بميدان الأوبرا وكانوا يعدون للثورة . وفى الأرياف كان يجتمع المحامون والمدرسون والأعيان النابهون المثقفون يهيئون للثورة ويمهدون لقيامها .

فلما هزأ المعتمد البريطانى بمطالب المصريين ممثلة فيما طلبه الثلاثة الأقطاب الخالدون — يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ — وأنكر على مصر حقها تألف الوفد

المصرى . وسرعان ما وقع أفراد الشعب وجميع طبقاته العرائض بالتوكيلات له ليكون متحدثاً رسمياً عن البلاد .

وهذه الفكرة فكرة توقيع توكيلات من جميع المصريين فكرة المحامين. ونفذها المحامون فى مصر بأسرها من أسوان إلى الأسكندرية .

وقبض على سعد زغلول وحمدالباسل ومحمد محمود واسماعيل صدقى من أعضاء الوفد ونفوا إلى مالطة .. فقامت البلاد بقلب واحد وعقل واحد وأمل واحدهو أن تحيا عزيزة حرة كريمة .. أو تموت حرة كريمة .

قامت المظاهرات ، وحطم الثائرون كل شىء : محطات السكك الحديدية والترام ، الفوانيس ، دور الحكومة .

حطموا كل ماتقع عليه أيديهم إعلاناً — بغير شعور — عن سخط مكتوم ، وثورة تضطرم . وقتل من المتظاهرين قوم كثيرون ، فقد كانوا عزلا وكان خصومهم مسلحين .

وقاد المحامون الثورة فى كل بقعة من بقاع مصر الثائرة ..

وأخيراً رضخ المحتلون أمام قوة الثورة العزلاء ، وأفرج عن سعد زغلول ورفاقه وتكون الوفد المصرى للسفر إلى باريس للاتصال بمؤتمر السلام الذى كان منعقداً آنئذ لوضع معاهدة الصلح والسلام ، وكان من المحامين فيه أغلبية وهم :

سعد زغلول

إسماعيل صدقى (حقوقى و إن لم يشتغل بالمحاماة) .

عبد العزيز فهمى و كان نقيب المحامين سنة ١٩١٨ و سنة ١٩١٩ .

أحمد لطفى

محمد على علوبة

مصطفى النحاس

حسين واصف (كان حقوقياً)

محمود أبو النصر

و يصا واصف

عزيز منسى

إضراب المحامين :

عقب القبض على سعد زغلول ورفاقه ونفيهم إلى مالطة الذى ذكرناه سالفاً أعلن المحامون الإضراب وطلبوا نقل أسمائهم إلى جدول غير المشتغلين ، وظلوا مضربين ، وكان إضرابهم يشعل نيران الثورة لأن أعمالهم متصلة بالجمهور ، وتعطلت المحاكم وكاد المحتلون أن يجنّحوا إلى أن عادوا فى إبريل سنة ١٩١٩ ليقوموا بأعمال هى أنبل الأعمال الإنسانية .

فلقد قبض على كثيرين وقدموا للمحاكمات . وكانت المحاكم العسكرية عندئذ مجازر لاتعرف رحمة ولا عدلاً ولا قانوناً .

ولم يكن يقف فى وجه هذه المحاكم إلا المحامون المصريون .

وقفوا فى قضية ديرمواس التى حكم فيها بإعدام ٥١ شخصاً منهم المثقفون والمتعلمون — ونفذ حكم الإعدام فى ١٤ منهم وخفف بالنسبة للباقين — و بالأشغال الشاقة و بالسجن مدداً متفاوتة على أكثر من أربعين شخصاً .

وفى قضية مأمور بندر أسيوط (المرحوم محمد كامل محمد) الذى حكم بإعدامه .

وفى قضية الواسطى .

وفى قضية شلش (مركز ديروط) .

وفى صنبو — وقد هجم فيها المتظاهرون على باخرة نيلية كانت تقل جنوداً من الإنجليز إلى أسيوط .

وفى قضية ملوى — وكان على رأس الذين حوكموا أحمد لطفى المحامى (محافظ الاسكندرية رحمه الله) .

وفى قضية المنيا وكان على رأس الذين حوكموا الأستاذان رياض الجمل المحامى وأحمد حتاته المحامى الشرعى .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وأحمد أنيس المدرس بمدرسة أبى قرقاص وكان مدرسى وقد حضرت محاكمته وكان والدى (مصطفى التونى عمدة اتليدم) شاهد نفى فيها فلما أدى شهادته رفعت عليه الدعوى العمومية .

ثم برىء .

وقضية فاقوس .

وقضية رشيد .

وقضية قليوب .

ومئات من القضايا بالقاهرة .

ومئات فى الاسكندرية .

وقضايا أسيوط — وحوكم فيها محمود بسيونى (نقيب المحامين) .

و بنى سويف .

وكوم امبو .

فى مئات المحاكم العسكرية حضر المحامون آلاف القضايا يترافعون بدمهم وأعصابهم بلا أجر وإنما احتساباً لوجه الله ووجه الوطن .

وقفوا لايردون الاتهام فقط وإنما يلهبون الشعور ويقوون العزائم ويشحذون الهمم ويهونون من التضحيات فى سبيل البلاد .

وإنا لنذكر منهم :

محمد أبو شادى — محمد يوسف — توفيق دوس — وهيب دوس — أحمد رشدى — عبد الرحمن الرافعى — أحمد لطفى — الهلباوى — محمود بسيونى غبريال سعد — نجيب براده — أحمد الديوانى — حافظ رمضان — أحمد مصطفى عبد السلام جمعه — على نجيب — اسماعيل حمزة — عاذر جبران — سيد زكى (نابغة محامى المنيا والصعيد) ومحمد حسن — محمد نجيب الغرابلى — عبد الرحمن الرافعى

محمد حامد جودة — عبد الفتاح الشلقانى — عبد الفتاح رجائى — يوسف الجندى — صبرى أبو علم — عبد الفتاح الطويل — أحمد مرسى بدر — محمد كامل الأسيوطى — إبراهيم مختار — عبد الله الحديدى — على أيوب — محمد صادق العوايسى — محمد مغازى البرقوقى — إبراهيم رياض — راغب اسكندر — عبد العزيز فهيم — محمد عبد الوهاب البرعى — عمر عمر — محمد نبيه العجيزى — محمد لطفى جمعه — محمود صبرى — ميخائيل غالى — عبد اللطيف أحمد — عبد المجيد نافع — عباس شريف وغيرهم من كرام المحامين .

قضية عبد الرحمن فهمى :

يقول الأستاذ الكبير المؤرخ للعاصر عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « ثورة سنة ١٩١٩ » الجزء الثانى إن حكومة محمد سعيد باشا كانت قد اتفقت مع السلطة العسكرية على إيقاف المحاكمات العسكرية و إحالة جميع القضايا على القضاء العادى المصرى لنظرها . وكان اتفاقاً أوحته من ناحية الوطنية المصرية كما أوحته الرغبة فى إيجاد جو من حسن التفاهم .

ولكن السلطة العسكرية لم تلبث أقل من عام حتى رجعت عن هذا الاتفاق لأنها رأت أن القضاء المصرى هو قضاء وطنى وأنه لن يرضى رغبتها فى القسوة على المتهمين والحكم عليهم جزافاً بأحكام قاسية لأن قضاء المحاكم العسكرية لم يكن الهدف منه إجراء العدالة ولكن كان الهدف هو تخويف الوطنيين الثائرين و بث الرعب فى قلوبهم .

وكانت أول قضية تعرض بعد نقض هذا الاتفاق هى القضية التى سميت قضية المؤامرة الكبرى .

وكان المتهم الأول فيها هو عبد الرحمن بك فهمى الذى كان رئيس اللجنة المركزية للوفد بالقاهرة — وهو عم على ماهر (باشا) والدكتور أحمد ماهر ، وكان من الرجال الوطنيين المكافحين .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وكان معه نخبة من الشبان الذين كان لبعضهم أثر فى الحركة الوطنية فى مبدئها واستمر هذا الأثر والمساهمة الجدية زمناً طويلا بعد ذلك وهم إبراهيم عبد الهادى باشا الذى تولى رئاسة الوزارة فى مصر ومحمد لطفى المسلمى الذى أصبح محامياً ثم توفى فى شرخ شبابه وحامد المليجى الذى اشتغل بالصحافة حيناً طويلا ومحمد يوسف الذى قبع بعد خروجه فى وظيفة متواضعة هو ومحمود عبد السلام — الذى لا يزال موظفاً بجمارك الإسكندرية إلى الآن — وحسنى الشنتناوى الذى اشتغل بالمحاماة بعد تخرجه بقضايا العمال ثم بالوظائف الهامة فى وزارة الداخلية ثم عاد إلى المحاماة وتوفيق صليب الذى اشتغل أيضاً بالصحافة و بالوظائف الهامة وكان دائماً مشتركا فى الحياة السياسية فى مصر وكامل جرجس عبد الشهيد الذى دخل سلك القضاء ووصل إلى وظيفة مستشار وهو من خيرة رجال القضاء وكذلك كامل أحمد ثابت المستشار وعبد الحليم عابدين الذى اشتغل بالوظائف العامة ثم عاد للاشتغال بالمحاماة وكان دائماً من رجالات مصر الصادقين فى وطنيتهم وفى الخدمة العامة ومحمد عبد الرحمن الجديلى الذى عمل سكرتيراً لسعد زغلول ثم مصطفى النحاس ثم عين فى وظائف حكومية كبرى وكان دائماً مسايراً للحياة السياسية فى مصر وله فيها أثر و إن كان خفياً إلا أنه عظيم ومؤثر .

ودكتور محمد حلمى الجيار الذى اشتغل بالطب و بالأعمال الحرة ثم كان كثر من مرة عضواً بمجلس النواب . وكان كالعهد به دائماً نائباً شجاعاً قوياً .

ومحمد المصيلحى الذى قنع هو الآخر بوظيفة متواضعة فى مجلس النواب إلى أن أحيل إلى المعاش ومحمد الميرغنى وهو من طلاب الأزهر ثم اشتغل نجاراً بالمنيا ثم رشح نفسه فى انتخابات سنة ١٩٥٠ ولكن الجمهور كان قد نسيه .

و ياقوت عبد النبى الذى اشتغل بالصحافة والحياة العامة والتجارة بالإسكندرية ومحمد حسن البشبيشى الذى اشتغل محامياً .

وأما عبد العزيز حسن هندى وكان طالباً وصالح حسن شلبى وحافظ محمود

عواد وكان مزارعاً وعاذر غبريال ومحمد ابراهيم سليمان وأنيس سليمان فلا نعرف عن مصيرهم شيئاً ... لهم التحية على عظمتهم فى كفاحهم وتضحياتهم وتواضعهم فيما نالوا من جزاء .

اتهم هؤلاء بأنهم كونوا مؤامرة للاغتيالات وطبع وتوزيع المنشورات .

واهتزت البلاد من أجلهم فقد كانوا من صفوة شباب مصر وجىء لهم بمحامين من انجلترا منهم مستر متشل أنس وظهر فى هذه المؤامرة أول خائن مصرى وهو عبد الظاهر السمالوطى واصطف للدفاع عنهم جمع من محامى مصر .

وبذل هؤلاء المحامون الانجليزوالمصريون مجهودا جبارا خلال المحاكمة التى استغرقت ثلاثة أشهر .

وقضى بعدها ببراءة ثلاثة و إعدام سبعة . واستبدل الإعدام بالأشغال الشاقة المؤقتة .

و بعقوبات مختلفة تتراوح بين ٢٠ سنة . وثلاث سنوات . مع والغرامة على كل منهم .

وتتبع الناس فى مصر هذه القضية بإحساسهم ووجدانهم . وكان يباع من جرائد النظام والأفكار والأخبار مئات الألوف يومياً .

وفى هذه القضية ظهر المخبرون القضائيون للصحف لأول مرة .

احتجاج نقابة المحامين :

وقعت إبان الثورة حوادث كثيرة . وكان المحامون سباقين للحضور مع المتهمين فيها وفى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩١٩ منع المحامون من الحضور مع المتهمين فى التحقيقات فأصدرت نقابة المحامين احتجاجاً شديد اللهجة على ذلك فى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩١٩ وكان نقيبها عبد العزيز فهمى باشا .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لجنة ملنر :

وعقد المحامون الجمعية العمومية فى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٩ على أثر علمهم بحضور لجنة ملنر التى تألفت للتحقيق فى حوادث مصر ولمحاولة التفاهم وقاطعها المصريون جميعاً مقاطعة كانت وستظل المثل الأعلى لاحتجاج أمة متعاونة متحدة متكاتفة — عزلاء — ضد المحتل القوى المسلح الظافر .

وقررت الجمعية العمومية للمحامين الاحتجاج على حضور لجنة ملنر ودعت إلى مقاطعتها .

فلما حضرت اللجنة قرر المحامون الإضراب أسبوعاً إحتجاجاً على حضورها يبدأ يوم ١٧ ديسمبر — وهو ذكرى الاحتلال المشؤوم — وانتخب فى هذا الاجتماع مرقس حنا نقيباً للمحامين ومحمد أبو شادى وكيلا .

قضايا أخرى:

ألقى عريان يوسف سعد ، طالب الطب ، قنبلة على يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء . ووقف مكانه لكى يعرف الكافة أنه قبطى ألقى قنبلة على رئيس الوزراء القبطى واعترف حتى يمنع شقاقاً بين المسلمين و بين الأقباط لو هرب .

وألقيت قنبلة على محمد شفيق باشا وزير الزراعة ، وقبض على عبد القادر شحاته (من أعيان ديروط) ، وكان طالباً عندئذ بالمدرسة الإلهامية ، ومعه طالب زميله اسمه عباس حلمى .

* * *

انعقاد الجمعية التشريعية :

انعقدت الجمعية التشريعية فى ٩ مارس سنة ١٩٢٠ وكانت معطلة منذ سنة ١٩١٤ . وكان انعقادها فى منزل سعد زغلول (بيت الأمة) .

وكان يمثل المحامين فيها الأساتذة : سعد زغلول ، حسين هلال بك ، زكريا نامق بك ، منصور يوسف باشا ، كامل صدقى بك ، محمد علوبة باشا .

وكان لهذا الاجتماع أثر كبير فى تقوية روح الثورة لأنها كانت البرلمان الشرعى للبلاد ، وكان يمثلها بما لا تمكن معه المماراة والمناقشة .

الاعتداء على نسيم باشا :

اعتدى شاب اسمه ابراهيم حسن مسعود وكان موظفاً بمصلحة الصحة على توفيق نسيم باشا بإلقاء قنبلة على سيارته فى يوم ١٢ يونيه سنة ١٩٢٠ وحوكم أمام محكمة عسكرية وحضر معه جمع من المحامين ، وقضى بإعدامه .

مشروع ملنر :

تفاوض الوفد مع لجنة ملنر بطلب من اللجنة ، وكان الوفد قد صدم فى باريس من اعتراف الرئيس ولسن بالحماية على مصر واعتراف مؤتمر الصلح بها فى مايو سنة ١٩١٩ .

وعاد بعض أعضاء الوفد بمشروع قدمته لجنة ملنر ليعرض على الأمة ، واشترك المحامون فى بحثه وإعلان رأيهم ، وكان رأيهم العامل الأكبر فى رفض هذا المشروع الذى كان مجحفاً بحق البلاد .

* * *

١٩٢١ وما بعدها :

استمر المحامون مشاركين مواطنيهم فى الثورة مقدمين آراءهم ، متفرغين للدعاية والنضال ، حتى ان كثيرين منهم كانوا قد هجروا أعمالهم ومكاتبهم متفرغين للجهاد الوطنى يوم كان الجزاء الوحيد هو رضاء الله وراحة الضمير .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وقبض على سعد زغلول ومعه من المحامين مصطفى النحاس ومكرم عبيد .

ونفوا إلى جزائر سيشل فى المحيط الهندى بالقرب من مدغشقر ، وتألف وفد جديد كان قوامه من المحامين : ويصا واصف بك ، مرقس حنا باشا واعتقلوا . فتألف وفد جديد كان من أعضائه المحامين : سلامة ميخائيل بك ، محمد نجيب الغرابلى باشا .

ثم انضم لهم فى سنة ١٩٢٣ فى الاعتقال راغب اسكندر بك .

وضع الدستور :

على أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى صدر من جانب واحد هو إنجلترا لاستحالة الاتفاق مع المصريين تألفت لجنة لوضع دستور وكان جل أعضائها من المحامين :

منصور يوسف باشا ، محمد على علوبة باشا ، زكريا نامق بك ، ابراهيم الهلباوى بك ، عبد العزيز فهمى باشا ، محمود أبو النصر بك ، الشيخ محمد خيرت راضى ، توفيق دوس بك .

* * *

ومهما قيل فى دستور سنة ١٩٢٣ فإنه كان دستوراً نموذجياً وضع على أحدث المبادئ الدستورية ، وقد وقع به مسخ بعد ذلك فى عهد توفيق نسيم ؛ ولكن الذى لا جدال فيه أن أثر المحامين كان واضحاً فى ما تضمنه من اكتساب الشعب لحقوق لم تكن له ومن ضمان للحريات .

على أن إعلان الدستور لم يوقف الثورة بل استمرت كما استمرت حوادث الاغتيالات والاعتداءات . وألف ثروت باشا الوزارة ، وهو صاحب الفضل فى إعلان تصريح ٢٨ فبراير ، وضبطت مؤامرة لقتله اتهم فيها بعض الشبان وقدموا

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

للمحكمة العسكرية البريطانية ، ثم تعددت حوادث الاغتيال حتى احتجت عليها الحكومة البريطانية .

وفى ٢٥ يوليه سنة ١٩٢٢ قبض على أعضاء الوفد المصرى ومنهم من المحامين ويصا واصف بك ومرقس حنا بك .

وشكلت لمحاكمتهم محكمة عسكرية ، وأنكر المتهمون الكرام على المحكمة اختصاصها ورفضوا الرد على أسئلتها .

كما رفضوا الدفاع عن أنفسهم .

وقضى بإعدامهم ... وهتفوا بحياة مصر وهم يسمعون حكم الإعدام .

ثم اعتقلت السلطة العسكرية بعد ذلك أعضاء الوفد الآخرين ومنهم من المحامين محمد نجيب الغرابلى .

وفد لوزان :

انعقد مؤتمر لوزان للنظر فى شئون الشرق ، واتفق على إيفاد وفد خاص بهذا المؤتمر مكون من ممثلين للوفد وممثلين للحزب الوطنى .

وكان منهم من المحامين الأساتذة : أحمد لطفى بك ، حافظ رمضان بك ، أحمد وجدى بك ، سلامة ميخائيل بك ، عبد الحليم البيلى ، حسين هلال بك ، وقدموا للمؤتمر مذكرات قانونية وسياسية لا شك أن قلم المحامين هو الذى أنشأها وكانت آية من آيات القوة الوطنية كما كانت آية من آيات البحث القانونى والسياسى .

وزارة نسيم باشا :

وتولت الحكم بعد ذلك وزارة نسيم باشا وتجددت حوادث الثورة من مظاهرات لاغتيالات .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وقبض على أعضاء الوفد و بعض أعضاء الحزب الوطنى .

وكان من المحامين الذين قبض عليهم :

الأساتذة محمد نجيب الغرابلى باشا ، راغب اسكندر ، عبد المقصود متولى ، أحمد وفيق ، عبد القادر حمزة .

ثم سقطت وزارة توفيق نسيم .

وجاءت وزارة يحيى إبراهيم . وأفرج عن سعد زغلول وجميع المعتقلين .

ولكن نشأت فى هذا الوقت قضية سميت قضية المؤامرة السياسية ، وكان من المتهمين فيها محمد شافعى البنا (عليه رحمة الله) وخليل نظير (الزجال المشهور) وسيد محمد .

و بالرغم مما ترافع به المحامون مفندين الأدلة الكاذبة للاتهام فقد قضى بإعدام ثلاثة وسجن الباقين لمدد تتراوح بين أشغال شاقة مؤبدة وثلاث سنوات .

وقد ظهر فى قضية ماهر والنقراشى (١٩٢٦) ان هذه المؤامرة التى قضى فيها بالإعدام والأشغال الشاقة كانت ملفقة !

البرلمان الأول :

أجريت الانتخابات الأولى وظهر أن المواطنين فى الأرياف والمدن لم ينسوا للمحامين نصيبهم الوافر من الجهاد كما أنهم أدركوا أنه ليس كالمحامين المدافعين عن الحق نواب يحملون شرف النيابة عن الأمة و يدافعون عن حقوقها فى المحكمة السياسية الكبرى — وهى البرلمان — فنجح عدد وافر من المحامين نذكر منهم :

محمود بسيونى وحافظ عابدين وحسن عبد القادر وأحمد مصطفى ومحمد محمود خليل وعبد الفتاح رجائى وابراهيم مهنا وعلى عبد الرازق وعثمان محمد والشيخ محمد عز العرب فى الشيوخ .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ومرقص حنا ومحمد أبو شادى وشفيق منصور وأحمد ماهر وعبد الحليم البيلى وجعفر فخرى وعزيز أنطون ومصطفى الخادم وسلامه ميخائيل وأحمد سابق وحامد الشواربى ومحمد يوسف ومحمد كامل مرتجى وعبد العظيم الهـــادى رسلان وعبد المجيد نافع وحسين هلال ومحمد توفيق خليل وأحمد رمزى وعبد الرحمن الرافعى ومحمد طاهر عبد اللطيف وويصا واصف وإبراهيم على نصير ومحمد شوقى الخطيب ومحمد نجيب الغرابلى ويوسف الجندى وعبد الخالق عطية وأحمد عصمت ومحمد مغازى البرقوقى ومصطفى النحاس وراغب اسكندر وعبد العظيم الشقنقيرى ومحمد صبرى أبو علم وأحمد فهمى إبراهيم وعبد السلام فهمى جمعه وإسماعيل حمزه وسعد الأنصارى ومحمد صدقى وعلى نجيب ومحمد عبد اللطيف سعودى وأحمد خشبه ومحمد حامد جوده وإبراهيم ممتاز ومحمد كامل حسن الأسيوطى ومكرم عبيد والشيخ عبد الرازق القاضى .

وظل المحامون ينالون دائماً الأغلبية فى البرلمان المصرى على تتابع الأيام .

نال الوفد فى الانتخابات أغلبية ساحقة . وتولى سعد زغلول رئاسة الحكومة . وكان عليه أن يختار وزراءه . وكان التقليد إلى هذا الوقت سائداً على أن يكون اختيار الوزراء من كبار موظفى الدولة ووكلاء الوزارات والمحافظين والمديرين ومستشارى محكمة الاستئناف .

وكان على سعد زغلول وهو زعيم الحركة الشعبية أن يشرك الشعب فى حكم نفسه فأراد أن يجمع بين قديم من التقاليد وجديد منها فاختار من الوزراء السابقين محمد سعيد باشا وتوفيق نسيم باشا وأحمد مظلوم باشا .

واختار من بين المجاهدين حسن حسيب باشا ومحمد فتح الله بركات باشا وواصف غالى ثم اختار ثلاثة من المحامين — مرقص حنا باشا المحامى ونقيب المحامين — ومصطفى النحاس بك ومحمد نجيب الغرابلى افندى .

وولى الغرابلى افندى المحامى بطنطا .. وزارة العدل فكان فى ذلك تكريم للمحامين واعتراف بفضلهم .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

تولى سعد زغلول الحكم وأصبحت البلاد كلها سعدية أى تدين بمبدأ سعد سواء كان ذلك عن عقيدة أم عن اندماج لا شعورى فى الكتلة الفائزة المنتصرة أم زلفى إلى أصحاب السلطان — السلطان الشعبى والسلطان الحكومى .

ولكن بقيت مع ذلك قلة تعارض داخل البرلمان وعلى رأسها عبد الرحمن الرافعى المحامى ومحمد شوقى الخطيب المحامى وقلة تعارض خارج البرلمان وعلى رأسها جريدة السياسة ومحرروها — نذكر منهم الدكتور محمد حسين هيكل — ومحمود عزمى المحاميين .

وكان للمعارضين فى البرلمان وقفات تذكر بالشكر والتقدير وعرفان الجميل ومواجهة الأغلبية الساحقة بشجاعة وقوة مع نبل فى الهدف .

أما المعارضون فى جريدة السياسة فكانوا أشد حدة . وأكثر هجوماً حتى ضاق بهم سعد زغلول وهو الصحفى والمحامى والزعيم المدافع عن الحريات دفاعاً بعث به إلى المعتقل مرتين وبعث بزملائه إلى المنفى والاعتقال والسجن . وهو الزعيم الدستورى الذى عاش يدافع عن كفالة الحريات . فأرسل بجريدة السياسة إلى محكمة الجنايات لمحاكمة محرريها على آرائهم .

وكان عذره أن النقد شىء والافتراء شىء آخر . وأن النقد مباح لكن الشتم غير مباح .

وأنا وإن كنت طوال حياتى أدين بمبدأ سعد وعملت تحت لوائه واتصلت به شخصياً . ولا زلت أعتبره من أعظم الزعماء الذين ظهروا فى العالم بشخصه وكفايته ومواهبه ، وبما قاد به أمته فى أحلك الظروف وأقساها . إلا إننى آخذ عليه أنه ذكر نفسه . ومجده وعظمته فضايقه أن يوجه إليه نقد . وضاق بهذا النقد فأخطأ بمحاكمة كتاب ومفكرين وسياسيين على آرائهم مهما كان فيها من شطط .

فإن سعد زغلول مهما كان عزيزاً . ومهما كان عظيما فإن الحرية أعز وأعظم .

ووجدت السياسة من يدافع عنها . ومن يهاجم سعد زغلول فى أوج مجده وفى عنفوان قوته وسلطانه وكان على رأس هؤلاء الأساتذة محمد على علوبة بك وتوفيق دوس بك وابراهيم الهلباوى بك وكامل البندارى بك وقد قضى بالبراءة من بعد .

وهذا انتصار للمحامين الذين لم يخشوا يوماً موقفاً يخشى فيه من بطش السلطان أو محاربة الأرزاق .

قضية مقتل السردار :

قتل السردار لى ستاك — وكان مقتله بعد فشل مفاوضات سعد زغلول ورامسى ما كدونلد رئيس حزب العمال الذى كان قد ولى الوزارة لأول مرة فى تاريخ بريطانيا وتركزت اتجاهات متعددة فى جهات متفرقة تهدف إلى هدف واحد وهو إحداث حدث .

فالقصر يريد أن يتخلص من سعد زغلول ووزارته و برلمان الأمة وما يجرونه على سلطانه من وبال التهوين والانتقاص . وكان فؤاد سليل عائلة تعتقد أن مصر غنيمة غنمها جدهم محمد على فلا يطيقون صبراً على مزاحمة الشعب لهم فى سلطانهم وسلطتهم .

وكان سعد زغلول يمثل فعلاً إرادة الشعب تجاه القصر الحاكم .

وكان شخصياً يكره فؤاداً ويحتقره .

وكان الانجليز قد برموا برماً شديداً بسعد زغلول وهو يمثل السلطة الشعبية فى الحكم وهم يريدون حكماً يؤيد الاحتلال .

وكانت أمانى الانجليز أن يبطشوا بالحياة الدستورية ويعودوا إلى سابق سلطانهم .

وكان رجال الوفد أيضاً — ومعهم الأمة — قد لحقتهم خيبة أمل من جراء

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فشل مفاوضات سعد زغلول ورمزى ما كدونالد .

ووقعت حادثة قتل لى ستاك حاكم السودان وسردار الجيش المصرى .

واستطاع البوليس بمرشديه وجواسيسه وهم — للأسف — من شباب الثورة وممن كان لهم يد فى الاغتيالات السابقة أن يكشفوا سر مقتل لى ستاك وقدموا للمحاكمة الآتين :

عبد الفتاح عنايت المحامى الآن — وكان طالباً بمدرسة الحقوق .

وعبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا .

وابراهيم موسى الخراط بالعنابر .

ومحمود راشد المهندس بالتنظيم .

وعلى ابراهيم محمد البراد بالعنابر .

راغب حسن النجار بمصلحة التليفونات .

الدكتور شفيق منصور المحامى .

محمود أحمد اسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف .

محمود صالح سائق سيارة .

ونظرت قضيتهم فى مارس سنة ١٩٢٥ . وصدر الحكم فى ٧ يونيه سنة ١٩٢٥ باعدام الجميع ما عدا محمود صالح السائق . ثم استبدل الحكم بالنسبة لعبد الفتاح عنايت بالأشغال الشاقة المؤبدة — وقد قضاها المسكين جميعها وخرج فى سنة ١٩٤٤ .

وكان المحامون عنهم قد وصلوا إلى القمة فى مرافعاتهم وطنيةً وفناً وعلى رأسهم أحمد لطفى وابراهيم الهلباوى .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

قضية ماهر والنقراشى :

كان من أثر قضية مقتل السردار وتنحية وزارة سعد زغلول عن الحكم واضطهاد الوفديين . والتنكيل بالشعب من القصر . ومن الانجليز ومن الحكومة التى قامت لتخدم الجهتين وتخدم البلاد فى رأيها بتحطيم سعد زغلول وأعوانه !

كان من أثر ذلك أن وجهت التهمة إلى أقطاب من رجال الوفد هم أحمد ماهر ومحمود النقراشى وحسن كامل الشيشينى وعبد الحليم البيلى — ومعهم محمد فهمى على ومحمود عثمان مصطفى والحاج أحمد جاد الله من العمال بتدبير حوادث القتل والاشتراك فيها .

ولا ريب أن هؤلاء كانوا من المتزعمين الحركة الوطنية وحركة التآمر منذ حادثة الوردانى — وهم من الذين أوفدوا فى بعثات إلى أوروبا قبيل الحرب العالمية الأولى وكانت أوروبا عندئذ فوارة فياضة بحركات التهلست و بثورات المطالبة بالحرية . والسعى إلى نيل الحرية من أى طريق و بأية وسيلة . فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ومعهم هذه الحماسة . وهذه الآراء .

غير أن البوليس السرى وكان على رأسه ضباط من الانجليز لا ذمة لهم ولا ضمير . كانوا قد زيفوا الشهود والأدلة . ولذلك وجد المحامون مجالا للدفاع والفتك بهذا التزييف .

ولعل هذه القضية من أروع ما عرض فيه المحامون فنونهم . وكان هؤلاء هم مرقص حنا باشا وأحمد لطفى بك ووهيب دوس بك ومصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد بك ومحمد يوسف بك وسلامة ميخائيل بك ونجيب الغرابلى باشا ومصطفى الشوربجى بك والأستاذ زهير صبرى المحامى الثائر والأستاذ ابراهيم رياض وقضى فيها ببراءة الجميع ما عدا محمد فهمى على الذى قضى بإعدامه رحمه الله رحمة واسعة .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

انقلاب صدقي باشا :

كان اتجاه الملك فؤاد واتجاه الانجليز يسير فى طريق واحد وهو تحطيم الحياة الدستورية .

وكان هـذا الاتجاه يجد نصراء له من زعماء مصريين بعضهم حسن النية كالمرحوم محمد محمود باشا الذى كان يعتقد أن حكم الوفد — حكم الرعاع — قد أشاع الفوضى فى البلاد وأنه لابد من « مستبد عادل » لينجو بالبلاد من الفوضى إلى النظام والتعمير والإصـلاح . واستعمله المغرضان القصر والانجليز مخلب القط . ولـكنه سرعان ما أدرك الحقيقة فتصادم مع الجبهتين وتنحى عن الحكم .

وقد حدثت فى حكمه أحداث ومظاهرات . وكان للمحامين نصيب الأسد فى الدفاع عن الحريات .

وجاءت وزارة عدلى باشا تمهيداً للانتخابات . ثم جاءت وزارة النحاس باشا نتيجة لفوز الوفد فى الانتخابات .

وفاوض النحاس باشا الانجليز وفشلت المفاوضات . وهنا عاودت الجبهتان المغرضتان شهوتهما فسرعان ما أقيل النحاس باشا وقبل اسماعيل صدقى باشا الحكم .

وقد كان صدقى باشا مبيّت النية فبطش بالدستور وخنق الحريات وأقام حكماً دكتاتورياً . وقابل الشعب هذا الحكم المطلق بمقاومة تعتبر مثلاً للمقاومة الشعبية .

وكان لابد لهذا الاحتكاك من نتيجة حتمية وهى القضايا .

نشأت قضايا صحفية لما وقفت الصحف المصرية تقاتل الدكتاتورية بأقلام من نار .

وحوكم الأستاذ الأديب الـكبير عباس محمود العقاد .

وحوكم الأستاذ الصحفى الـكبير محمد توفيق دياب .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وحوكم الأستاذ الصحفى الكبير محمد التابعى .

كما حوكم الأساتذة أحمد شفيق وحسين شفيق ومحمود رمزى نظيم والأستاذ عبد الحليم محمود على (وهو الآن من كبار رجال الأعمال) وغيرهم عشرات .

وكان المحامون دائماً بجانبهم فى التحقيقات وفى المحاكم .

وكان من هؤلاء المحامين الأساتذة مكرم عبيد ويوسف الجندى وصبرى أبو علم وزهير صبرى ومحمود غنام ومحمد صلاح الدين وحسن النحاس ورافع محمد رافع وعبد الحليم رافع ، ومحمد شوكت التونى .

وظل هؤلاء المحامون يدافعون عن المتهمين طوال سنوات حكم صدقى باشا وعبد الفتاح يحيى باشا إلى وزارة نسيم باشا الأخيرة .

ثم نشأت قضايا عمال العنابر الأبطال وقضايا الطلبة .. طلبة الجامعة المصرية والجامعة الأزهرية .

وفى الأرياف كان المحامون فى كل بلد يقفون بجانب المتهمين الثائرين على الحكم المطلق .

ثم قضية القنابل التى كان متهماً فيها الدكتور نجيب اسكندر وآخرين بأنهم تآمروا على القتل وإلقاء القنابل وكان بطل الجاسوسية فيها إبراهيم الفلاح . وفيها ظهرت طائفة من نوابغ المحامين غير من سبق ذكرهم أمثال الأستاذ لطفى جمعه ومحمد عرفه ومحمد أمين عامر .

وفى هذه القضية تصادم المحامون مع محكمة الجنايات برياسة المرحوم محمد نور بك وانسحبوا فأحيلوا على التأديب وترافع عنهم المرحوم مرقس فهمى بك وكانت مرافعته ومذكراته مثلاً أعلا للأدب القضائى .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

قضية القنابل الثانية :

ثم ظهرت قضيـة القنابل الثانية التى كان متهماً فيها عبد القادر بك مختار وآخرين بأنهم تآمروا على قتل بعض الشخصيات وإلقاء القنابل وتدمير المنشآت وترافع عنهم من ذكرنا وكذلك محمد على علوبة باشا .

الشروع فى قتل صدقى باشا :

واتهم محمد طه أبو زيد بمحاولة قتل صدقى باشا ولـكن المحامين لم يتخلوا عنه فى حين تخلى عنه والده وتبرأ منه نفاقاً ورياءً .

قضية الخطابات المزورة :

نشرت الصحف خطابات حكومية تدل على سوء الإدارة المصرية وارتكابها الجرائم ، فاتهمت الحـكومة صحيفة البلاغ وتحمل المسؤلية الأستاذ المرحوم عزيز ميرهم المحامى ومن كبار المجاهدين .

وترافع عنه المحامون الذين ذكرناهم . وكان يرأس المحـكمة القاضى العظيم الذى كان مثلاً أعلا للانسان ذى الخلق القويم محمود غالب باشا — وقضى فيها بالبراءة وحكم فيها على شاهد الإثبات بالعقوبة .

قضية نزاهة الحـكم :

نسب إلى صدقى باشا وإبراهيم فهمى كريم وزير الأشغال أموراً تمس نزاهة الحـكم لاتصالها بالمقاولين دانمارو وأحمد عبود باشا ونشرت السياسـة والبلاغ وغيرهما من الصحف هذه الاتهامات ورأت النيابة تقديم المرحومين حفنى محمود ومحمد حسين هيكل للمحاكمة وترافع عنهما الهلباوى بك وعلوبة باشا وكامل البندارى . وكانت مرافعاتهم من القوة والشجاعة بحيث هزت الرأى العام الذى لم يأبه بعد ذلك لحكم الغرامة الذى قضت به المحـكمة .

دار المحامي للإصدارات القانونية
المحاماة علم وفن وعمل
تأسست في ٢٠١٨

قضايا أخرى :

منها قضايا الطلبة ثورة ١٩٣٥ . وقد وقف المحامون جميعاً من مختلف الأحزاب يدافعون عن الطلبة دفاعاً حاراً مجيداً .

وانتهى الأمر بعقد معاهدة ١٩٣٦ وتولى الوفد برئاسة النحاس (باشا) الحكم وسار فترة سيرة طيبة ثم بدأت روح فاشية تسرى فى الوفد وثار الطلبة وثار الشعب .. وقبض على كثيرين فوجدوا المحامين بجانبهم يدافعون عنهم .

ثم أقيل النحاس باشا وجاء عهد آخر . حكم فيه محمد محمود باشا وحسن صبرى وعلى ماهر وحسين سرى . . وثار الشعب ووقف المحامون بجانب الثوار فى محاكماتهم .

الحرب العالمية الثانية :

ثم قامت الحرب العالمية الثانية وازدحمت مصر بالجيوش من بلاد العالم المختلفة . ووقعت حوادث . واتهامات . ثم فرضت قوانين التموين والتسعيرة وغيرها من القوانين التى رأى المشرع أنها لازمة للأمن . وشكلت المحاكم العسكرية فى ظل الأحكام العسكرية .

وكثرت الاتهامات . وزاد المتهمون . ووقف المحامون يدافعون عن التهم الباطلة والإجراءات التعسفية .

ثورة الجامعة :

يتميز الزمن بين ١٩٤٠ ، ١٩٥٢ بقيام ثورة فكرية فى الجامعة المصرية التى سميت بعد ذلك جامعة فؤاد الأول ثم جامعة القاهرة وفى جامعة فاروق التى سميت جامعة الأسكندرية ثم جامعة ابراهيم التى سميت جامعة عين شمس .

وانقلبت الثورة الفكرية إلى ثورة محطمة .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وقد برزت تيارات مختلفة فى هذا الوقت فقويت جماعة الأخوان المسلمين واعتنق كثير من الشبان المبـادىء الشيوعية . وتحزب آخرون لمختلف الأحزاب السياسية فى مصر .

وكانت هذه الثورة التى تشكلت ألواناً وصوراً وتقطعت على الزمن حوادث متقاربة أو متباعدة تعبر عن كبت الحريات . وضيق الصدور بالاحتلال العسكرى . وتبرم الشعب بويلات الحرب .

وسيق الطلاب والعمال وآخرون من طبقات الشعب المختلفة إلى السجون . وإلى ساحات المحاكم .

وتزاحم المحامون — بمختلف آراءهم وعقائدهم ومذاهبهم السياسية — على منصة الدفاع يرفعون أصواتهم بالحق . فيطلبون العدل ويثورون على الظلم .

ووقعت حوادث قتل هامة وخطيرة .

قتل حكمدار العاصمة .

قتل أمين عثمان باشا وزير المالية .

قتل ماهر

وقتل النقراشى

وشرع فى قتل ابراهيم عبد الهادى .

وألقيت القنابل على الآمنين .

واستنـكر الناس هذه الجرائم . وكرهوا مرتكبيها .

ولـكن هؤلاء القاتلين وجدوا من المحامين نفراً كريماً يتطوع للدفاع عنهم فى الموقف النـكد .

وقامت الثورة فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ :

وحوكم أشخاص كان الشعب يكره بعضهم . ويختلف الناس فى بعضهم .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ويؤازر بعضهم طبقات من الشعب ولـكنهم جميعاً وجدوا من يدافع عنهم أمام محاكم الشعب ومحاكم الثورة فى الوقت الذى حسب الناس أن الثورة تضيق بالدفاع عن هؤلاء . ولـكن الثورة لم تضيق ذرعاً بالمحامين . ولا برمت بموقفهم

انها صفحات مجد وفخار للمحاماة والمحامين ٠

وجب على أن أذكرها ٠ وأثبتها فى هذا الكتاب لعلها تجد من يخلدها فى كتاب خاص تسطر لها صفحاته الخلود والمجد ٠٠ ثم الشكر من أمة عارفة بالجميل ٠

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

علم المحامى

إن المحامى بغير علم كساع إلى الهيجاء بغير سلاح .

إنه سلاحه الذى بغيره لا يعمل . ولا ينتج ولا يظفر ولا ينفع .

وهو السلاح الأول فى الحياة اليوم .. وقبل اليوم . وسبحان « الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

والعلم الذى يتطلبه فن المحاماة من المحامى علم واسع لا يقتصر على فرع واحد هو علم القانون وإنما يتعداه إلى فروع أخرى متعددة متنوعة منه .

وإننى لأتمثل الآن أفراداً عديدين من القضاة والمحامين كانوا فى غزارة المحيط فى علم القانون ثم فشلوا سواء فى القضاء أو المحاماة ذلك لأنهم كانوا على علم بالقانون وليسوا على علم بالعلوم الأخرى التى تتصل بالحياة مع أن فن القضاء وفن المحاماة موضوعهما الحياة : أحداثها . وأشخاصها . وعلاقات الحوادث بالأشخاص ومعاملات الناس بعضهم ببعض .

والمعاملات تتصل بكل فروع الحياة . وتستلزم الإلمام بأكبر عدد ممكن من العلوم .

ويخطىء من يظن أنه على عاتق الخبراء الفنيين يقع عبء إمداد القضاة والمحامين بالمعلومات اللازمة لكل قضية . هذا خطأ فاحش ويقع فيه كثير من أفذاذ المحامين والقضاة . لأن المحامى هو الذى يصور الدعوى فإن لم يكن يفهمها فهماً دقيقاً فإن تصويره يكون قاصراً ويكون تعبيره — أى دفاعه — عبثاً ولهواً . والقاضى هو الذى يفصل بين زعمين أو بين حقين فإن لم يكن قد فهم موضوع الحقين كان حكمه أبتر . مشوهاً لا يمت للحقيقة بصلة أو نسب .

وقديماً قال عمر بن الخطاب من وصيته المشهورة للقضاة « الفهم... الفهم... » .

حضرت مرة قضية — فى صدر شبابى — أمام محكمة الاستئناف . وكان موضوعها زراعة وتوريد قصب السكر . ولاحظت أن المحامى — خصمى —

دار المحامي للإصدارات القانونية
المحاماة علم وفن وعمل
تأسست في ٢٠١٨

وأعضاء هيئة المحكمة لا يعرفون جميعاً شيئاً عن القصب من حيث زراعته ولا توريده وحلا لشيطان شبابى أن يعبث —وأنا ربيب زراعة القصب— فقمت وألقيت محاضرة فنية . منمقة ، منطقية عن زراعة القصب وتوريده وصناعته وكانت مبنية على المغالطة .. وارتج على المحامى خصمى وارتبك وأخذ يقول جزافاً خليطاً من معلومات لا صلة لها بالموضوع وأدرك المستشارون أننى أقول حقاً وأن زميلى غير مدرك للموضوع .. فحكموا لمصلحتى .. !

ولا زلت نادماً على ما فعلت .. وإن كنت أفدت منها تجربة انتفعت منها طوال مدة عملى .. وذلك أننى لما وجدت قضايا التزوير كثيرة وافرة . كما وجدت أن القضاة يعتمدون على تقارير الخبراء . ووجدت أيضاً أن كثيرين من الخبراء لا يضيرهم أن ينحرفوا عن الحقيقة لقاء أى شىء : مقابل مال أو نتيجة مجاملة ! وكم ضاعت حقوق بسبب أحكام صدرت على أساس تقارير مثل هؤلاء المنحرفين أو الجاهلين المتعالمين !

عكفت أدرس كل ما كتب عن التزوير سواء باللغة العربية — كمؤلفات الأستاذ هواوينى — أو باللغة الإنجليزية أو باللغة الفرنسية . وكنت أجتهد فى حضور عمليات المضاهاة مع الأستاذ محمد على سعودى . وهو أشهر خبير خطوط ظهر فى مصر — وإن كانت له أخطاء هو الآخر — وصرت أطبق ما تعلمته على تقارير الخبراء وكنت أناقشها ... وكثيراً ما انتصرت على هذه التقارير .

ووكلت مرة فى قضية كان من أهم أركانها الفصل فى حقيقة آثار مصرية قديمة . وقال عالم كبير إنها كنوز سليمان . . وقال عالم كبير آخر من أشهر علماء الآثار إنها لا تساوى قروشاً !

وحاولت أن أدرس علم الآثار !

ووجدت أننى غارق فى بحر لجى لا ساحل له . ولما أعددت المراجع وجدت ألف كتاب باللغات الأجنبية وليس من كتاب باللغة العربية .

وعجزت فاقتصرت على دراسة طريقة معرفة عصور الآثار . . وقد نجحت وطبقتها على موضوع القضية .. فإذا بكنوز سليمان عبارة عن فخار وشقف مما يوجد على سطح الأرض فى كل قرية مصرية !

وقضى بالبراءة على أساس العلم القليل الذى تعلمته . . ولا زلت أذكر مناقشتى للعالم الكبير وكيف كنت أضيق عليه الخناق فيصرخ :

« و إيش عرفك بالآثار . . ده علم واسع عليك » .

ومن العجيب أننى حزت إعجاب المحكمة أكثر ما حازها العالم الكبير !

واضطررت فى قضية سينمائية إلى دراسة كل ما يتعلق بصناعة السينما .

وعرضت قضية بين مقاول كهرباء وشركة كهربائية كبيرة . وتقدمت أكثر من عشر تقارير من علماء الكهرباء . وقصدت إلى أحد أقاربى وكان أستاذ الكهرباء فى كلية الهندسة . . وقلت له :

« علمنى الكهرباء »

فضحك ضحكاً لا زلت أذكره إلى الآن ...

ورددت على ضحكه قائلاً :

« لست هازلاً . . فإننى تلميذ مخلص مطيع . . إعطنى المبادىء » .

واخترت منه عشرين درساً فى الكهرباء .

ثم عرضت عليه موضوع القضية وأخذت — على أساس المبادىء التى تعلمتها — أناقشه فى كل صغيرة وكبيرة .

ثم وقفت بعدها أترافع وأناقش تقارير الخبراء مرجعاً مناقشتى إلى مصادر علمية .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ولا زلت أذكر أحد أساتذة الكهرباء وكان حاضراً جلسة المرافعة .. حين أمسك بذراعي وأنا خارج من غرفة الجلسة قائلاً « اللي كتب لك الكلام ده أستاذ بارع . . يا ترى دفعت كم ؟ » .

واعتبرت من هذه العبارة إنني نجحت ! وإن كانت القضية قد انتهت صلحاً لعجز المحكمة عن فهمها !

واحتدمت مرة المناقشة بيني وبين أحد الخبراء المنتدبين — وكان موظفاً كبيراً جداً في وزارة الأشغال — حول موضوع خلط البنزين (بالسبرتو) وقد أكد للمحكمة أن هذا غير معروف علمياً . . وعندئذ أبرزت له قوانين صدرت في بلجيكا وغيرها من بلدان أوروبا تنظم طريقة خلط البنزين بالكحول لإدارة الآلات !

وفي قضية قتل بالسم اضطررت للسهر شهراً وأنا أقرأ عن السموم وعن الثعابين والعقارب . . . وانتهيت إلى أن المجني عليه قد توفي من لدغة ثعبان لأن السم في الدم لا في الأمعاء . . . وكان الأطباء الشرعيين مبهورين من معلوماتي .

وجاءني قاض عزيز عليّ يقول :

« أمامي قضية تتعلق بأعضاء جسم المرأة . . . وقد تخبطت تقارير كبار أطباء أمراض النساء . . . فماذا أعمل ؟

« هل أستدعي طبيباً أجنبياً كبيراً له مؤلف عظيم في هذا الموضوع ؟ » .

ورددت عليه :

« بل ادرس علم أمراض النساء » !

وضحك أيضاً . . وانصرف . . وبعد أيام رأيته قد اشترى عدداً من الكتب التي تبحث في هذا العلم وأخذ يستعمل التليفون يستفسر من زملائه الأطباء عن معنى كثير من الاصطلاحات الطبية .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ثم أصدر حكماً كان موضع إعجاب المحامين من الطرفين !

وجاءنى بعدها يقول :

« يا رب لا تعرض علىّ قضية خاصة بالذرّة أحسن تنصحنى بدراسة الذرة خصوصاً وأن إينشتين مات » !

وصحبت مرة أحد الخبراء الكبار المشهورين فى معاينة أرض زراعية كانت موضع خلاف بين شخصيتين كبيرتين وكان البنك العقارى طرفاً فيها . . وكان الخلاف على عدة فدادين ومنازل وحديقة وأخذ الخبير يطبق الحدود على الخريطة فإذا الحدود تغيرت معالمها والخرائط تغيرت . فلما عجز لم يبدى عجزه ولكنه أخذ يعالج الأمر بطريقة هندسية وأكثر من استعمال المصطلحات الهندسية الفنية . وسكت . ثم عدت إلى دارى وحصلت على بعض كتب فى الهندسة المساحية وأخذت أدرسها . . وعدت السنين القهقرى وذاكرت النظريات الهندسية وحفظتها عن ظهر قلب . ثم اجتمعنا للمناقشة . . وأخذت أناقشه وأخطؤه . . . حتى اعترف بأن الطريقة الهندسية عقيمة ويجب إجراء المعاينة من جديد . . . وحضرنا المعاينة وقدم تقريراً خاطئاً . . . استطعت أن أخطئه أمام المحكمة واعتقد أن القضية لم تنتهى إلى الآن رغم مرور أكثر من خمس عشر سنة !

من هذا خرجت بنتيجة لا أعتقد أنها موضع مناقشة وهى أنه يجب على المحامى أن يدرس علوماً كثيرة :

علم القانون .

الأدب .

اللغات .

علم الاجتماع .

علم النفس .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

علم الجنس .

علم الزراعة .

علم الاقتصاد والمحاسبة .

علم الطب الشرعى .

علوم الموسيقى . والسينما . والتصوير .

وغيرها مما يعترضه فى حياته العملية كالهندسة . هندسة المساحة والمبانى والكهرباء والطيران والآثار . والخطوط . والتاريخ والجغرافية والاقتصاد .. الخ .

وليس معنى هذا أن يستحضر المحامى كتب هذه العلوم جميعها وينكب عليها يدرسها ويحفظها ! فهذا عبث . . ولا طائل تحته وإنما يعد نفسه . ويهيء مجهوده لدراسة كل ما يتعلق بموضوع قضيته . ولا يعتمد على الخبراء ولا تقارير الفنيين فإنه عندئذ يكون كالآلة تعمل صماء من غير تفكير ولا تعبير .

ولكن هناك علوماً يجب أن يداوم المحامى درسها ، كالقانون . فإن ما تعلمه فى الكلية — كما قلنا ونكرر القول — ليس إلا مبادىء عامة وعلى المحامى أن يتوسع بتخصيص أوقات معينة لقراءة كل مؤلف جديد فى كل فرع جديد من فروع القانون سواء باللغة العربية فى مصر أو البلاد العربية أو فى البلاد الأوربية والأمريكية .

ثم يغتنم فرصة كل قضية فيدرس ما يتعلق بها من القانون دراسة وافية تشمل كل ما كتب عنها من جديد أو قديم . . . وإنى أؤكد له أنه سيجد دائماً جديداً . وأن أفقه سيتسع . وأنه بعد مضى سنوات سيكون مستعداً لتعرف كل موضوع فى كل مرجع .

ويؤسفنى أن أقرر أنه لا غنى للمحامى — ولا القاضى بالمؤلفات العربية فى

القانون عن المؤلفات الأجنبية . . فإن المؤلفات القانونية العربيـة أغلبها رسائل دكتوراه أو مذكرات وضعت للطلاب . وليست موسوعات تحصى كل كبيرة وصغيرة .

ومما يؤسف له أن الاعتماد على هـذه المراجع العربية قد هبط بمستوى مذكرات المحامين . وأسباب الأحكام .

ولعل مرد ذلك إلى ضعف الأجيال الأخيرة فى اللغتين الفرنسية والانجليزية.

وإنه من نافلة القول أن نقرر أن من أهم ما يعين المحامى — أو القاضى — هو إتقان هاتين اللغتين .

إن الكليات بدراستها الحالية تفقد الطالب ما تعلمه منهما فى المدارس الثانوية . وعلى طالب الحقوق أن يداوم الدرس والقراءة فى هاتين اللغتين طوال مدة دراسته — ولا ينفك بعد تخرجه يداوم الدراسة أيضاً وحسبه أن يتقنهما فى عشر سنوات عند ما يكون لم يتجاوز السابعة والعشرين إذا فرضنا أنه التحق بالجامعة فى سن السابعة عشر .

ولا زلت أذكر حين التحقنا بالجامعة المصرية فى أول افتتاحها فى سنة ١٩٢٥ وكيف ألقيت علينا المحاضرات باللغة الفرنسية حتى أنه كانت تلقى علينا محاضرات عن أصل اشتقاق اللغة العربية .. باللغة الفرنسية وكان يلقيها — الأستاذ الإيطالى كازانوفا — ولا زلت أذكر كيف أضربنا . وصرخنا وضربنا الأرض بأرجلنا .. ثم يأسنا وانصرف كل منا إلى مدرس فرنسى وآخر انجليزى . وكانت النتيجة فى آخر العام أن الطلبة الذين درسوا اللغة الفرنسية سنتين فى التعليم الثانوى قد تفوقوا على خريجى مدارس الفرير والجزويت !

ولا زلت أيضاً أذكر بالاحترام والتقدير أحد كبار رجال القضاء الوطنى عندما عين قاضياً بالمحاكم المختلطة كيف حمل كراريسه وكتبه إلى مدرسة برليتس . وبدأ يدرس كطالب صغير .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أيها الطالب الحقوق :

إن إجازة الليسانس التى ستحملها لا توازى قروشاً بغير إتقان لغة أجنبية على الأقل !

فحاول أن تجعلها تساوى الكثير وادرس الفرنسية والإنجليزية . .

وأنت أيها المحامى :

لم يفت الوقت إبداً كطالب صغير وادرس اللغات من جديد . واعتصم بقوة الإرادة والصبر .

إن سعد زغلول تعلم الفرنسية وهو فى الأربعين . ودرس الألمانية وهو فى الخمسين ودرس الإنجليزية وهو فى الستين .

وعباس العقاد الكاتب العظيم درس الإنجليزية وحده ودرس الفرنسية وهو فى الأربعين . .

وطه حسين درس الفرنسية بعد أن نال إجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية.

وزكى مبارك الأديب المعروف — رحمه الله — درس الفرنسية ... فى مدرسة بجوار الأزهر . .

ولى قريب درس الفرنسية فى الحقل ... ثم التحق وهو فى الثلاثين بمدرسة الحقوق الفرنسية ونال إجازتها وانتقل من الحقل إلى سكرتير كلية الحقوق .

منذ عام واحد نصحت محامياً شاباً أن يدرس الفرنسية فى مدرسة الليسيه الليلية فداوم على ذلك بضعة أشهر ثم تقدم لامتحان وزارة الخارجية وفاز نتيجة دراسته أشهر ! و بدأ مستقبله الذى أرجو أن يكون باهراً . .

* * *

أما علم الاجتماع Sociologie فهو علم المجتمع الذى يعيش فيه المحامى . ويتفاعل معه و ينفعل بأحاسيسه ويدافع عن حوادثه وأفراده . ولعله من نافلة القول أن نقرر أن دراسة هذا العلم توجد رابطة بين المحامى و بين المجتمع وأن

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

إهمال دراسته تجعل الرابطة بينهما مقطوعة وكأنه يعيش غريباً عنه اللهم إلا مايربطه به من سبب العيش فيه ونتيجة للغرائز والفطرة .

الأدب :

إن الأدب هو أسمى مراتب التفكير والإحساس والشعور والخيال ثم التعبير عن هذا كله تعبيراً صحيحاً . سلياً . مقبولاً . سائغاً . مطرباً . معجباً .

ولما كان الإنسان عبارة عن تفكير و إحساس وخيال ثم تعبير .

ولا يحسبن أحد أن الأدب عبارة عن كلمات وسطور وكتب تقرأ . وتحفظ وتكرر .

إنما الأدب تفكير وتصور . و إحساس وشعور . وخيال وانفعال قبل أن يكون لغة تقرأ أو ينطق بها اللسان . فأنت إذا قرأت قصة لكاتب كبير . أو قرأت قصيدة لشاعر مبدع . لا تحس فقط بالمتعة واللذة الروحية و إنما تنفعل بها فتفكر فيها . وتفكر فيما عسى أن تتداعى به خواطرك .

دخلت مرة على أمير الشعراء أحمد شوقى فى كرمة ابن هانىء فوجدت بيده صحيفة مصرية إقليمية . فضحكت وقلت له « أيضيع أمير الشعراء وقته الثمين الذى يوزن بأغلا النفائس فى قراءة مثل هذه الصحيفة ؟ » .

فنظر إلىّ بعينيه الرجراجتين وقال بصوته الخفيف الهامس :

« لقد تعودت أن أستفيد مما أقرأ إن لم يكن بما تضمنه فعلى الأقل بما يثيره من تداعى خواطرى وخيالى » .

و إنها لحكمة حقاً . خالدة يقيناً . إذ أن من أهم ما يفيده العقل من القراءة غير الانتفاع بالمعلومات التى توسع مداركه ومعارفه هو ما تثيره فيه من تفكير . و إحساس . وما يتداعى بها من آراء وأفكار .

فالأدب صور من الحياة . والحياة واسعة على عينيك . مترامية على أذنيك .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فيها خفاء عن أحاسيسك وشعورك . فهذه الصورة التى يسطرها غيرك تعطى لك عيوناً أكثر . وآذاناً أوفر وتكشف لك عما استسر عليك من أحداث وانفعالات وأحاسيس . . وتقدم لك بلداناً لم ترها . وأشخاصاً لم تقابلهم . وأحاديث لم لم تسمع بها من قبل .

والأدب بعد ذلك كله . بعد هذا النفع الجزيل . وهذه اللذات والمتع الروحانية يمدك بمحصول وافر من العبارات والألفاظ التى تتطابق ومقتضى الحال .

إن أى إنسان يستطيع أن يتحدث عن المرأة العاهرة بأنها عاهرة . أو مومس ولكن واحداً فقط عبر عن هؤلاء أجمل وأرق تعبير حين قال أناتول فرانس «لسن متزوجات . ولسن عذارى ».

ومن اليسر على أى محام أن يذكر خصمه بأنه نصاب مخادع . محتال يسعى لاغتيال حقوق الناس .

ولكنه عسير عليه أن يقول مثلا : « إن خصمى —أرشده الله— قد ملك عليه حب المال كل سبيل فسلك إليه أى سبيل ! » .

إن جمال التعبير هو الذى يميز بين قائل و بين قائل . و يعلى من قدر متكلم . و ينيل الخطيب بغيته إذ يملك لا الآذان فقط و إنما قلوب السامعين و يأسر ألبابهم و يسيطر على نفوسهم .

أما التعبير العادى أو سوء التعبير . . فهو الذى يقذف بالأحجار والشتائم والسخط على كثير من الخطباء والمتكلمين والكاتبين ، ولعل أشمل وأجمع وصف لما نحاول أن نشرحه هو التعبير القديم القائل :

« إن من البيان لسحراً » .

أى أن بعض ما تتحدث به شفتان و يلقيه لسان ليفعل فى السامع فعل السحر فهو يسكره و ينتشى منه . و يجعله يغيب عن عالم إلى عالم آخر من المتعة واللذة والراحة .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وليس هناك إنسان أكثر من المحامى حاجة إلى سحر التعبير . وعفته . ومهذبه . مع أداء المعنى الكامل . فإنه بالتعبير الجميل الساحر يأسر القاضى . ويقيد أذنيه وقلبه وعقله قيد لسانه . وهو يؤثر فى زميله المحامى . وفى خصمه . وفى موكله وفى الجماهير . .

وإن أنسى لا أنسى ما سمعته من أحد أقاربى الذين أنفقوا أيامهم وأموالهم فى التقاضى إذ قال « والله إن صوت المحامى فى أذنى أحب إلىّ من نغمات العود والكمان » !

وإن إدمان قراءة الأدب وتحصيل المحامى لوافر من الكلمات والعبارات لا تؤثر فقط فى سامعيه وتقربه من النجاح وإنما تمنع عنه شر التردد . والفأفأة . والتأتأة . وتقطيع الجمل انتظاراً لكلمة يعبر عنها أو عبارة تؤدى المعنى . وهذا ما يحدث غالباً بين المحامين الذين سلبوا ميزة الطلاقة وذلاقة اللسان .

قد يكون المحامى يبغى معنى فتقلب الكلمة التى بحث وراء غيرها فلم تسعفه فنطقها للحاجة أو انفلتت منه .. قد تقلب المعنى وتغم عليه الأمر .

وإن المحامى المتمكن من أدب الكلام يشعر باعتزاز ووثوق . تجده منطلقاً هادئاً . أما العىّ المحصور فإن أعصابه تتأثر دائماً بعجزه عن التعبير فهو يثور ويسرع به الغضب . ويضطر إلى التكرار حتى يملّ . كما يضطر رغماً عنه إلى استعمال يديه رافعاً وخافضاً ومطوّحاً شمالا ويميناً . وإلى استعمال عينيه وحاجبيه . وقسمات وجهه وفمه .. بل إلى استعمال جسده مائلا معوجاً متقدماً . . متأخراً . . ذلك لأن ما فى أعماقه يود أن ينطلق لكن آلة التعبير عاجزة معطلة !

تحذير لابد منه :

أظننى فى حاجة إلى التنبيه والتحذير من الخلط بين محاولة التقعر فى أسلوب المرافعة وبين النثر الفنى الرائق السلس... إن الأول صنعة جافية عن الذوق . أما الثانى

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ففن وطبع وصناعة . وهو الذى قيل فيه إنه « كلام يدخل الآذان بلا استئذان» يجد فيه السمع والفؤاد راحة .

أما محاولة الإلقاء بشكل تمثيلى و بألفاظ عربية فصحى فليس من الأدب فى شىء ولـكنه تقعر وتنطع ينفر السامعين ويشرد بالآذان والأذهان بعيداً عن الهدف المقصود .

وأعرف محامين يتكلمون باللغة العربية الفصحى ثم يأتون إلى غرفة المحامين فيعيدون المرافعة على أسماعنا — وذلك دليل الإعجاب بأنفسهم . والغرور بما يصنعون — ولو علموا أنهم سخرية السامعين سواء فى الجلسة أم فى غرفة المحامين لـكفوا أنفسهم شر السخرية .

إن مجاراة الطبع ، وترك الطبيعة على سجيتها خير من الافتعال والاصطناع .

ولقد يترافع المحامى باللغة العامية فى بعض الإحيان ولـكنه يكون فناناً وساحراً .

وخير المرافعات هى التى لا يحاول المحامى فيها أن يلتزم العاميـة إطلاقاً ولا الفصحى إطلاقاً ولـكنه على طبيعته وسجيته يوائم بين المعنى والعبارة ، فإن كانت العبارة تؤدى المعنى أداء موسيقياً لطيفاً وهى عامية فلا بأس من استعمالها و إن كانت الفصحى تؤديه فأنعم وأكرم .

وهم شائع :

أتى ردح من الزمن كان الأدب والتبريز فيه من مفاخر المحـامى . وكان القاضى الأديب موضع التقدير والإعجاب .

ثم جاء وقت أصبح فيـه المحامى يُعيّر بأنه أديب وإذا أريد أن ينتقص من قدر القاضى نسب إليـه أنه أديب ! ولعل سبب تغير نظرة أهل العصر الأخير إلى الأدب هو :

أولا — انصراف بعض المحامين إلى الصحافة أو الأدب كفن آخر يرتزق

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

منه فأصبح لا هو محامى ولا هو أديب . ومن هذا الفشل شاع سوء الظن بالمحامى الأديب .

ثانياً — لأن بعض القضاة كانوا يتقعرون فى أسلوبهم بشكل جعلهم هدفاً لتندر القارئين بأدبهم ومن هنا بدأ انتقاص أقدار القضاة الأدباء .

ثالثاً — لأن الجهل قد فشا وأصبحت العناية بالأسلوب و بالأدب عيباً إذ أقبل القراء على الصحف والمجلات الأسبوعية والكتب الرخيصة التى تثير الغرائز الجنسية وما أظننى أقول عجباً إذا قررت أن الجيل الحاضر بأكمله وهم دون ثلاثين لا يعرفون مؤلفات العقاد وطه حسين والمازنى ومحمد السباعى والشاعر شكرى والمنفلوطى والزيات و إبراهيم هلال والبشرى وأدهم وأحمد أمين ومصطفى عبدالرازق ولطفى السيد ولطفى جمعة وغيرهم من القدامى ولا يعرفون من شعر شوقى وحافظ إلا ما حفظوه فى المدارس أو ما تغنيه أم كلثوم ! ..

بل إننى أقرر — والأسف ملء جوانحى — أنهم يسخرون من أسلوب طه حسين والعقاد . حتى لأحسب أن جيلنا أصبح غريباً عن هذا الجيل مع أننا لازلنا فى منتصف العمر . إذ كيف أوفق بين إعجابى الذى لا حد له بأسلوب العقاد وطه حسين والمازنى و بين استنكار هؤلاء له ؟ !

أما أعلام الأدب القديم .. الجاحظ وابن المقفع والشريف الرضى وغيرهم من الكتاب . والمتنبى والبحترى وابن الرومى والمعرى .. الخ إلى آخر هؤلاء الشعراء الخالدين . فهؤلاء أسماؤهم عبارة عن نكت ! وألغاز ومعميّات ! بالنسبة للجيل الحديث .

رحم الله زماناً كان يحبس الواحد منا نفسه لكى يحفظ ديوان شعر بأكمله!

بل رحم الله أياماً تملكنا العار لأن زملاءنا ورفاقنا من طلاب الأزهر كانوا يحفظون ألفية ابن مالك فحفظناها لكيلا نكون أقل منهم مرتبة فى العلم !

على المحامى أن يقرأ من الأدب العالمى . . الأدب العربى والأدب المصرى

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الحديث وأدب الشام سوريا ولبنان والعراق وشمال أفريقيا . والأدب الأوربى والأدب الهندى والروسى والإيرانى .

يقرأ دائماً المجلات الراقية بالفرنسية والانجليزية — سواء كانت انجليزية أو أمريكية — وإن استطاع أن يقرأ بلغات أخرى ليقرأ . . إنه سيجد عسراً بادىء الأمر ولكنه سيجد لذة ومتعة لا تعادلها لذات الجسد ومتعة الغرائز .

ليقرأ وليعلم أنه يدخر فإذا انطلق مترافعاً واتته العبارات . وتدافعت الألفاظ والجمل . وانساب الكلام كالنهر المتدفق . أو كالينبوع المنبثق .

وإن أراد أن يكتب مذكرة وضعها فى قالب جميل محبب إلى القارىء لا مملول ولا مرذول .

وليعلم أن الحق فى حاجة دائمة لأن يقدم فى إطار جميل وأن يزوّق بثوب نظيف رائق يسر الناظرين . وأن أى حق مهما كان واضحاً إن تقدم صاحبه فى ثوب خلق أو فى إطار حقير كان ذلك أدعى للنفور منه . وقد ينتهى به الأمر إلى الضياع . فإن الذين يقضون فى الحقوق بشرٌ يتأثرون بالجمال وينفرون من القبح . ويستطيبون العذوبة . ويبغضون الجفوة والخشونة .

وأحسب أن كثيراً من القراء . . من المحامين سيقولون هروباً من المشقة التى أدعوهم إليها . وتسللا بعيداً عن نطاق الإخلاص الذى أناشدهم التعلق به . . سيقولون هذا كلام خيالى غير عملى . . على الأقل « أين الوقت ؟ » الذى يتسع للقضايا والمكتب والمحكمة ؟ !

نعم إن الوقت متوفر . . والاعتراض مرفوض .

وحسب المحامى أن يجرب أن ينظم وقته فلا يضيعه فى المحكمة تسكعاً ولا فى المكتب ثرثرة مع الزبائن ولا فى المقاهى تسلية رخيصة . ويحدد مواعيد مقابلاته . ثم يمتنع عن اللهو ستة أيام فى الأسبوع . ويجانب المقاهى . . وبعد ذلك ليقل لى هل هناك وقت أم لا ؟ !

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

العلوم الأخرى :

قلنا إن المحامى فى حاجة إلى دراسة كل ما يعترضه فى عمله متصلاً بأى علم من العلوم . وقلنا إن هناك علوماً يجب أن يدرسها سواء كانت قد اعترضته أم لا . كالقانون والأدب وعلم الاجتماع . ونزيد الآن الطب الشرعى .

الطب الشرعى :

ومن تحصيل الحاصل أن ندلل على أهمية هذا العلم فى القضايا الجنائية .

ويكفى للتدليل على ذلك أن نقرر أنه قد يتوقف مصير روح إنسانية على حقيقة طبية معينة .

فمثلاً .. كان المجنى عليه قد وجد قتيلاً فى زراعة أحد الأعيان . وكان بينهما خصومات . . وتألبت الأدلة على المتهم . . الخصومة ثابتة . الدافع على ارتكاب الجريمة موجود . الجثة فى حقله . وجد مع الجثة قطعة من ثوب المتهم . ووجد ثوب المتهم ممزقاً تمزيقاً يوائم المزقة التى وجدت بجانب الجثة .

وكانت القضية مغلقة . . . ووالد المتهم يبكى ويؤكد أنه برىء .

وقرأ المحامى المعاينة . وتقرير الطب الشرعى فوقعت عينه ووجدانه وعقله على ظاهرة غريبة . . . لم يكن بمكان الجثة أثر دماء مع أنه مصاب بأعيرة نارية مزقت أحشاءه وبجرح طويل نافذ من سكين منزوعة . . . فأين ذهبت الدماء ؟

قد يكون النزيف فعلا داخلياً أى داخل الجثة . ولكن الطب الشرعى لم يثبت وجود هذه الدماء . وكتب الطب الشرعى تقول إن جروح الأعيرة النارية والسكين المنزوعة يكون نزيفها خارجياً . . .

كما أن المحامى قد وجد أنه ليس فى مكان الجثة أثر لحركات المجنى عليه وهو ينزع النزع الأخير . والمعروف طبياً أن القتيل قد يحفر حفرة بيديه إذا لم تكن الإصابة فى القلب أو المخ .

دار المحامي للإصدارات القانونية
المحاماة علم وفن وعمل
تأسست في ٢٠١٨

وكتم المحامى ملاحظاته ثم أوحى له ما ثار فى نفسه من شك شكاً آخر فى الثوب وما تمزق منه . وطلب من المحكمة « يوم المحاكمة » الحرز الذى يحتفظ فيه بالثوب والقطعة المطابقة . . .

وفى سخرية سمحت المحكمة بفض الحرز ... فوجد عجباً : وجد أن التمزيق مستوى الأطراف فهو مقصوص بمقص أو مقطوع بموس حلاقة . . والمفروض أن المزقة قد انتزعها القتيل جذباً من ثوب المتهم بعد إصابته فلا بد أن تكون غير متساوية الأطراف . . .

وتقدم المحامى بهذا الدفاع الذى أفاده به علم الطب الشرعى ودراسته له . . وبُرىء المتهم البرىء !

والأمثلة على ذلك لا حصر لها . وكلها تفيد أن التعمق فى دراسة الطب الشرعى من خير الوسائل التى يتذرع بها المحامى فى دفاعه . والقاضى فى أحكامه .

ومما يذكر أن كتب الطب الشرعى المنشورة باللغة العربية لا تزال تسرد المبادىء التى سردت منذ خمسين سنة بينما استطاعوا فى أمريكا التوصل إلى معرفة الجناة من أثر إطار السيارة إذ عرفوا عمر وماركة السيارة وموديلها . . . ثم أصحابها . . !

* * *

علم النفس :

علم النفس علم قديم حديث . فقد عرفه الأقدمون أمثال أفلاطون وأرسطو . وكان نوعاً من الفلسفة التى كانت تشمل علوماً كثيرة فى العصور القديمة والوسطى ومنها علم الفلك وعلم الطبيعة والكيميا . هذه العلوم التى انفصلت عن الفلسفة (الأم) فيما بين القرنين السادس والسابع عشر وظل علم النفس متعلقاً بأمه الفلسفة حتى القرن التاسع عشر .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وقد تعرض فلاسفة العرب لعلم النفس أمثال ابن سينا وابن رشد والفارابى وابن القيم الجوزيه ولكن بصور فلسفية .

وإنما يرجع الفضل فى كشفه كعلم مستقل إلى العلماء الألمان الذين كانوا يتفقهون ويتعمقون فى علوم التشريح والأحياء أمثال هنريك ريبر وجوستاف تيودور فينخنر وهرمان ڤون هيلمهولتز وإدوارد هيرنج . ولذلك صح ما يقال إنه « حيث انتهى علماء التشريح بدأ علماء النفس » .

وبالتحديد ولد علم النفس كعلم مستقل بين سنتى ١٨٨٠ ، ١٨٩٠ ومن وقتها أصبح هذا العلم أخطر العلوم اتصالا بالإنسان فالطب وعلم التشريح والكيمياء تتعلق بماديات الجنس وعلم النفس يتعلق بالعواطف والوجدانات والسلوك والأخلاق . . . بالنفس والوجدان والشعور والإحساس .

وأنشئت له كراسى الأستاذية بالجامعات . وصنفت فيه الكتب وضرب فيه بسهوم غاية فى الإبداع والابتداع . ومنحت فيه الإجازات الدراسية العالية .

ثم انشق عنه علم الإجرام بعد أن كان أبحاثاً وآراء ومبادىء لا تخضع لموازين علمية دقيقة .

ثم أصبح علم النفس متسع الآفاق فى الناحية العاطفية والناحية الجنسية . وفى علم الاجتماع . وأخيراً فى الحياة اليومية . ثم أصبح ركناً أساسياً من أركان القضاء من حيث المتهم والشاهد والقاضى والمحامى ووكيل النيابة والمحقق والمترافع ورجل البوليس ورجال السجون .

وأصبح علم النفس فى جلسة المحاكمة من أهم ما يدرّس ويدرس ويبحث ويلقن . . . **(ومع ذلك فان علم النفس هذا لا يزال واقفا عند الأبواب الخارجية لدور المحاكم فى مصر . لا يدرسه المحامون ولا القضاة ولا وكلاء النيابة .. ولا تطبقه الأحكام ، ولا تستسيغ سماعه الآذان سواء بالنسبة للمتهم أو بالنسبة للشاهد !)** .

دار المحامي للإصدارات القانونية
المحاماة علم وفن وعمل
تأسست في ٢٠١٨

وأذكر أننى درست علم النفس فى كلية الآداب عند إنشائها على يد أستاذ جليل من جامعة السربون — مسيو لالاند — وأغرمت به وظللت أقرأ فيه وعنه إلى وقتنا هذا ... وبدأت أدرس علم الإجرام Criminologie بتوسع مع زميلى وصديقى الدكتور العالم السعيد مصطفى السعيد سنة ١٩٣٠ عندما كنا زميلين فى النيابة العمومية .

ومع ذلك لم أستطع أن أجعل له أثراً إلا فى مكتبى أما فى المحكمة فلم يسمح لى القضاء إلا نادراً أن أتحدث عنه أو أفيد منه .

وأذكر أننى كنت أترافع أمام محكمة الجنايات سنة ١٩٣٢ فى قضية جناية عاطفية و بدأت أتحدث عن نظريات علم النفس التى تخضع لها القضية و إذا برئيس الجلسة وكان رجلاً مؤدباً لبقاً يبتسم ابتسامة الهزء والسخرية ويقول : « خلينا فى موضوع القضية يا أستاذ » ! ولم أستطع — من باب الحياء — أن أقول له إن هذا هو موضوع القضية ! وحاولت جاهداً أن أحاور وأراوغ لكى أُسمع المستشارين ولكنهم اعتبروا أننى أتهرب من موضوع القضية . واننى أتفلسف .

وأذكر مرة أخرى أننى وكلت عن متهم موظف ببنى سويف شرع فى قتل شخص لا تربطه به رابطة ولا سابق معرفة ومن ثم ولا سابق ضغينة وقد سيطر على المحكمة رأى بأن الدافع أسباب نسوية فإن زوجة المجنى عليه كانت جميلة وكان المجنى عليه والمتهم جارين .

وحاولت أن أطبق علم النفس . . . ففشلت فشلا كان مثار السخرية والضحك .

و بعد سنوات طلبت منى إحدى المجلات الأسبوعية أن ألقى إليها بصفحة عن جريمة ترافعت فيها فكتبت هذه القضية . و إذا بالأستاذ الجليل محمد فتحى المستشار السابق وأستاذ علم النفس بالدراسات العليا بالجامعات المصرية ينبرى متحدثاً عن هذه الجريمة فى أربع مقالات فى جريدة المصرى اليومية وكل مقالة منها شغلت صفحتين كاملتين .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وكانت القضية نموذجاً لعقدة أوديب . وقد نشرتها فى كتاب « فى موكب الخاطئين » الذى يظهر بعد هذا الكتاب .

وعند نشر هذه المقالات فقط أدركت أننى لم أخطىء وأنا أترافع وأننى لم أكن لأستحق السخرية والزراية بدفاعى .

ثم أننى وقفت مرة فى مجلس النواب أطلب تعيين إخصائى نفسى فى كل سجن وكل إصلاحية للأحداث وإذا بأعضاء مجلس النواب — وكانت أرائى دائماً موضع تقديرهم واحترامهم — يضجون من مبالغتى فيما طلبت وكان على رأسهم دكتور فى القانون ! ولو أن مدير السجون عندئذ جاملنى ووضع فى الميزانية درجة لطبيب نفسى فى سجن مصر .

إن المحامى والقاضى ووكيل النيابة فى حاجة إلى التعمق فى دراسة علم النفس بجميع فروعه . علم النفس التجريبى . والتحليلى . وعلم النفس الإجرامى . وعلم النفس الاجتماعى .

وإنى أقولها بصراحة أنه أولى بالمحامى الذى لايعرف علم النفس أن يبحث له عن عمل آخر .

إن أول ما يتلقاه المحامى من صاحب الدعوى — جنائية كانت أو مدنية أو إدارية — وهو قادم إليه أشياء كثيرة فى رأسه وقلبه ونفسه وعلى لسانه . والوقوف على حقائق القضية يستدعى حتما دراسة الموكل أولا .

والمحامى مقصر فى حق نفسه وحق موكله وحق العدالة إن جعل من نفسه « صوت سيده » يأخذ ما يقوله الموكل ثم يودعه ملف الدعوى . فذلك أكبر الخطر .. يجب أولا أن يعرف الحقيقة . وعندئذ إن كان موكله على باطل وجب أن يرده بالنصيحة أو يوجهه الوجهة التى تفيده فليس أظلم من المحامى الذى يعين ظالماً على ظلمه فهو عندئذ تاجر يتاجر بمظالم الناس . هذا من الناحية المدنية أما من الناحية الجنائية فأمر آخر نتناوله فيما بعد .

و إن كان على حق وجب أن يعرف الحق كاملا ليستعد لمعركة الحق والباطل إذ أن الباطل عادة يكون قد أعد سلاحه خير إعداد وقد يكون صاحب الدعوى عاجز التفكير . عاجز النطق . ولكن بعلم النفس وحده تستطيع أن تزيل عجزه .

وقد يكون صاحب الدعوى مخدوعاً فى حقه . وأغلب أصحاب الدعاوى يتوهمون أموراً تثبت فى رؤوسهم على مر الأيام حقائق ويسيرون فى ظلها مؤمنين بها .

و بعلم النفس وحده تستطيع أن تعرف الحقيقة وتعرّفه بالحقيقة .

أما صاحب الدعوى الجنائية فهو إما كاذب أو صادق — وفى أغلب الأحيان يكون كاذباً لأن الكذب سلاح من أسلحة الدفاع عن النفس والدفاع عن النفس غريزة من غرائز الإنسان . فهو معذور إن كذب خصوصاً و إن الكذب قد يبدأ بوهم يظل يتضخم حتى يصبح فى رأى صاحبه حقيقة .

و إن كان كاذباً وهو مجترىء مرتكب وجب أن تصل إلى أسباب ارتكابه ودفين دائه فقد تصل من هذا الطريق إلى إقناع القضاء بأنه ضحية تعالج بالرفق .

و إن كان صادقاً وجب أن تحارب من أجله حر باً لا هوادة فيها .

والمتهم بجريمة يجب دائماً أن يجد من يقف بجواره .

وقد كنت فى حياتى العملية أمتنع عن قبول المرافعة فى القضايا التى يكون فيها المجرم واضح الجرم . ولكننى اكتشفت أخيراً بتجاربى أن كل متهم بعد ارتكابه جريمته يكون ضحية هذا الجرم سواء بسواء كالمجنى عليه . فإن تأنيب الضمير وعذاب السجن والقلق على المصير وانقطاعه عن الحرية وعن عائلته وأولاده كلها رزايا و بلايا . ومن كان فى مثل هذا الموقف النكد وجب أن يقف بجواره المحامى لعله يستطيع أن يخفف من عقوبته . فإن لم يخفف فيكفيه أن كان لمدة ما موضع الاطمئنان والراحة من نفس المتهم . وحاله حال الشاعر الذى قال :

إن تكن منى تكن أحسن المنى و إلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

إن الأمل آخر ما يتعزى به البائس . فليكن المحامى هو هذا الأمل مع البائس المتهم .

وعلم النفس مع القضاء ألزم . فالقضاة بشر فيهم الذكى وفيهم قليل الذكاء . وفيهم الغضوب . وفيهم الهادىء . وفيهم العصبى المزاج وفيهم الدموى المزاج . وفيهم المتوتر الأعصاب وفيهم المتراخى الأعصاب وفيهم الذى يرى العقوبة انتقاماً وفيهم الذى يراها زجراً وعظة وفيهم الذى يطبق القانون دون الرحمة . وفيهم من ينزع إلى الرحمة رغم أنف القانون .

وحين يواجه المحامى قضاته يجب أن يعرف من أى لون هم .

كنت إذا حضرت جلسة من الجلسات المدنية أو الجنائية ويحرضنى زملائى على طلب قضيتى أعتذر لهم إذ قد لا يكون لى سابقة معرفة بالقضاة وفى فترة جلوسى أستطيع أن أدرك أى لون هم هؤلاء القضاة وعندئذ أوجه لهم الحديث بما يجعل التفاهم طيباً وهادئاً و يجعلنى أقرب إليهم من ناحية الراحة إلى الاستماع إلىّ.

وسيأتى بحث هذه العلوم وآثارها متتابعاً فى هذا الكتاب .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

خلق المحـــامى

إن المحامى كإنسان يعيش فى مجتمع راق . ويؤدى خدمة تكاد تكون عامة . وله رسالة سامية فى فن رفيع سام يجب أن يكون على خلق عظيم .

والخلق مبادىء متفق عليها . كأن يكون الإنسان صادقاً . مهذباً ودوداً لا يرتكب إثماً . وأن يكون واسع الصدر مؤثراً غير أنانى . كريماً سخياً . . . إلى آخر ما اصطلح عليه المجتمع من سجايا وشمائل .

وإنه لمن نافلة القول أن نسرد الصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها الإنسان فقد سبقتنى الكتب السموية وأحاديث الأنبياء وأمثالهم . كما سبقنى الشعراء والكتاب والفلاسفة والعلماء .

ولكننى أريد أن أسرد صفاتاً يجب أن تبرز فى حياة المحامى وأعتقد أنها بالإضافة إلى ألوان الأخلاق الأخرى كفيلة بتوفيقه فى فنه وهى النبالة . والأمانة . والشجاعة . والانفعال الصادق .

شجاعة المحامى:

إذا كان الإنسان يتميز عن باقى المخلوقات بالعقل :

فإن الإنسان يتميز عن غيره من الناس بالعلم .

ويتميز المتعلم عن غيره من المتعلمين بالثقافة .

فإذا تساوى مثقفان حكمت بينهما صفة هامة .. هى صفة الشجاعة .

وشجاعة الرأى أسمى ألوان الشجاعة . فإن الجندى الذى يحارب . والقائد الذى يقود المعركة قد تكون شجاعتهما اندفاع اليائس أو المضطر أو الذى لا اختيار له . ولكن الرجل المنفرد الذى يواجه العالم برأيه . والذى يقف بمبادئه وحده

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فى وجه شعب بأكمله . ويحابه الظالمين . والحاكمين القادرين المستبدين بظلمهم ويحارب طغيانهم بقلمه أو لسانه . . .

إنه شجاع وليس يائساً ولا مضطراً .

وهو مختار لموقفه .

وشجاعته أساسها إيمانه بفكرته .

ويعرف أن نتيجتها التضحية .

ويدرك أن هدفها سعادة الآخرين .

ولقد حارب الأنبياء والرسل الأوهام والخرافات والضلالات . كما حاربوا القوى المسلحة . والطغيان المسعور والحاكمين المستبدين . . بالقول . . وشجاعة الرأى .

ويوم وقف موسى فى وجه فرعون مصر . . لم يكن يملك رمحاً ولا سيفاً .

ويوم أعلن عيسى بن مريم دعوته . . واليهود والرومان يذبحون أتباعه . ويتبعون خطاه للظفر به كان عاطل الكف من رمح ومن سيف .

ويوم وقف محمد يعلن قريشاً والعرب كافة بأن أصنامهم أحجار وأوهام . وأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر وثارت عليه قريش بالأذى وعلى أتباعه بالضرب والتعذيب والإحراق ... وقف يحاربهم سنوات طويلة بشجاعة رأيه .

كذلك كان حال قادة الرأى والفكر والفلسفة الذين ظلوا ينقلون خطوة المدنية من ظلام الجهل إلى نور العلم واليقين . ومن ظلم الاستبداد إلى أفياء الحرية والنعيم ... كان سلاحهم شجاعة الرأى . والاستعداد للتضحية وبذل النفس ...

وفى علم النفس الاجتماعى الحديث تعتبر من مقومات الشخصية صفة شجاعة الرأى .

وليس أحوج لشجاعة الرأى من المحامى لأنه يكافح الظلم ويجاهد الطغيان

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

— طغيان الباطل — ويدافع عن حق . ويظاهر عدلا . والحق والعدل دائماً مضطهدان منكران لأن الحياة صفتاها عدل وظلم ...

ولقد كانت المحاماة — على مرّ التاريخ — من الفنون التى ناصر أصحابها الحرية : حرية الأفراد . وحرية الشعوب . وهم الذين قادوا الحركات الثورية .

وعندما يطالع القارىء الصفحات التى أثبتناها من تاريخ مصر الحديث يستطيع أن يدرك أثر المحامين فى مكافحة الاستعمار البريطانى . ومناهضة طغيان عائلة محمد على . وفى قيام ثورة ١٩١٩ وما تلاها من ثورات مستمرة حتى تسلم الجيش قيادة الثورة .

ويستطيع متتبع صفحات التاريخ أن يدرك كيف كانت شجاعة المحامين فى مهاجمة المستعمرين والحاكمين دون خوف . وبين جدران المحاكم كأصوات النواقيس دُقت للحرية . فأسمعت الصم . وأيقظت النائمين . وأوحت بالشجاعة للجبناء والمترددين لا فى مصر وحدها ولكن فى الشرق بأجمعه .

ويستطيع الذى يمعن النظر فيما قلناه سابقاً فى هذا الكتاب من أن شجاعة المحامين فى محاكم صعيد مصر وريفها وشمالها مناصرين للفلاحين المستضعفين وصغار العمال البائسين قد ثبت الشجاعة فى نفوس هؤلاء الذين كانوا يضربون بالسياط بلا سبب . ويعتبرون ضربهم بالسياط شرفاً ! فتمردوا على جلاديهم ورفعوا هاماتهم وفؤوسهم وبنادقهم وخناجرهم فى وجوه الطاغين المستبدين .

إن شجاعة المحامين أيقظت أمماً . وأثارت شعوباً . وخلقت وعياً . وأنبتت أشجار الحرية باسقة ثابتة ولم يصبها الزمن ولا المستبد إلا بالخدوش . والجروح التى لا تلبث أن تلتئم .

وشجاعة الرأى على مدى الأيام هى عنصر خلود وبقاء .

وليس أدل على ذلك من موقف إميل زولا فى دفاعه عن الضابط دريفوس . لم يكن إميل زولا محامياً . ولكنه كان كاتباً عظيماً « من الخالدين » ومع ذلك

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فقد اتخذ موقف الدفاع بشجاعة خلدته أكثر ما خلدته كتبه وخلده فنه وأدبه . ولو أنك اليوم سألت أحداً من المثقفين أن يذكر لك شيئاً عن زولا لبادر إلى ذكر موقفه من قضية دريفوس ... ولعله لا يعرف سوى ذلك . فإن كان يعرف فقد قدمه على كل أعماله وتآليفه الخالدة ...

* * *

وشجاعة المحامى ليست سهلة دائماً . بل إنها عسر ليس فيه يسر فقد يتعرض لغضب القادرين و بطش الطغاة . فشجاعته فى مواجهة الظالمين تستلزم منه خلقاً قوياً . و إيماناً أكيداً وثيقاً . بل تستلزم منه شجاعة أمام نفسه . فقد يكون ضعيف الجسد عليلاً . وقد يكون فقيراً . وقد يكون ذا عيال .. وعليه أن يتسلح بالشجاعة أمام نفسه . فإذا غلبها على خوفها وتقديرها للمصير . وأقنعها بحلاوة التضحية . وعذوبة الفداء تقدم لمواجهة الباطل بسلاحه وشكته .

إن شجاعة المحامى ميدانها — بعد نفسه — أمام صاحب الدعوى فإنّ عليه أن يواجهه بالحقيقة سافرة . و إن فى هذا الأمر لمشقة — و إن حسب بعض الناس أنه هين سهل .

فإننى أعرف محامياً كان يباشر قضايا لرجل ثرى . كبير النفوذ فى المجتمع والسياسة والاقتصاد . وكان هذا الثرى بخيلاً . كاذباً . مخادعاً يهوى أكل حقوق الناس باطلاً وظلماً .

وكان المحامى — عندئذ — فقيراً فى حاجة إلى ما ينال من مال الثرى الكبير .. وكان بطبيعته شجاع الرأى فكان يرد تصرفات هذا الثرى إلى الحق فإن بخل نصحه بالسخاء . و إن كذب صوّبه نحو الصدق . و إن خادع وخاتل فتح له باب الأمانة . و إن حاول أكل الناس بالباطل بصّره بالحق وعواقب الظلم ...

وضاق به الثرى . ونصحه وأفهمه مهمته وهى أن يضع تصرفاته فى القالب القانونى فقط .. فرد عليه المحامى قائلاً « أتعنى أنك إن سرقت بررت لك السرقة

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

و إن خنت حللت الخيانة أمانة . و إن ظلمت وضعت الظلم فى إطـار من الحق والعدل ؟ » .

« نعم هذا هو المطلوب من المحامى » !

فأجابه

« أى أنك تريد أن تشترى ذمتى ودينى وخلقى بمالك ؟

« كل الناس يفعلون ذلك !

« ولـكننى لن أفعله . . إن قبلتنى ملاكاً يطارد شـياطين نفسك فأنا ملاكك أما إن شئت أن تجعلنى شيطانك القانونى .. فالله الغنى !

« مع السلامة » !

وكان هذا الحديث نهاية العلاقة بينهما .

وأعرف أن هذا المحامى قد لقى مشقة كبيرة فى التضحية بمبلغ ضخم من المال يأتيه مقدراً فى تواريخ مقدرة .

ومع ذلك فإننى أعرف أنه لم ينـدم . بل إنه كان فرحان جذلان . . لقد كان سعيداً بانتصاره بشجاعته وخلقه على مال الثرى الـكبير و إغرائه .

وأعرف محامياً شاباً وكّله بعض الفقراء البائسين فى قضية موضوعها اغتصاب الملك فؤاد لأراضٍ ومبان موقوفة عليهم . مع انعدام الصـلة بينهم و بين الملك فؤاد . وقد رفع المحامى الدعوى ووجه الاتهامات إلى الملك و إلى إدارة الخاصـة الملـكية سنوات رغم جميع التهديدات . وكافة الإغراءات المفهومة المعهودة .

ثم تابع دعواه ضد الملك الملك فاروق — وكان قد كبر سناً وقدراً ورشح للوزارة مرات .. وكانت هذه القضية هى الحائل بينه و بين منصب الوزارة .. حتى جاءت الثورة وفاز المحامى بقضيته .. وأعرف أنه لم يندم على أنه لم يصبح وزيراً ولم يأس على تضحيته . .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وأعرف محامياً كان عضواً فى حزب سياسى . وكانت خصومته بين حزبه و بين حزب آخر . واضطهد الحزبُ الذى هو فى الحكم الحزبَ الآخر . وكان المحامى يدافع عن المغلوبين على أمرهم . المضطهدين والمعذبين . والمسجونين منهم وغضب رئيس حزبه واستدعاه مؤنباً قائلا :

« ألا تعرف أنك عضو فى حزب سياسى ؟

« أعرف

« أتعرف أنك عضو مرموق .. وأن حزبك يجاهد لتعيينك وزيراً ؟

« أعرف

« وهل تعرف أنك بتصرفاتك الحمقاء تفقد مستقبلك وتعرقل مساعينا ؟

« أعرف

« وهل تعرف أنه من خرق الرأى أن تبرز تصرفات حزبك فى صورة الظلم أمام المحاكم ؟

« أعرف

« إذن ما دمت تعرف ذلك كله فلماذا تصنعه ؟ لقد حسبتك غير مدرك لتصرفاتك ؟ !

« أعرفه وأصنعه عامداً لأننى أنصر حقاً على باطل . . ولأننى محام فنان أعرف واجبى .. وهو أن أكافح الظلم أينما كان وأياً كان مصدره . فإن شئت أن تقضى على محاولاتى فأمسك عن الضرب والإهانة والاعتقال ! »

وثار رئيس الحزب وصاح

« وأترك أمور البلاد الفوضى . ! ؟

« لا — بل تقدم الجانى إلى المحكمة !

« لكى يفلت من العقاب بمرافعات أمثالك ؟

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

« إنه القضاء !

« قضاء ضعيف !

« ألغ المحاكم »

وأصر الرجلان كل منهما على رأيه — وكانا صديقين — وكان المحامى يحب رئيس حزبه حباً جماً وقد جعله دائماً مثله الأعلى ، ولكنه تعرض لسخطه ولكراهيته ومقته وفقد الأمل فى الوزارة !

وأعرف مع ذلك أنه كان راضياً ، لم يأس ولم يندم .

شجاعة المحامى فى المحكمة :

بعد شجاعة المحامى أمام نفسه . وأمام موكله . وبعد تقديره لكل ما يناله من تضحيات فى سبيل أداء واجبه ، عليه أن يواجه المحكمة ، والمحكمة عبارة عن قاض أو ثلاث قضاة وثلاثة مستشارين أو خمسة .

والقضاة والمستشارون فى جميع بلاد العالم — و بصرف النظر عن قدسية مناصبهم — هم بشر — فيهم المؤدب وفيهم قاسى اللفظ وفيهم الذكى وفيهم عكسه ، وفيهم التقى الورع وفيهم من تخف عنده تلك المقادير ، وفيهم الشجاع وفيهم من ينجو بحب السلامة عن مواطن الخوف والفزع .

وعلى المحامى أن يواجه هؤلاء بعقلياتهم وطباعهم وأخلاقهم . يواجههم بعلمه ، ومرانه ، وفنه ، ومرونته . . وأيضاً بشجاعته . إنها ليست أصلاً معركة بين المحامى و بين القاضى . ولكنها معركة بين المحامى و بين عقلية القاضى التى يبغى أن يدخل إليها الفهم . و بينه و بين نفسية القاضى يريد أن يقنعها . و بينه و بين مزاجه وطباعه يعمل على إراحتها وجذبها نحوه .

كل هذا يتطلب شجاعة . وخاصة إذا كان القاضى قد كون عقيدة . أو مال به الرأى إلى الجهة العكسية . أو أحس بالخوف . أو مال إلى المجاملة . .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

عندئذ وجب على المحامى أن يعد قوسه ليريش سهم شجاعته . ولا يخشى بطشاً أو بغضاً . أو انفعالا أو غضباً .

وللأسف إن أكثر من يعانى ذلك المحامى الذى يمارس عمله أمام محكمة جزئية أو محكمة كلية أو محكمة جنايات واحدة .. فى الأرياف .

فإن رضاء القاضى وغضبه لهما حساب أكبر حساب فى نجاح المحامى أو فشله . .

وقد درج صغار النفوس من المحامين أن يتربصوا بالقاضى الجديد و يصطنعوا معه أساليب الزلفى وطرائق النفاق ثم يحرصون على إرضائه ولو على حساب الحق. أو بتضحية حقوق العباد .

غير أن كثيرين من المحامين — وعرفت منهم فقراء كثيرين — لا يبالون بسخط القاضى أو رضاءه و يؤدون واجبهم فى طريق مستقيم غير ذى عوج مهما نالهم من السخط وآثار الغضب .

و يقتضينى الإنصاف أن أقرر للحقيقة أن كثيرين من القضاة بعد مرور فترة من الزمن يحسون باحترام المحامى الشجاع واحتقار المحامى المستضعف المتزلف .

وكم حدثنى زملاء من القضاة والمستشارين عن حوادث وقعت بينهم و بين هذين النوعين من المحامين . ولعلنى لم أسمع فى حياتى القضائية قاضياً ساخطاً على محام شجاع أو مثنياً على محام مستضعف .

فرق بين الشجاعة و بين التهور :

ولابدّ من أن ننبه إلى وجوب التفريق بين شجاعة الرأى و بين التهور . والحمق وسرعة الغضب . والتهجم . والصفاقة . والوقاحة .

فرق بين الشجاعة و بين كل هذه الصفات وهذه الطباع .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

بل إن الشجاعة صفة عكسية لهذه الصفات .

ولا يمكن أن يكون الإنسان شجاعاً وهو صفيق أو وقح أو متهجم . فإنه عندئذ لا يكون شجاعاً ولـكنه يكون أحمق أخرق . فإن الشجاع قاهر لنفسه أولا . وقهر النفس مبنى على الإيمان . والمؤمن برسالته وفنه يكون دائماً مؤدباً . واسع الصدر . هادىء الأعصاب . متواضعاً « يغضى حياءً ويُغضى من مهابته » .

أستطرد من هذا إلى تحذير المحامين من هذه الصفات البغيضة . البغيضة إلى القضاة . وإلى الجماهير وإلى الزملاء .

وقد أصبحنا اليوم نرى أن المحامى الذى يمثل لنفسه شخصية يقلدها . يختارها عادة شخصية المحامى المتهجم الوقح . الغضوب الضيق الصدر .

فهو إذا ترافع رفع صوته . وسخر بزميله . وشتم خصمه .

وهو إذا طلب من القاضى طلباً ولم يوافقه على ما طلب احتج بصوت عال . وضرب بيده المنضدة ونطق فى غضب بالعبارات النابية . والـكلمات القاسية المؤلمـة . .

ويحسب كثيرون من هؤلاء أنهم بذلك يفرضون إرادتهم على القضاة . وأنهم يرضون الجماهير . ويظنون أن الجماهير تتوارد وتتوافد على المحامى نـكير الصوت . الذى يغضب ويصرخ ويعتدى على القضاة وعلى زملاءه . وهذا وهم باطل . إنه ظن خائب . بل إنه الفشل : الفشل الذريع الذى لا يرجّى لصاحبه فلاحاً .

وإننى لأسائل هؤلاء هل يحب أحدكم من أخيه أو من إبنه أو حتى من أبيه أو من صديقه أن يصرخ فى وجهه أو أن يسبه أو يعتدى عليه إذا خاطبه أو جادله ؟

وإنى لأسأله لو أنه رأى هذا المنظر فى الطريق بين اثنين من السوقى هل يرتاح إليه ويرضى عنه ؟

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

لا شك أن المحامى الصارخ الشتام نكير الصوت المتهجم الضيق الصدر لا يرضى من صديقه أو إبنه أو أبيه أو أخيه أن يعامله بالطريقة التى يعامل بها زميله أو قاضيه فكيف يتصور أن زميله سيرضى وأن القاضى سيتقبل ذلك ؟

بل إنه لا يرضيه إلا أن يكون من يعامله مؤدباً مهـذباً رقيق الصوت واسع الصدر .

وإنها حقاً لفكرة خاطئة أن يظن ظان أن الوقاحة ترهب . وأن الصفاقة تخيف . إنهما إنما تغريان برد الشر . وتثيران السخط وتسببان الاشمئزاز . فهل ترى يهدف المحامى الذى نعنيه إلى هذه النتيجة : أى أن يكون مبغوضاً مكروهاً .

فإن حسب أن الجمهور يخلط بين الشجاعة و بين هذه الصفات الذميمة فهو مخطىء لأن أفراد الجمهور حين يسمعون إنما يسمعون كبشر يغضبهم ما يغضب البشر عامة و يرضيهم ما يرضى الناس كافة .

ولقد جاء هـذا التقليد السخيف وهذا الظن الخاطىء من ظهور بعض شخصيات من المحامين أفلحوا فى إذاعة فكرة التهجم والوقاحة عنهم . فتدفق عليهم فى غفلة الزمن طبقة من السوقى والمجرمين وسفلة القوم فراج سوقهم وما كان ليروج . ولكن أحداً من المثقفين أو المتعلمين لم يقصد إلى هذه المكاتب إلا فى حالة واحدة : إذا أراد أحدهم أن ينال من خصمه فى جلسة المرافعة دون أن يكون قصده كسب حق أو فوز بمطلب مضيع . و بذلك أصبح المحامى الشتام المتهجم عبارة عن «بلطجى» يُستأجر لكى يضرب بلسانه فيسيل الدماء و يصرع الخصوم ! وإنها لمنزلة دنيا لا يحسد الواحد منهم حتى نفسه عليها إن لم يجد من يحسده عليها .

ولقد اشتهر عن هؤلاء الذين نقصدهم مقت رجال القضاء وكراهية زملاءهم وتندر أصحاب الدعاوى عليهم حتى الذين يقصدونهم لأغراض فى نفوسهم . حتى كسدت تجارتهم و بارت بضاعتهم و باءوا بالخسران المبين .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ولا أحسب أن أحداً من المحامين يطمع فى هـذه المنزلة . ويهدف إلى هذه النتيجة !

ويقتضينى الإنصاف للتاريخ والحق أن أقرر أننى طالما ترددت على دور المحاكم المختلطة فكنت أرى عجباً وأسمع طرباً . فقد كانت أواصر الزمالة وثيقة العرى بين المحامين . كما كان الاحترام والتقدير متبادلين بين القضاة وبين المحامين . ولعل من أندر الحوادث أن وقعت مشادة بين قاض وبين محام .

وإن أنسى لا أنسى أننى لم أسمع فى هذه الدور البائدة لغواً ولا تأثيماً . بل كانت كأنها المحراب المقدس أو المسجد الذى يملؤه خشوع المصلين .

يا ليتنا كسبنا شيئاً من هذه الأخلاق !

إننى اليوم لا ألعنها لأنها مثلت حيناً ذل المصرى فى بلاده . ولكننى ألعنها لأننا لم نستطع أن نستفيد من التقاليد التى كانت سائدة بين جدرانها .

* * *

كما يقتضينى الإنصاف أن أقرر للحقيقة والتاريخ وأن أقفى بعد ذكر المحاكم المختلطة بما رأيته وسمعته فى المحاكم الشرعية الملغاة . وقد اشتغلت أمامها أكثر من عشرين عاماً .. لقد كانت مسرحاً لتبادل الكلمات القاسية والعبارات النابية . وكان يندر أن تمر قضية واحدة دون مشادة بين المحامى وبين القاضى . أو بين المحامى وزميله . أو بين المحامى وبين خصمه . أو بين الخصمين !

ولكم كنت أسائل نفسى هل هؤلاء هم الذين تأدبوا بأدب الإسلام الذى نهى عن الفحش والسب والغمز واللمز . واستنكر الصوت الصارخ . والذى أمر بحسن المعاملة وأدب الحديث وأدب الزيارة وأدب المعاملة ؟ !

وبعد ذلك أرى لزاماً علىّ للحق أيضاً وللتاريخ أن أقرر أن فن المحاماة لوطنية (أو الأهلية) كما كانت تسمى سار زمناً طويلاً على حسن العلاقة .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ومارس أدب المناقشة ، وأدب المرافعة فى سموّ كان يتطور دائماً من حسن إلى أحسن . وكانت علاقة المحامين بالقضاة من أحسن العلاقات كما كانت علاقة المحامين بعضهم ببعض علاقة أخوة . ومودة . ومحبة .

وإن أنسى ما أنسى اجتماعات غرفة المحامين بمحكمة مصر — بميدان باب الخلق — وما كان يجرى فيها من أحاديث ومناقشات لم تخرج أبداً عن مناقشات الزملاء الأحباء . ولقد كانت تفرق بينهم أيامئذ خصومات سياسية حادة . ومع ذلك لم يقع بينهم حادث مكدر أو اعتداء مستنكر . بل إنهم كانوا يمثلون فيها عائلة محترمة يوقر فيها الصغيرُ الكبير . ويحب الكبيرُ الصغير . وينصحه ويهديه . ويحب الزملاء كل منهم لزميله ما يحب لنفسه ! .

عهد انقضى ...

وزمن انطوى ...

أجد من واجبى وقد عشت فى هذه الغرفة أطول أيام العمر وأجمله أن أبعث إلى هذه الأيام الزاهرة الباهرة تحية من قلبى . وأحسب أنها تحيـة من قلب كل محام عاصر هذا الزمن .

ثم أستطرد إلى ذكر محامى العشر سنوات الأخيرة . وهم خريجو كليات الحقوق فى الخمس عشر سنة الأخيرة . وهؤلاء قضوا فترة فى الجامعات من أسوأ أيام مصر فى تاريخها كله .

فقد عانت مصر من قيام الحرب العالمية الثانية الويلات . تضخمت ماليتها حتى أصبح الغلاء فيها لا يطاق .

واجتمع فى مدنها وقراها جماهير من جنود أهل الأرض كلها . وتصادمت السياسات المختلفة . وحكم الانجليز واضطُهد الوطنيون . ووضعت القوانين المقيدة للحريات المختلفة . وطغا الملك السابق وانتشرت الرشوة وفشا الفسـاد فى جميع المرافق الحـكومية والشعبية . وأظلمت الأنوار ورخص للدعارة علناً .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وكان من أثر هذا كله أن تحملت أعصاب الناس فى مصر أكثر مما تطيق وأصبح الحمل ثقيلاً يؤود حمله كاهل أى شعب فما بالكم بشعب مصر الذى لم يكن بعد قد تذوق إلا القليل من الحرية بعد الثورة والاضطهاد .

وكان من أثر تلف أعصاب الناس أن ثار شباب مصر ثورة حطمت كل شىء . . ضرب طلاب الجامعة بعضهم بعضاً بالعصى والسياط . وأطلقوا النيران . وألقوا القنابل . واعتدوا على أساتذتهم . ثم تخرجوا وحملوا معهم أعصابهم التالفة . وأخلاقهم الثائرة . والموازين المختلة التى توزن بها أقدار الناس خسفاً . حملوا هذا كله إلى المحاكم فتميزت عندئذ المحاماة بسوء العلاقة بين الزملاء بعضهم ببعض . وبسوء العلاقة بينهم وبين رجال القضاء والنيابة . وزاد الطين بلة أنهم رأوا ازدحاماً فى سبيل الرزق فتقاتلوا ولم يتعاونوا . وتحاربوا ولم يتسابقوا .

وغاضت المودة بين الزملاء . واتسم جو المحاكم بطابع من آثار المعارك . واختفت الحياة الضاحكة الباسمة من مقاعد المحامين .

ولهذا السبب أكثر من أى سبب آخر فكرت فى تأليف هذا الكتاب .

فإلى محامى العشر سنوات الأخيرة ألفت النظر إلى صدق نصائحى وإخلاصى بما أثبت فى هذه الصفحات . فإننى أكتبها وقد تمتعت بالمحاماة ثمانية وعشرين عاماً . لذة . وفناً . ونضالا . ومالا . ولم يعد لى مطمع فيها إلا أن ترقى — هى المحاماة — لا أنا فقد عرفت نصيبى منها وقنعت به وحمدت الله عليه ألف ألف حمد .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

شجاعة المحامى أمام خصمه :

إن للمحامى خصماً فى كل قضية .

و بعدد قضاياه يكون عدد خصومه .

وهؤلاء الخصوم منهم القوى ومنهم الضعيف ، والغنى والفقير . وصاحب النفوذ والسطوة والذى لا سلطان له ولا حيلة . وفيهم أيضاً الشرير والخيّر . والغضوب والحليم .

وإنه ليواجه هؤلاء جميعاً بما لا يرضيهم سواء كانوا منصفين أو غير منصفين . فإن المنصف يعتبر المحامى معتدياً على حقه . والمبطل يعتبر المحامى عقبة كأداء فى سبيل تحقيق أطماعه .

ومما يذكر للمحامين المصريين بالفخر أنهم لم يتهيبوا فى القضايا العامة أو ذات الألوان السياسية بطش حاكم ولا تنكيل مستبد . ولا سطوة طاغية . وإنما هاجموا كل مارد وحاربوا كل جبار بقلوب لا تعرف الخوف .

ولكن الذى يستوجب الفخر أكثر إن المحامين فى ريف مصر لم يقيموا وزناً لسلطان رجال الإدارة والبوليس فى زمن كان هؤلاء أكف المحتلين وسواعد الطغاة المستبدين يأمرونهم بالظلم ويحمون جرائمهم . وكان المحامون لهؤلاء بالمرصاد وفى سبيل نصرة أضعف أهل الأرض : أولئك الفلاحين المستضعفين .

وكان رجال البوليس والإدارة عند الظن بهم لا يتورعون عن محاولة الإيقاع بالمحامين ، وتعطيل مصالحهم ، والتنكيل بهم أو بأهليهم . ومع ذلك فقد صمدوا ، وثبتوا ، وكانوا مثلا رائعاً للشجاعة والإقدام . وعدم المبالاة بالثمن الذى يدفعونه أو التضحية التى يقدمونها .

كما يذكر لهم بالفخر أنهم فى المناطق النائية من صعيد مصر كانوا يترافعون فى القضايا الجنائية ضد قوم ذوى عصبيات وارتكاب الجرائم فى تقديرهم لا قيمة

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

له ولا حساب عنه . ومع ذلك فقد أدوا واجبهم دون خوف أو فزع . ولم يثنهم عن أداء هذا الواجب توقى النتائج ولا النجاة بأعمارهم .

وقد حدثنى محام فاضل أنه دعى للمرافعة فى عاصمة من كبرى مديريات الصعيد ، وكان له صهر موظف فى هذه المديرية . وكان موكلوه قوماً ضعافاً يعيشون على رفرف أملاك خصومهم الأشداء الفاتكين . وعز على هؤلاء أن يحضر محام من القاهرة لإثبات التهمة ضدهم فبيتوا النية على الاعتداء عليه ، وألقى بخبر هذه النية فى أذن قريبه . وفزع هذا القريب وسارع إلى « سعادة » المدير ورجاه أن يحمى قريبه المحامى الكبير وفزع المدير وسارع يطلب المحامى ويحذره ويرسم له خطة حمايته وهى تتلخص فى مرافقة ضابط بوليس له حتى فى غرفة النوم ! ووضع طابوراً من العساكر على باب غرفته فى الفندق على أن يرافق هؤلاء جميعاً المحامى فى ذهابه إلى المحكمة وفى قاعة الجلسة وعند إيابه منها إلى أن يركب القطار ثم بعد ركوب القطار إلى عاصمة المديرية التالية .

وضحك المحامى الكبير وشكر للمدير اهتمامه ورجاه أن يعفيه من هذه الحماية لأنها لو تمت لكانت بمثابة قتله سواء بسواء . ولكن المدير — وكان يعرف بطش أولئك الخصوم — أفهمه أنه هو المسئول عن حياته وأن بقاءه فى المديرية بل فى وظيفته مرهون بوقوع مثل هذه الجريمة وخاصة بعد أن علم بأنبائها ورجّح وقوعها . وحاول المحامى ... ولكنه كان يضرب فى حديد بارد ويخدش صفحة صخور صماء . فترك المديرية وسارع إلى حمل متاعه إلى فندق آخر . ثم تركه بعد أن أودع متاعه فيه وقصد إلى مكتب زميل له صحبه إلى نادى العاصمة حيث كان يجتمع عادة عدد من أفراد عائلة خصومه . ثم تركه بعد حين مترددا على كل مقهى فى العاصمة وانتهى به وبزميله المدهوش الذى لا يعرف لهذا التنقل من سبب إلى .. بقعة المومسات وكان كثير من أشرار عائلة خصومة تكاد تكون هذه البقعة مقراً لهم ومستقراً لجرائمهم ... وشرِبا وصرخا ، وعربدا .

وتسامع خصومه بما قامت به المديرية من احتياطات . . فشلت كلها لهروب

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الضحية . كما تسامعوا بما قام به المحامى الكبير من إعلان عن نفسه فى كل مكان فى العاصمة . وكان ذلك بمثابة تحدى لهم . .

وفى الصباح كان المدير يكاد يموت هلعاً . وقد قامت المديرية على ساقيها تبحث عن المحامى ولا سبيل إلى العثور عليه إذ أنه بعد أن أمضى أغلب الليل فى الأماكن التى عددناها قصد إلى منزل زميله . وفى الصباح استقل عربة حنطور وكشف غطاءها وقصد إلى المحكمة ومعه زميله الذى أطلعه أخيراً على الحقيقة فتحمس لموقفه . . وفى المحكمة انهال بلسانه على خصومه فأذاقهم نكالا ، وأسال جراحهم ثم بقى إلى آخر الجلسة . إلى أن سمع صدور الأحكام وكان بعضها يقضى بالأشغال الشاقة المؤبدة . ثم قصد إلى المحطة فى عربة حنطور مكشوفة الغطاء . وفى المحطة وجد زعيم هذه العائلة ينتظره لكى يعتذر له عما بيع ، ويكذّب ما بلغه ، ويؤكد له أنه موضع الاحترام والتقدير .

وكان ذلك نتيجة الشجاعة الفائقة التى أبداها المحامى .

إلى هؤلاء العظام من الرعيل الرائد الذين وضعوا مبادىء الشجاعة ، وصانوها ، وكرموها ، ثم تركوها تحفاً . ومشقاً ومُثلاً عليا . . نبعث بتحية من أعماق قلوبنا : تحية التقدير والإجلال .

ولعل خير تحية يبعث بها الجيل الحالى من المحامين إلى أولئك الراحلين الخالدين هى أن ينهجوا نهجهم ويحتذوا مثالهم ، فيصونوا صفة الشجاعة ويكرموها ، ثم يورثوها لمن بعدهم تحفة ومشقاً ومثلا أعلا .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أمانة المحامى

إذا قلت الأمانة قال الناس جميعاً إنها تاج الفضائل ، هم بها مؤمنون . لا يناقشون فى شأنها ولا يمارون .

فإذا استعرضت أعمالهم وجدت قليلا منهم يفعلون .

فهى صفة عرفها الناس . وآمنوا بها بألسنتهم . ولكن الحياة بمادياتها ومغرياتها جعلتهم يتغاضون عنها ويعرضون . ويتعللون — فى انحرافهم — بالأسباب والعلات . قوية كانت أو ضعيفة .

والحياة — حياة الإنسان — عبارة عن صراع بين المُثل العليا — وهى المظهر العالى للأخلاق التى سنتها الشرائع السماوية وأقرتها شرائع الناس وتقاليدهم — وبين الشهوات والمطامع .. — هدفه تحقيق المصالح !

ومن أهم ميادين الصراع بين الأخلاق وبين الشهوات وتحقيق المصالح : الأمانة .

فكل إنسان يعرفها ويؤمن بها ، وهو يتمنى فى سريرته أن يكون أميناً . ولكن الأمانة تجربة قاسية لأن الشهوات والمطامع لها بالمرصاد ، قليل من الناس من يتمسكون بها ويصرعون شهواتهم . والأكثرون تصرعهم الشهوات فتضيع فى صرعتهم الأمانة .

ولقد صدق الله العظيم حين رسم الأمانة كصفة هى أسمى الصفات الطيبة ، وصوّر قوتها وضخامتها ، ثم رثى لبنى الإنسان لأنهم يضعفون عن حملها حين قال سبحانه وتعالى :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) .

ولقد كانت الأمانة هى الصفة الأولى التى أنعم بها الله على نبيه الكريم محمد

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

فى صباه وشبابه ليرفعه بهذه الصفة فى أعين مواطنيه وأهليه حتى إذا ما تهيأ لنزول الرسالة عليه كان كفؤاً لها مقتدراً .

ولذلك صنع محمد صنعاً جميلا فى معاملاته وتجارته حتى أطلق عليه العرب من قريش وسواها لقب « الأمين » فكانت هذه الصفة بمثابة التقدمة من الله إلى عباده الضالين المضلين . المشركين . الغارقين فى المفاسد والآثام . فأجلّوا فى محمد الأمانة ، وسموه بها ، ولقبوه بصفتها .. حتى هؤلاء قدروا الأمانة قدرها !

ولو كانت هناك صفة أجل لأنعم بها الله على محمد اليتيم الفقير الأمى الذى هيأه لحمل رسالة خالدة : تحطم الأوثان التى فى الكعبة والتى فى صدور العرب . وتغير من حالهم ، وتبدل شؤونهم وتقاليدهم ، وتقلب مجتمعهم رأساً على عقب . فكان يصح أن يقال عنه « القوى » أو « الغنى » أو « العالم » . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشهره فى مستهل حياته بمثل هذه الصفات و إنما منحه صفة واحدة قامت عليها قوته فى الدعوة التى زلزلت عقائدهم وتقاليدهم . وراحت تزلزل بالحق والصدق عقائد أهل الأرض وتقاليدهم ، وتدعوهم إلى دين جديد قويم ... تلك هى الأمانة .

ولقد ذكر الله الأمانة فى عشرات المواضع فى القرآن ووصف بها رسله الثلاث فأما عيسى فكان أميناً حتى وهو فى المهد ، وظل أميناً حتى رفع إلى السماء ناجياً من شرور الأرض وقد لعن الله يهوذا « الخائن » وجعله موضع سخط العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما موسى عليه السلام فقال فى شأنه على لسان إحدى بنتى الرجل الصالح اللتين رفق بهما موسى وحنا عليهما ، ورحم الأنوثة الضعيفة فيهما ، وسلك معهما مسلك الرجل العف « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

أما يوسف الصديق — النبى الكريم فقد جعله أميناً على عرض العزيز رغم الإغراء العنيف حتى قارن بين الأمانة وحفظها و بين عذاب السجن فقال « رب إن السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه » .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

حتى إذا ما تكشف خلقه النبيل وأمانته ولى منصباً أول الصفات التى يتصف بها من يتولاه الأمانة إذ جعل وزيراً لمالية مصر فى عهد قحط وهو يقول « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » .

وقال الله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم) وقال تعالى أيضاً (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

أما عن النبى « الأمين » فقـــد أوصى المسلمين بالأمانة فى أحاديث لا عداد لها .

عن أنس قال : خطبنا رسول الله فقال :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » .

وعن أبى ذر قال « قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ قال فضرب بيده على منكبى ثم قال :

« يا أبا ذر : إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

وجاء فى البخارى « جاء رجل يسأل رسول الله : متى تقوم الساعة ؟ فقال له إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » .

وفى البخارى أيضـاً قال رسول الله « إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به » .

وقال أبو داود « قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم (من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول) والغلول هو المال المختلس من مال الجماعة الذى ينفق .

وقال الله تعالى فى كتابه الكريم :

(ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

وفى الطبرانى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العامل إذا استعمل فأخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد فى سبيل الله حتى يرجع إلى بيته » .

* * *

هذه هى الأمانة فى الكتب السموية وفى سنة محمد . وفى شريعة موسى وعيسى .

وهى هى الأمانة التى لا يجحدها أحد من أهل الأرض ولا من أهل الكتاب .

وهى هى الأمانة التى يجافيها الإنسان وهو كاره ثم من بعد خيانته يندم . ولست أعرف إنساناً خان الأمانة . ورضى عن خيانته .

وهى صفة تتجلى آثارها فى المعنويات والمحافظة عليها كأن يكون الإنسان أميناً على أداء واجبه كما تتجلى فى الماديات كالمحافظة على ما يؤتمن عليه من أموال وعروض .

وقد يكون الإنسان أميناً ولا فضل له فى أمانته فهى ليست طبيعية فيه . أو مستحبة لديه ولكنه مجبر على أن يكون أميناً لتسلط أضواء الرقابة عليه أو خوفاً من العقاب .

وهذا أضعف أنواع الأمانة .

ولكنه قد يكون أميناً بطبعه و بخلقه .

ويكون الفرق بين الشخصين الأمينين أن الأمين بطبعه لا يتأثر من رفع الرقابة عنه وانعدام مساءلته عما يقترف . ولا تغريه الخفية . ولا تؤثر فيه المغريات .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أما الأمين صنعة واضطراراً فسرعان ما ينقلب على عقبيه حين ترفع عنه الرقابة أو تنعدم محاسبته أو تقوى عليه المؤثرات المغريات .

وقد يكون الأمين فقيراً معوزاً . ومع ذلك يعف ويخشى الله .

وقد يكون غنياً يتحرم من الخيانة ويتأثم من اقترافها .

وقد يكون خائن الأمانة محتاجاً مضطراً .

كما قد يكون غنياً فى غير حاجة . ولا هو مضطر .

وقد تكون الأعمال التى لا رقابة لأحد على القائم بها امتحاناً لأمانته .

ومن الأعمال التى ينفرد فيها الإنسان بالأمانة إن شاء صانها وإن شاء خانها الأعمال الحرة كالمحاماة والطب لانعدام الرقابة إلا رقابة الله والضمير .

فإن صاحب الدعوى يجتمع بالمحامى فى خلوة . ثم يخلو المحامى بنفسه يناضل ويكافح رغباتها وأوامرها حتى ينتصر أو ينهزم فيصبح أميناً أو خائناً للأمانة .

وليس أيسر على المحامى أن ينحرف . . فإن إنكاره تسلم مال أى مقدار منه أمر هين . وإن كلمة يقولها عرضاً — وهو قاصد — قد تضيع معها الألوف .

ولكن ليس أشد عسراً . وأكبر ثقلا من حمل الأمانة ومجاهدة رغبات النفس وإيثار الحسنى على ما فى النفس من حاجات .

وكم يكون الإغراء ملحاً . شديداً فى إلحاحه .

وكم تكون الحاجة مسعورة .

عرفت محامياً أُودع لديه مبلغ كبير من المال لكى يودعه بدوره فى دعوى شفعة . . وكان موضع ثقة صاحب المال فلم يأخذ إيصالا عليه بإيداع المبلغ .

وعرفت محامياً آخر أُودع لديه مثل هـذا المبلغ لنفس الغرض وفى نفس القضية . . وحرر على نفسه إيصالا بالإيداع .

وحدث أن مات صاحب المال الأول .

وحدث أيضاً أن مات صاحب المال الثانى .

أما المحامى الثانى فقـد تصنع الحزن والألم وسبق الشمس إلى زيارة منزل المتوفى وقدم التعزية ممزوجة بالدمع ثم نصح أولاده وزوجـه أن يتحفظوا على أوراق المرحوم فقد كانت معاملاته متعددة . وحذرهم من ضياع ورقة واحدة لأن الآلاف قد تضيع إذا ضاعت ورقة صغيرة تثبت هذه الآلاف . وظل يرهبهم ويخيفهم حتى جمعوا له الأوراق جميعهـا وأودعوها لديه . . أمانة ! وانفرد هو بالأوراق يبحث عن « الأمانة » ! وهى إيصال المال المودع فمزقه وحرقه ! ! وراح يضحك منتصراً ! ! ثم سلم الأوراق بعد ذلك إلى الورثة وقد ناله الشكر والثناء والدعاء منهم ! وهم لا يدرون شيئاً عن الإيصال الذى سرقه واختلسه !

أما الأول فقد كان موقفه عجباً . . فقد كان المودع لا وراث له من الأبناء أو الإخوة ولم يكن له زوجة فظل يبحث أشهر عن الورثة حتى جاءوه . وكان فى أشد حالات الضيق المالى . كانت زوجته تضع مولوداً . وأولاده مطالبين بالرسوم المدرسية . ووالده فى عسر متوقع عليه حجز ومحدد يوم لبيع منقولاته . ولـكنه أدرك قيمة الأمانة . وعرف ما قاله الله عنهـا . وما بعث به الرسل من الإغراء بها . . فصارحهم بما هو مودع لديه من مال .

ولقد ذهلوا . . وفى غمرة فرحتهم تنازلوا عن دعوى الشفعة وظفروا بالمـال وأجزلوا للمحامى الجزاء بما كفاه حاجته إلى المـال فتسدد أجر العملية والرسوم المدرسية وتسدد الدين ورفع الحجز .

فتدبروا يأهل الذكر !

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ألوان الأمانة :

إن أمانة المحامى لها ألوان . ومواقع وظروف .

فإنه مطالب بالأمانة لربه .

والأمانة لفنه .

والأمانة لموكليه .

والأمانة للقضاء .

والأمانة لخصومه .

أمانته نحو ربه :

إن الله غنى عن عباده . ولكنه يطالب الإنس والجن أن يعبدوه . ويطلب من الناس أن يقرضوه قرضاً حسناً. أما مايطلبه من العبادة فليس هو القيام والسجود والركوع فى أوقات الصلاة الخمس ، وإنما هو السعى والعمل والإخلاص فيما يسعى إليه ، وإفادة الخلق وإسعادهم . أما القرض الحسن فهو أيضاً العمل الصالح للآخرين لوجه الله وحده — حتى لو لم ينل جزاءه من الخلق — وهو الأمر الغالب فإن جزاءه عند الله يُؤدى له وفاءً لقرض حسن لم يقرضه الناس وإنما أقرضه الله رب الناس .

إذن فأمانة المحامى نحو ربه تتألف من عنصرين :

(١) أن يعمل ويعمل بإخلاص لفائدة المجتمع . لا لمال ولا مجد ولا شهرة وإنما لرفاهية المجتمع وسعادته .

وليس معنى هذا أن يعمل فيلسوفاً متصوفاً . وإنما يجعل الغاية هى إسعاد المجتمع والمال وسيلته ثم يأتى الأجر فى سعيه فى المرتبة الثانية . لا أن يكون المال هو الغاية وهو كل شىء !

(٢) أن يكون ملحوظاً فيه أنه قرض حسن لله . فلا يشتط على الناس فيما يقدر من أتعاب وأن لا يأس و يثور و يطيش حين يأكلون حقه . بل يستعمل حقوقه فى رفق . وهو مطمئن إلى أن ماله مدخر عند موزع الأرزاق ومقسم الحظوظ .

* * *

ولا يظنن ظان أن هذه دعوة خيالية . أو أنها نزعة فلسفية . بل إنها دعوة عملية أدعو إليها ثمرة تجاريب طويلة قاربت الثلاثين عاماً .

ولعلنى كنت من أقل المحامين مطالبة بأتعابى وأكثرهم إسرافاً فى ترك حقوق التى تفنن المصريون فى جحودها ونكرانها .

ولكننى مع ذلك كنت ولا زلت أكثر الناس أسفاً على ما اتخذت فى بعض الأحيان من إجراءات تتبع الموكلين لإرغامهم على دفع أتعابى .

ولعلنى أستطيع أن أعدد آلاف المرات التى عوضنى الله فيها خيراً من حيث لا أحتسب ولا أترقب !

* * *

أمانته نحو فنه :

إن المحاماة علم ، وفن ، وخلق ، وعمل (أى صناعة ولا أحب أن أذكر كلمة صناعة لطول ما ابتذل هذا التعبير) .

فأمانته نحو فنه من ناحية العلم أن يداوم على الاستسقاء من ينابيعه ، فلا يكتفى بما تعلم فى كلية الحقوق . فإنها مبادىء عامة . وسطور قاصرة . و إنما عليه أن يتعمق فى كل مايعرض له من موضوعات . فإذا وكل فى قضية — أبسط قضية — فلا يفتى فيها ارتجالا ولا يكتب عريضتها ارتجالاً ويسرع إلى المرافعة بالمحكمة اعتماداً على معلوماته القانونية المختزنة واستناداً إلى معلومات الموكل .

و إنما يقرأ كل ما يتعلق بالقضية من مباحث قانونية وأحكام صدرت و بحوث كتبت ونشرت فلعله يصادف جديداً مفيداً .

وأذكر أننى فى صدر شبابى وكلت فى قضية عن شخص محجورعليه ومحكوم له بنفقة شهرية على الحارس على أملاكه وناظر وقفه قدرها ١٧ جنيهاً شهرياً . ثم جاءت مطلقته و بيدها أحكام نفقة تبلغ قيمتها ١٨٠٠ جنيه وحجزت على قيمة نفقته الشهرية تحت يد ناظر الوقف والحارس . وتواطىء معها الأخير على دفع المبلغ كله لها وأصبح المحجور عليه وزوجه وأولاده بلا ماء ولا طعام ولا سكن ! وكان يملك حوالى ألف فدان !

والقانون كما هو معروف يسمح بالحجز لدين النفقة على النفقة المفروضة ! أى أن الحجز صحيح وقانونى .

ولكن عقلى لم يقتنع ووجدانى لم يجد فى ذلك راحة . . فرحت أبحث وأنقب . . ومن العجب أننى وجدت الفرج فى الشريعة الإسلامية وفى القانون الفرنسى وفى قضاء المحاكم الفرنسية والإنجليزية . وجدت أن العقل القانونى السليم يقسم النفقات المتجمدة إلى نفقات معيشة ونفقات مفروضة للأقارب كالزوجة — ويقسمها أيضاً من حيث الزمن — إلى ما هو قبل الحكم بالنفقة وما بعدها — وجعل لكل حالة نسبة معينة بحيث يخرج للمحكوم له بالنفقة والمحكوم عليه فضلة من المال ليعيش بها .

وعرضت بحثى على الأستاذ حسن الهضيبى — وكان القاضى الجزئى .. وكان قاضياً ممتازاً مستيقظ الضمير رغم جفوة مظهره فسرّه البحث إلى حد إعلان الرضاء والثناء علناً بالجلسة . وقضى فى الدعوى بحكم رائع . ولو أننى اكتفيت بنص القانون لما عاونت فى تحقيق عدل ولا الوفاء بأمانة فنى . .

هذا من ناحية العلم .. الدرس المستمر ومحاولة الاطلاع على كل جديد .

وأذكر أن القضاء المستعجل كان قد استُحدث فى السنوات الأولى لاشتغالى

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

بالمحاماة. وقد كان هذا القضاء جديداً على المحامين الأهليين (الوطنيين) ولم يكن جديداً على القضاء المختلط . وقد فوجئنا بتعيين قاض شاب كان شعلة نشاط فدرس وتعلم بسرعة .. وجاء إلى الجلسة عالماً أمام جهلاء ! وكانت مناقشاته بالنسبة لنا كأنها معميّات .. حتى استطاع أن يسخر حتى بكبار المحامين ! — وهو الأستاذ محمد على رشدى الذى ارتقى إلى مستشار بالنقض ثم وكيل لوزارة العدل ثم إلى وزير وهو الآن محام .

واتفقنا نحن عصبة من المحامين الشبان أن نستقصى موارد القضاء المستعجل وسرعان ما عثرنا عليها فى أحكام المحاكم المختلطة بمراجعها الفرنسية . فعكفنا على دراستها عكوفاً عنيفاً .. ثم تقدمنا إلى محكمة القضاء المستعجل .. بل إلى القاضى المستعجل المستعد . الدارس المتفقه . وأصبحت مبارزة بين فريقين .. بل كانت المرافعات كفاحاً بين جبابرة ! و بمضى الوقت وصلت العدوى الطيبة إلى باقى المحامين ثم إلى من توالوا على القضاء المستعجل من فطاحل القضاة أمثال محمد على راتب ونجيب أحمد والسيد على السيد وفؤاد جابر ويحيى مسعود وغيرهم .. حتى أصبحت أحكام القضاء المستعجل اليوم مثلا أعلا للدقة والإحكام والسمو الفنى . .

وهذا ما وقع للمحامين عند إلغاء المحاكم المختلطة وانتقال القضاء التجارى إلى المحاكم الوطنية .

وهذا أيضاً ما وقع عند إنشاء القضاء الإدارى . .

لولا تسابق القضاة والمحامين نحو ارتشاف مناهل العلم من مواردها السليمة لما خطا القضاء والمحاماة بخطى الجبابرة إلى السمو والارتقاء .

* * *

هذا من حيث العلم .

أما من حيث الخلُق . فإنه و إن كان من العسير تعريف ما هى مبادىء

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الأخلاق التى يطبقها المشتغل بفن المحاماة . فقد تشعبت وجهات النظر إلى حدّ أن كل تصرف يمكن أن يرده صاحبه إلى الأخلاق ظلماً ! فإن المحامى الذى يقبل قضيـة مهما كانت مبطلة .. وقد ينجح فى باطله يحق له أن يقول — ظالماً — «هكذا يريد الله» ! مع أن الله عادل لايحب الظلم ولا الظالمين . وقد يؤذى المحامى خصمه .. ويقـول « ولـكننى أفدت موكلى » ! وقد ينصحه نصيحة لا يبغى من ورائها إلا الـكسب المادى ومع ذلك تفلح على الأقل فى إرضاء شهوة الانتقام وشهوة العناد وشهوة المقاضاة عند موكله . . فيقول « إن صـاحب الأمر راضى ومستريح » ! وقد يشتط فى طلب أتعابه ويرهق موكله ثم يقول « لقد عصرت أعصابى وأرهقت عقلى وحملت جسدى ما لا قبل له على حمله فمن حقى أن أنال جزى » !

أصبح حقاً من العسير أن نضع مبادىء موحدة ثابتة . إلا فى حدود عامة . غامضة . كأن يقال أن يتقى المحامى ربه و إتقاء الله أمر فى يد المحامى . أو أن يراجع ضميره — وهنا العثرة الـكبرى — فيجب أن يكون هناك ضمير أولا . وضمير حساس حتى إذا ما روجع أفتى خير الفتاوى .

* * *

غير أننا لو حسنت نياتنا لم نجـد عسراً فإن الأمر أيسر من أن نعقده بالمناقشات الفلسفية ويكفى أن يضع المحامى المبادىء الآتية :

أن لا يخدع صاحب الدعوى . فإن كانت قضية مبطلة صارحه بذلك وحسم شره عن نفسه وعن الناس بالنصيحة . وذلك بعد دراسة مستفيضـة بحيث يجعل نفسه قاضياً ويحـكم فى الدعوى . وأن لا يشارك فى ظلم : ظلم موكله بأن لا يسايره فى الظلم ، وظلم خصمه ، وظلم الحقيقة .

وأن لا يشجع المبادىء التى تتنافى مع الأخلاق .

فإننى عرفت محامياً قضى قرابة ثمانية وعشرين عاماً فى المحـاماة لم يحضر فى قضية هتك عرض أو إدارة منزل للدعارة السرية (إلا مرة واحـدة ذكرتها فى

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

كتاب موكب الخاطئين وكان الحق فيها مختفياً وراء حجب وظلام وأراد الله أن ينكشف) أو قضايا العاهرات اللائى كن مرخصاً لهن بالدعارة العلنية ولا قضية تسعيرة . وأعرفه وقد رد أتعاباً باهظة فى قضايا مدنية وتجارية حين كان يبين له أن موكله فيها ظالم مخادع .

* * *

وقد يرى بعض الذين ينظرون إلى الأمر من ناحية الإسراف فى سوء الظن أو يحسبون أن مثل هذا الحديث مجرد خيال أنه قول نظرى لا يمكن أن يكون عملياً . إذ كيف تُترك مثل هذه القضايا الأخلاقية بلا مدافع .

ولكننى أقول لهم إن لهذه الدعوة التى أدعو إليها — على فوائدها الظاهرة — فائدة خفية للمجتمع الذى نعيش فيه .

ذلك أن من أهم العناصر المفقودة فى مجتمعنا المصرى أن الجرائم لا يعاقب عليها الرأى العام ، فإن مرتكب الجريمة أياً كان نوعها يزف إلى المحاكمة فى زفة ويخرج من المحكمة بزفة سواء زفة زغاريد أو زفة عويل وصراخ رثاءً له .

فإذا خرج من السجن توالت عليه الوفود بالتهنئة والتبريك ! وكل فرد فى المجتمع لا يفكر فى إشعاره باستنكار سلوكه !

هذا إذا وقع فى يد القضاء فاذا لم يقع أو كانت جريمة ليست مما يعاقب عليها القانون عامله المجتمع بالتقدير والاحترام مثل الرجل الصالح !

كنا فى سامر عام وكنا نتحدث عن رجل كبير متهم فى ذمته فهو يرتشى . وهو متهم فى عرضه الشخصى وفى عرض عائلته وفى أعراض الناس . واشترك جميع من فى السامر فى سرد الحقائق ووصف الوقائع و بدت العبارات الاستنكارية قذائف ملتهبة . وعلى حين فجأة أقبل هذا الرجل الكبير الملوث المتهم . فاذا جميع من فى السامر يقفون احتراماً له ويكاد كل منهم ينحنى فى تحيته .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وقلت فى نفسى لو أن هذا الكبير الملوث قدم على السامر فلم يحرك أحد له قدماً ولا يداً ولا عيناً لأحس بعقوبة كبرى توقع عليه .

ومثل آخر :

لقد عاشت صحافتنا قرابة ربع قرن وهى تنشر أخبار الشبان الفاسدين والشابات الخليعات تحت عنوان أبناء الذوات وأخبار المجتمع وتذكرهم بالإعجاب والتقدير ... وحتى الاستنكار والتشهير كان يحمل معنى الإعلان فإذا قالت صحيفة أن فلاناً شاب مبذر مسرف يركب سيارة جديدة ويراقص الفتيات ويخدعهن فرّت إليه أسراب الظباء لأن الشهرة لها أثر السحر فى نفوس الطائشات . وإذا قيل عن فتاة أنها تبدل عشيقها كالثوب أو كالحذاء كل صباح أو كل مساء قرأنا فى العدد التالى أن قرانها قد تم على فلان الثرى المعروف إبن الأصول والحسب والنسب !

وإذا قيل إن طلاقاً قد وقع لأن الزوجة قد ضبطت فى حالة مريبة مع عشيق لها .. قرأنا بعد أيام — وقبل انتهاء العدة — أنها خطبت إلى فلان .. وهو فى الأغلب غير العشيق !

بل كم سمعنا ورأينا سيدة من عائلة كبيرة تعلق صورة معبودها فى غرفة الاستقبال على يمين زوجها وأولادها !

.. إذن فالمجتمع المصرى لا يتخذ لنفسه موقف القاضى والسجان الذى يقضى بالعقوبة وينفذها .. وغالباً لا تطول يد القانون كثيرين من المرتكبين حين يكونون كباراً — كبار الأسماء صغار الشخصية والنفوس — بينما المجتمعات الأجنبية توقع أقسى العقوبات .. فالصحف لا تذكر الأسماء المشبوهة . والنوادى تغلق فى وجوههم، والجيران يقفلون الأبواب والنوافذ أمامهم . والرؤوس تُلوى إزدراءاً حين يقبلون أو يمضون . ويحذر الآباء أبناءهم من أبناء أولئك المنبوذين ومن مخالطتهم .

إنها عقوبات .. وقد تكون أقسى من عقوبات المحاكم والسجون !

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وفى هذا عبرة .

وفيه درس وعظة .

وفيه تحذير للمترددين فى ارتكاب الجرائم والأخطاء الأخلاقية .

ودور المحامين فى هذا الشأن كبير عظيم ذو أثر فعال .

فلو أن المختلسين . والمرتشين . والمعذبين . وهاتكى الأعراض . والمتاجرين بالإثم والسحت فى أرزاق الشعب لم يجدوا المحامين المدافعين عنهم إلا تكليفاً من المحاكم — إذا كانوا حقاً مجرمين لا ينصرف حديثى عن الأبرياء منهم — فذلك ما يستطيع إدراكه المحامى بعد إطلاعه على ملف القضية — نال كل منهم عقوبته قبل أن توقعها عليه المحكمة .

وعندئذ يكون قد وُضعت أول لبنة فى بناء مجتمع يعاقب . . وينفذ العقوبة .

أكتب هذا وأمامى فيلم طوله سنوات طوال منذ قيام الحرب العالمية الثانية إلى الآن يمثل ما فعله التجار بأفراد الشعب .. تجار الفواكه والخضروات واللحوم والشاى والخبز . إلى آخر الأقوات التى تبهظ ميزانية الفقير والمتوسط .. ثم لا أجد أحداً من هؤلاء يرعوى . ولا يزدجر . . وأرى أن على المحامين يقع العبء الأكبر فى استمرار هؤلاء فى خسفهم وشططهم .

وتدليلا على ذلك نردد ما يقال فى الصعيد حين يعتزم أحدهم قتل غريمه (والله لأقتله وأشد ... المحامى دا ديته ٥٠٠ جنيه للمحامى ...) .

هذه عبارات لها دلالتها . . فإن مما يبث الشجاعة فى نفس القاتل أنه يعتقد أن فى إمكانه أن يفلت بمؤازرة المحامى . وكذلك التجار فإنهم يرتكبون وسندهم أن لهم محامياً بارعاً يستطيع أن يناقش فى وزن الرغيف وفى التسعيرة وفى اللحم المشنى والقطع الممتازة وفى استحضار الشهود الذين يشهدون بكذب المبلغ

دار المحاسي للإصدارات القانونية
المحاماة علم وفن وعمل
تأسست في ٢٠١٨

أو بوجود ضغائن سابقة . . أو الذى يؤثر بنفوذه السياسى أو الشخصى فى القضاء — ولو وهماً — ليحيل العقوبة المنفذة إلى عقوبة مع وقف النفاذ . . الخ .

* * *

هذا كلام صحيح وسليم . ويااليت المحامون يتدبرونه مقدرين أثرهم فى السمو بمستوى المجتمع .

كما أرجو أن تتدبره الصحافة التى هى — أصلا وفرضاً — المعبرة عن إرادة الشعب حتى قيل — وبحق إنهـا السلطة الرابعة فى الدولة — والتى أصبحت للأسف تهدف إلى الرواج وإلى الإعلانات . . فقط !

* * *

ثانياً — وعلى المحامى أن يرضى بالقليل بادىء ذى بدء ولا يحلم بالثروة . فإن مصارع الرجال فى تغلب شهوة المال على روحانية القلب ورضا النفس . والقناعة .

إن من جعل المال همّـه فرّق الله عليه أمره وجعله يجرى لاهثاً متعباً وراء سراب . . فكلما جمع طمع . وكلما ظفر سُعر .

ومن قنع فإن الله يجعل القليل فى يده كثيراً . والضئيل وفيراً .

وليعلم كل محام أن رزقه سيأتيه سواء طمع فيه أو قنع دونه .

وما رأيت فناً يصرع صاحبه المال فيرديه موارد التهلـكة كالمحاماة والطب . ولم أر كالمحامى والطبيب إذا قنع كلاهما بالربح الحلال فإنه يجرى صعـداً فى مراقى النجاح . وقد يتأخر به الزمن قليلا أو كثيراً ولـكنه حتما إذا واصل السعى وصل إلى القمة وكان المال نهراً يجرى . . ولـكن تحت قدميه !

أعرف أطباء ومحامين أحبوا المـال فخدعوا مرضاهم وموكليهم . وكذبوا . ولفقوا . ونالوا المـال ! ولـكن سرعان ما انـكشف الستر عن خداعهم وانفض

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الناس عنهم . وذاعت عنهم قالة السوء . ونزع الله ما بين يديهم منه فى قمار أو حب غانية عابثة !

وأعرف منهم من جعل فنه همّه فعمل ودرس وتعب وصدق وحالف الاستقامة والنزاهة . وأبطأ المال عليهم طويلاً . وإذا السيرة الحميدة ترفعهم إلى أعلا الذرارى وإذا الناس يقبلون عليهم أفواجاً ومن كل صوب حتى استوكفوا الغيث من الرزق الحلال .

الأمثلة وفيرة كثيرة لا عداد لها ولو أردنا تعدادها لما وسعتها الكتب والمجلدات . .

ولكنها حقيقة واضحة ، ومن جلس مثلى على تل من السنين يستعرض الماضى الطويل وجد العجب . ومن كان أقدم منى عهداً وأحدّ بصيرة ، وألمع ذكاء يستطيع أن يرى أكثر وأوضح . ويحكى أعذب وأحسن .

يجب أن يوطن المحامى نفسه على أن يرضى ويشكر :

فالرضا والحمد أساسان من أسس الراحة النفسية . والراحة النفسية أساس من أسس العمل المنتج . والعمل المنتج هو مطية النجاح .

كنت أسمع . وأنا أكسب فى الشهر ثلاثين جنيهاً كثيراً من زملائى المحامين يعددون ما يكسبه بعض المحامين بالآلاف . ولست أنسى يوم زارنى زميل وصديق . وجار فى المكتب هو محام شرعى . كان يعجب بى وباجتهادى إعجاباً فيه كثير من الإسراف . وقد جاء ينبئنى بأن زميلا قديماً ليس على كفاية ما قد وكل فى قضية بعشرة آلاف جنيه وهى قضية شرعية — وإن كان محامياً أهلياً — وقد جاء يشاركه المجهود أو يطلب منه كل المجهود لقاء أتعاب على شرط أن لا يذكر إسم المحامى الشرعى .

وقارن بين دخل هذا المحامى (رحمه الله وغفر له) الذى كان كل ما يمتاز به أنه متسلق . وملتصق بشخصية سياسية كبيرة . وبين دخلى المتواضع من قضايا

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أكثر تواضعاً — كما قارن بين مواهبي و بين مواهبه . و بين اجتهادي و بين كسله .

وتألمت — كإنسان بشري — لحظات ، ولكنني في الليل — وحدي — قارنت بين نفسي و بين زملائي الذين كانوا في سلك القضاء . وكان مرتبهم عندئذ ٢٠ جنيهاً . . وكان منهم من هو أكفأ مني ومن كان يسبقني في ترتيب إجازة الليسانس .. فوجدت أنني أسبقهم بعشرة جنيهات . وارتحت ورضيت ، وأقبلت على عملي بروح عالية .

ثم عقب ذلك ببضعة أيام وكلت في قضية جنحة — قدرت أتعابها بعشرة جنيهات — خمسة مقدماً وخمسة مؤخراً — وعقب أن سرت في حضور التحقيق وفي المحاكمة أشهر وُكل المتهم الزميل الكبير المشهور ودفع له ٢٠٠ جنيه مقدماً . وتأجلت القضية عدة مرات لحضوره ولم يحضر . ولم يغضب المتهم . لأنه فهم أن دور المحامي من وراء المحكمة لا من أمامها . ثم ترافعت وحدي وصدر الحكم بالبراءة . واستأنفت النيابة فقصد المتهم المحامي الكبير ودفع إليه مؤخر الأتعاب وكذلك مقدم الأتعاب للاستئناف .. في حين ظل يدفع لي مؤخر أتعابي الخمسة جنيهات تقطيراً . . جنيهاً جنيهاً !

وحدث في الاستئناف أن غاب المحامي عدة جلسات ثم حضر وترافع خمس دقائق بعبارات غامضة عامة تصلح لكل قضية . كان يقول (هذه قضية الجحود . جحود الإنسان لمن أحسن إليه .. الخ) .

ثم فجأة قال « وسأترك المرافعة لزميلي » . فترافعت وتأيد الحكم . ودفع الموكل للمحامي الكبير مؤخر أتعابه في نفس اليوم .

ولم أظفر أنا بأتعابي إلى اليوم بعد مرور حوالي سبعة وعشرين عاماً !

في ذلك اليوم تملكني الغيظ ، وتمردت نفسي ، وثرت سخطاً .

ثم تذكرت فجأة أن ممثل النيابة في نفس الجلسة كان زميلي .. وكان زميلاً

فاضلاً موهوباً . وكان مرتبه سبعة عشرة جنيهاً ! فعاودنى الرضاء . وامتلأت نفسى قناعة وحمدت الله .

إن الرضاء بما قسم الله مريح للأعصاب . مثير للهمة . يعد العقل والجسد لمتعة العمل والسعى والظفر .

ثالثاً — تم على المحامى أنه لا يكترث بأقوال الناس :

فإنه ليحلو لكثير من الناس أن يتحدثوا عن غيرهم سواء كانوا يعرفونهم أم يجهلونهم . ولعل المقاهى والندوات لم يُبق عليها زاخرة عامرة إلا مبادلة الحديث عن الناس .

وعادة يكون الحديث بالسوء .

وأغلب الأحيان يكون نصيب الناجحين . الذين أصابوا شهرة ومجداً ومالا نصيب الأسد من أحاديث الناس بالسوء عنهم .

وهذه عادة الجالسين ! والجالسون دائماً هم الفاشلون ! أما العاملون منهم فهم الذين يتحركون سعياً وجهاداً . انتقالا وترحالا .

والجالسون دائماً الفاشلون حاقدون حاسدون . ولو كتموا الثعابين التى تنهش فى إيمانهم لأفنتهم . فهم ينفسون عن أنفسهم بنفثات السم فى شكل أحاديث . حتى يستريحوا ! ولكن ما استراح أبداً حاسد أو حقود !

فإذا سمعت حديث سوء عن نفسك فراجع نفسك وحاسبها فإن وجدت بعض القول صحيحاً فلا تغتم وحاول أن تصلح نفسك . واستفد من أحاديث السوء . وإن خرجت من محاسبة نفسك سليما أبيض الصفحة فلا تهتم ولا تتميز غيظاً . واعلم أنها ضريبة النجاح !

وأذكر وقد أصبت بعض النجاح فى المحاماة وتحركت ألسن الجالسين الفاشلين بذمى أن سمعت أن أقوالا تحكى عنى ومنها أننى « سكير » ولم أكن فى

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

حياتى كذلك — على الأقل لأننى متعود منذ طفولتى والخمر تتلف جهازى الهضمى والعصبى . . وحاسبت نفسى فتذكرت أننى فى إحدى حفلات نقابة المحامين قد تناولت كأساً علناً .. ثم تذكرت أننى كنت أجالس مع زملاء لى الزميل الظريف المغفور له عباس شريف وكان محدثاً لبقاً لا يُمل مجلسه ولكنه كان — غفر الله له — يدمن الشراب . فعاهدت نفسى ألا أشرب أبداً فى مكان عام . وأما مجلس عباس شريف فلم أستطع الانقطاع عنه .. حتى توفى إلى رحمة الله .

ويوم سمعت لغطاً حول إسمى مقروناً بعلاقات نسائية .. تزوجت !

وأعتقد أن محاسبة نفسى فى الحالتين أفادتنى كثيراً .

أما ما عدا هـذا فلا أذكر أننى أكترثت لقول قائل . أو تشنيع مفتر بل أننى طالما تحملت تضحيات دون أن أحاول حتى الدفاع !

رابعاً — ألا يكترث للنتائج :

إن المشرع حين منع المحامى من مشاركة موكله فى نتائج الفصل فى النزاع كان على حق . وتمثل حالة نفسية هامة حين شرع ذلك المنع . فإن اهتمام المحامى يجب أن ينصرف إلى العمل لا إلى النتائج . وعليه أن يبذل قصارى جهده فى أداء الواجب أما ما يحققه من كسب أو خسارة فلا يعتد به وإلا أصبح صاحب حاجة . وصاحب الحاجة متحمس يفقد فى حماسته اتزانه . وتختل موازين الأمور فى تقديره . ويخطىء أكثر مما يصيب .

ويجب ألا ينسى المحامى أنه إذا نظر إلى ميزانية المكسب والخسارة كان غنمه فاتكا حين يخسر . وقد يخيب أمله أيضاً فى المكسب لقلته فهو فى الحالين مضرور .

أما إذا اهتم بأداء الواجب فحسب فإنه يكون منصرفاً إلى عمله فى هدوء أعصاب وسعة صدر . و بتفكير رائق .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وهنا يستطيع أن ينتج . وأن يحسن . وأن يستريح ضميره .

وكم حزنت حين رأيت محامين يكاد الانهيار يصيبهم من جراء الأحكام التى تصدر على غير ما يؤملون ! وتراهم يائسين . ساخطين . شتامين .

ولو أننى لا أستطيع أن أنكر أن نتائج العمل الفنى تهم الفنان . ولكن ما قيمة النتيجة إذا كان هو مقتنعاً بكمال العمل فى ذاته ؟ !

إن كثيرين من الرسامين الخالدين لم يستطيعوا أن يظفروا فى حياتهم ببيع لوحة واحدة . ومع ذلك أنتجوا وافتنّوا . وبرّزوا . وصوروا العبقرية صوراً ورسوماً وأشكالاً . . وذاع صيتهم بعد موتهم . ولحقهم الخلود وهم فى قبورهم .

إذن والمحامى فنان .. ولست أحب أن أدعوه أن ينال المجد بعد الموت . إنما أمثل له لكى لا يأس على فشل عمل فنى هو يعتقد أنه عمل فنى كامل . وكل ما عليه أن يراجع نفسه فإن أصرّ بينه و بين نفسه على أنه أدى واجبه كاملا تابع مجهوده فى درجات التقاضى اللاحقة . و إن كان قد عثر على ثغرة أو نقص عليه أن يعوضهما و يسدها .

ولا يستطيع أن يدرك المحامى دائماً أى مؤثرات أثرت على القضاة والمستشارين. وأى اتجاه اتجهوا إليه بالقضية .

وكثيراً ما كان لى رأى فى بعض القضايا وحُكم بعكس هذا الرأى ثم قرأت الحكم فبدا لى خطئى و بدا صواب الحكم .

ولقد ترافعت مرة فى قضية جناية وكان الشهود جميعاً بما فيهم الطبيب قد أكدوا أن المجنى عليه نطق باتهام أحد المتهمين . وجاء تقرير الطبيب الشرعى الاستشارى المقدم من الدفاع عن المتهم ينفى إمكان أن ينطق مع الإصابات التى برأسه . وجاء الطبيب الشرعى الحكومى لكى يرجح الموقف برأى . فجارى زميله الثانى فيما ارتأى . وصدر الحكم مؤيداً ذلك . وتضايقت حقاً .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

ثم مضت الأيام وتقابلت مع أحد السادة المستشارين فسألني ضاحكا : « هوه نطق والا ما نطقش ؟! »

فأجبته :

« والله نطق .. وأهو كل شيء راح لحاله ! »

فأجابني بهدوء :

« إحنا عارفين إنه نطق . ولكن القصاص . . اثنين في اثنين (يقصد أن القتلى كانا اثنين . واللذين حكم عليهما كانا اثنين) وللأسف أنهم جميعاً كانوا أبناء عمومة » .

وقد فهمت أن العوامل الإنسانية قضت ألا يخرب البيت فيحكم على الأب والولدين . فاعتمد المستشارون على ظاهر التقرير و برأوا الأب اكتفاء بالأشغال الشاقة المؤبدة للولدين .

وارتحت عند هذا التفسير بل وافقت عليه . وقلت لو أنني مكان محكمة الجنايات ما حكمت بأفضل من هذا الحكم .

ولو أنني لم أسمع هذا الحديث من الزميل الفاضل لظللت متألماً !

وأذكر في قضية مقتل سيدة فنانة مشهورة أن كان إثنان من المتهمين في موقف واحد والأدلة ضدهما واحدة وظروفهما واحدة . وكان دفاعهما واحداً . . ثم صدر الحكم بالأشغال الشاقة على أحدهما و برىء الثاني وحكم على آخرين بمدد متفاوتة . وقابلت رئيس المحكمة (المرحوم الأستاذ سيد مصطفى الذي كان أخيراً رئيساً لمحكمة النقض ثم وزيراً للعدل ثم محامياً) فقال لي :

« هيه . الحكم عجبك ؟ » .

« جداً بس عايز أفهم سبب تبرئة فلان . . والحكم على أخيه وما معنى التفرقة بينهما ؟ مع أن موقفهما واحد ؟! »

فقال رحمه الله بطريقته اللطيفة :

« يا أخى مش كفاية أخ واحد . . فى مَرَة (. . .) ! »

وأدركت المعنى الإنسانى الذى تدفق على صفحات الحكم فغيّر النتائج !

والأمثلة على ذلك كثيرة . لا حصر لها .

خامساً — أنه يبتعد عن مواطن الشبهات :

أحب أن لا أكون واعظاً يقف على منصة الوعظ فى كنيسة .

ولا خطيباً يقف على منبر الجامع فى يوم الجمعة :

فأنادى بأن يكون المحامى قديساً . لا يشرب ولا يقامر ولا يأتنس بالملاح . فقد يكون هذا متعذراً أو مستحيلا وخاصة أيام الشباب . وطوبى لمن عصمه الله نسبياً . أما العصمة كلها فليست لمخلوق بشرى ضعيف .

ولا أحب أن يفهم قارىء أن الكاتب يدعى لنفسه العصمة . . فما أكثر أخطائى وما أوفر زلاّتى !

ولكن ما أدعو إليه هو القصد فى كل الأمور أولا . وثانياً أن يبتعد المحامى عن مواطن الشبهات . فالمحامى سمعة وله عرض فى فنه وعمله فإذا خُدشت السمعة وتمزّق جانب من عرضه الفنى . فقد ألحق ذلك به ضرراً بليغاً .

فإن من قُدّر عليه أن يشرب كأساً ، ففى بيته أو فى بيوت أصحابه . ومن قُدّر عليه أن يلعب ورقاً — وهو أخطر ما يُمنى به المحامى — فلا أقل من أن يستتر عن عيون الناس وللتسلية الوقتية ، ومن شاء أن يستمتع برفقة حبيب جميل فليتوارى وراء الجدران . فإنها أصون للسر . وأحفظ للسمعة والعرض .

وإن أراد صوناً وتقىً أعانه الله على التقوى .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

الأمانة لموكليه :

هى أقوى أنواع الأمانة لأنه لن يكون أميناً لربه ولا لفنه ولا للقضاء ولا لخصمه إلا إذا كان أميناً على موكله . وحق موكله .

وأمانته نحو موكله تقتضى منه :

(١) أن يصدقه القول . وأن يمحضه النصح . فيهديه إلى جانب الحق ويجنّبه مواطن الباطل . فيبعث بذلك الطمأنينة إلى نفسه إن سار فى دعواه . ويحسر عنه الخسارة وضياع المال والوقت والأعصاب إن أقعده عن السير فى دعوى فاشلة .

(٢) أن لا يرهقه بالأتعاب . فيكون ميزان عدل فى تقديره . ولا يعامل الفقير كالغنى . ولا المأزوم كالموسع عليه فى الرزق .

(٣) أن يكون كاتماً لسره . فإن السر الذى يلقى به الموكل إلى أذن المحامى هو أغلا الأمانات . وأنفس الودائع .

وقد يكون فى كلمة عابرة أو نكتة غير مقصودة ما يفشى السر ويوخم العواقب .

وقد يكون السر يصلح حديثاً يسر السامعين . وقد يكون موضوع حادثة طريفة تسلى المتسامرين وفى إذاعته ضياع مصالح أو تهدّم بيوت .

أذكر أننا كنا نجلس فى غرفة المحامين وأخذ زميل ثرثار يتحدث عن « نساء اليوم » وذكر فتاة عرّفها بأوصاف وألقاب لأبيها . وكيف وقع لها كذا وكذا . . وكان ضمن الجالسين محام نقل هذا الحديث إلى سامر آخر وفى هذا السامر الأخير استمع خطيبها إلى قصة خطيبته وفسخ الخطبة . وقامت بين الطرفين قضايا ، ودلل الخطيب على حقه فى الفسخ واسترداد الهدايا والمهر بما ذاع واستشهد بالمحاميين القائل والناقل !

(٤) أن لا يزعج موكله أو يثير الرعب فى نفسه . وكذلك لا يطمئنه بإسراف . بل يكون صادقاً إلى أكبر حد حتى يعرف الموكل حقيقة موقفه .. فإن هو أزعجه أساء إليه وقد يؤثر ذلك فى حياته . وهو إن طمأنه بإسراف قد تأتى النتائج مفاجئة مخيبة للأمل فتؤثر تأثيراً سيئاً . . وفى الحالتين لا بد أن يهون المحامى فى نظره !

(٥) أن يعامله برفق وأدب . . وأن يجعله يحس أنه إنسان كامل الحقوق فى غير إسراف أيضاً . ومن غير تذلل ولا إراقة لكرامته . وليذكر المحامى أنه فنان يحترم الناس — موضوع فنه — ولكن لا يذل لهم .

(٦) أن ييسر له الوصول إلى حقه بعد كسب دعواه . فإن شر ما يمنى به صاحب الدعوى بعد أن يكسبها أن يستولى محاميه على المال ثم يساومه على أتعابه . . .

يجب ألا يمد المحامى يده إلى مال الموكل سواء كان مودعاً أصلاً عنده أو تسلمه تنفيذاً للحكم أو الصلح .

فإن خطر امتداد اليد إلى الأمانة نتيجة حاجة ملحة يمتد كالحريق إلى علاقة الطرفين فيتلفها ويتركها رماداً . وقد يحترق أحدهما كأثر لهذه المخاطرة .

أمانة المحامى نحو القضاء :

أن يؤدى واجبه بشكل محترم . فلا صراخ ولا ضرب على المنضدة " و بصوت هادىء . وفى أدب . مؤمناً بقداسة القضاء — بصرف النظر عن شخص القاضى — وأن يكون صادقاً . معاوناً للعدالة بإخلاص . وأن لا يكذب فى مستند أو استشهاد بمرجع من المؤلفات القانونية أو حكم قضائى . وأن يجعل لحجة خصمه التقدير وأن يناقشها . و يرد عليها . وأن لا يحاول تعطيل الفصل فى الدعوى بالأعذار المختلفة أو بالغياب . وأن يقدم مستنداته ومذكراته فى مواعيدها . وأن يصون لسانه فلا يطلقه فى سمعة القاضى الذى خذله وخاصة أمام الموكل .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أمانة المحامي نحو خصومه :

وأمانته نحو خصومه لا تقل قيمتها عن أمانته نحو موكليه . لأن خيانة الأمانة نحو خصومه فيها الإضرار بالناس . والإضرار بالناس إحدى الكبيرتين اللتين لا يغفرهما الله — الشرك بالله والإضرار بالناس .

وهو حين يكون أميناً لخصمه لا يفترى عليه . ولا يغرى به موكله . ولا يستعدى قوة موكله على ضعف خصمه . ولا يسبه أو يذكر عيباً فيه أو ليس فيه .

وألا يصطنع الأقوال أو المستندات نكاية به . بل عليه أن يحرض موكله على إنهاء الدعوى صلحاً إن أمكن .

وأن يترفق بخصمه إن كان يطلب أجلا للوفاء . وينصفه فى بعض ما يزعم إن كان على حق .

• • •

هذه هى وجوه الأمانة . وهى أعظم ما يتحلى به المحامى . . وإنه لحليف النجاح إن اتبعها ولو لم يكن موهوباً ولا فذاً ولا نابغة .

بل إننى أعرف محامين نجحوا وأصابوا صيتاً وشهرة وهم عاطلون من المواهب وكان أساس نجاحهم أمانتهم .

ليكن دعاء المحامى دائماً :

« رب اكتبنا دائماً من الأمناء . وأحينا أمناء . وأمتنا أمناء » .

« رب إنك تعلم شر أنفسنا . تعلم وغيرك لا يعلم » .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

انفعال المحامى

من الأقوال الخالدة . والراسبة فى ذاكرتى منذ سنوات طويلة ما كتبه جامبتا . الكاتب الفرنسى الخالد عن المحامى الفرنسى الخالد أيضاً (لاشو) .

وأجمل ما كتبه عنه هو ما صور فيه انفعال المحامى لاشو بظروف موكليه عامة . وكل موكل خاصة .

فقال « إن لاشو كان ينفعل بآلام موكليه وعذابهم . وكان انفعاله صادقاً فإذا صور هذا الانفعال فى مرافعاته استطاع أن ينقل إلى آذان القضاة ووجدانهم ما يحس به هؤلاء المعذبون فى الأرض من قسوة الحياة . وشدة وطأتها . وما يعانون من ظلم المجتمع . وذلك كله فى صوت كزئير الأسد وهزيم الريح حيناً . ومثل خرير الجدول العذب حيناً آخر » .

« إن لاشو قد هبط بذكائه وعلمه إلى حياة أولئك البائسين ممن يدافع عنهم . أولئك الذين قست عليهم الحياة . واشتط وعنف فى تعذيبهم المجتمع . وتأنق فى ابتلائهم القدر . هبط إلى الأنفاق المظلمة ثم رفع معه هذه الأرواح الضالة إلى عالم النور لكى يؤدى لهم رسالة الرحمة بهم فى ساحات القضاء .. » .

لقد وضع جامبتا دستوراً جميلاً للمحامى من حيث لم يدرى ولم يقصد . وضع هذا الدستور الخالد وهو يتحدث عن محام خالد . وما أحرانا أنا نفكر فيما قال جامبتا . وفيما كان عليه لاشو .

إن المحامى يعيش حياته فى ظل محرق من عذابات الناس . ويسبح فى بحر لجىّ من دموع أساهم . وليس مثله إنسان يغوص فى محيط الأحزان لأنه لا يلتقى فى الحياة إلا بكل مبتلى معذب . أو خائف فَزِع مروع . سواء كان صاحب حق مضيع . أو مساق إلى السجن أو المشنقة !

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وصاحب الحق المضيع يتألم ويتعذب بضيـاع حقه كما يتعذب المتهم خوف سجنه المظلم أو شنقه المنهى لحياة يحسب أن له الحق فى أن يحيـاها لنفسه أو ضماناً لغيره من أهله وذويه ومحبيه .

إن صاحب الحق يشعر بضياع الأمان حين يرى حقه مضيعاً . لأن الناس قد آمنوا بأن المال دائماً هو حصن الأمان.. حين فرغت قلوبهم من الإيمان بالله . وقليل من الناس من يتخذ عدة كفاحه فى الحياة وجُنّته من مصائب الدنيا إيمانه الوثيق بالله !

وعندما يضيع الأمان من قلب الإنسان لايجد أمامه إلا العذاب .. كالخائف من السجن والمتشبث بالحياة .

الانفعال :

الانفعال هو الاحتراق الداخلى الذى يحترق فيـه العقل والقلب والنفس والوجدان ثم تسير نتيجة لهذا الاحتراق الآلة التى تفـكر وتعبر .

والإنسان العادى ينفعل فى كل تصرفاته . غير أن المحـامى لا يعمل فى فنه كإنسان عادى لأنه يؤمن دائماً بأن وظيفته فى الحياة أن يكون مصدا ًللآلام ودرعاً للمتألمين . فإحساسه بالألم مضاعف .

ولقد نُصحت أول اشتغالى بالمحاماة — بما يُنصح به كل مبتدىء — بأن لا يأخذ عمله « جداً » فلا أتألم ولا أغضب ولا أثور . فإذا قضى بحكم ضد رأيى أو ضد موكلى فلا أهتم ولا أغتم .

وهى نصيحة تقليدية ينصحها القدامى للمحدثين المبتدئين لـكى يهوّنوا عليهم ثقل العبء .

ولـكنها نصيحة مرذولة ..

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

وهى نصيحة صاحب الصنعة لا صاحب الفن .

إذ كيف يبدى المحامى روائع فنه إذا لم يحس . إذا لم ينفعل . إذا لم يهتز وجدانه بحق موكله ؟ !

إن من أهم أسس نجاح المحامى أن ينقل انفعاله إلى القضاة . فإذا لم يكن منفعلا بالحق الذى يدافع عنه كان كالآلة الصماء التى تتكلم فينطلق كلامها جافاً ، ميتاً لا روح فيه ، وعند ما تصل إلى القاضى الذى هو أيضا عبارة عن نفس وقلب وعقل ووجدان ترتد عنه ، وتطيش فى الهواء .

إن الفن لا يتحرك ، ولا ينتج ولا يبدع إلا بالإحساس والانفعال .

وفن المحاماة كذلك ، بل إنه أكثر من ذلك ، لأن فن الشاعر والكاتب مقروء على ورق صامت ، وفن الرسام غير ناطق ولكن فن الموسيقى ، والمغنى والممثل فن ناطق . كيف يبعث اللذة الروحية ذلك الموسيقى بموسيقاه إن كان يؤديها وهو والآلة التى فى يده سواء ؟ ! . كيف يلحن الملحن أغانيه وهو يكتب « نوتة » سوداء الخطوط . ميتة العاطفة ؟

كيف يهزك الصوت الذى يغنى إذا لم يحس صاحبه بالعواطف التى تبعث بها حنجرته ولسانه ؟

إن الموسيقى الفنان الخالد هو الذى بكى قبل أن يُبكى لحنه . والذى أَنّ قبل أن تئن أوتاره ، والذى غمرت السعادة نفسه قبل أن تغمر مثانيه .

والمغنى الفنان الخالد هو الذى يشعر بالألم واللذة .

والممثل الفنان الخالد هو الذى ينسى شخصه و يعيش فى إهاب الشخصية التى يمثلها و يتمزق قلبه ندماً حين يكون من يمثله خاطئاً حتى ينفعل الجمهور بما يرى ويسمع منه فيبكى من أجله أو يلعن خطيئته .

وفى التاريخ ، وسيظل دائما فى التاريخ ، الفنان المغمور ، والموسيقى الفاشل

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

والكاتب الفاشل والشاعر الذى ينظم ولا يشعر فيفشل ويخمل ذكره ويفنى شعره ، والممثل الذى يبكيك حين تراه وتسمعه ويبكيك بعد تلاشى عشرات السنين حين تذكره .

وقد قال أوسكار وايلد مرة فى إحدى رواياته ـ ولعلها صورة دوريان جراى ـ إن الممثل الخاطىء المنغمس فى الرذيلة يُحسن أداء أدوار الفضيلة ويجيدها لأنه يعبر بتمثيله عما كان يجب أن يكون هو عليه من خلق .

والمحامى وهو فنان : فنه الحق ، والدفاع عنه ، ورد الظلم ، وإسعاد الناس والمجتمع بروائع فنه ، يكون محامياً فاشلاً إذا لم يحس بآلام الذين يدافع عنهم أو عن حقوقهم ، ويكون فناناً مبدعاً خالداً حين ينفعل بآلامهم وأمانيهم .

كم سمعت محامياً يقول « هؤلاء الموكلون — عليهم اللعنة . إنهم جاحدون لا يستحقون أن يثور المحامى من أجلهم !

وكم رأيت محامين يضحكون من ثورة زميل لهم لأن المحكمة لم تصل إلى فهم دفاعه وتقدير فنه .

وأذكر مرة كنا فى غرفة المحامين وكان بيننا زميل فاضل هو الأستاذ عبده حسن الزيات — وهو أديب كبير وذو خلق متين وكان يشكو من حكم صدر ضد موكله ، وكان حديثه يقطر ألماً . وإذا بزملائنا يضحكون منه بعد انصرافه . ويسخرون من اهتمامه بصدور حكم ضده . ويترحمون على أعصابه .

ولعلنى لم أره فى غرفة المحامين كثيراً من بعد ذلك .

وإنه من المحامين الذين كان يرجى لهم فى المحاماة أمجاد ولكنه آثر الانزواء والانطواء لشدة انفعاله وسمو عواطفه .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

انفعال وانفعال :

وأرجو ألا نخلط بين الانفعال الصادق وهو الاحتراق الداخلى الذى يشترك فيه العقل والوجدان والذى يولد الطاقة التى يتصرف بها المحامى . والذى يبدأ احتراقه من إيمانه بحق موكله .

يجب ألا نخلط بين هذا الانفعال . و بين انفعال الغضب . فإن الانفعال الأول هو أسمى ما يميز المحامى الفنان المخلص لفنه . ولفنه فقط . أما الانفعال الآخر فهو سورة الغضب التى ندعو المحامى أن يتوقاها وأن يبتعد عنها لأنها من أهم أسباب فشله . وهى من موارد تهلكته وضياع حق موكله . لأن المحامى إذا غضب لم يستطع أن يسيطر على تفكيره أو إحساسه . وأصبح صوتاً يعلو لا فناً يصور . وأضحى منفرداً لا تستمع إليه إذن . ووجد خصمه فرصة للنفاذ منها وعن طريقها إلى كسب دعواه .

إن الانفعال الصادق يتميز بالسيطرة على الأعصاب . وضبط النفس حتى يؤدى مهمته على أتم وجه .

كما نحذر أيضاً من الخلط بين هذا الانفعال الذى نقصده و بين تأثر المحامى بحديث موكله والطريقة التى يفضى بها إلى المحامى بما يمضه و يشكو منه .

فإن المحامى إذا صدّق موكله انحرف إلى وجهة دون الحق . وكم يفسد المحامى تأثره بأقوال موكله وتمثيله — وقد يكون غير صادق — وكثيراً ما يكون كذلك . وعادة يكون الموكل متوهماً حقه بصورة مضخمة إن كان له حقاً أو متوهماً وجوده من تأثير الإيحاء الذاتى .

ومن العجيب أن آلافاً ممن يبدأون دعاواهم وهم يعرفون أنهم مبطلون يصبحون على ممر الأيام معتقدين أنهم أصحاب حق !

ولذلك قيل لو أنصف الناس استراح القاضى .

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

أى أنه لو حاسب كل إنسان نفسه وراجعها فيما يدعيه هو وفيما يدعيه خصمه لاستبان أموراً كثيرة ولأدرك إن كان مبطلا أو على حق .

فالخطر إذن أن ينفعل المحامى نتيجة لتصديقه موكله . فيصبح متعصباً . والتعصب ذميم . يضل العقل ، ويعمى البصيرة .

كما أن المحامى يكون فى خطر إذا صدق دفاع المتهم وهو عادة يؤكد براءته ويؤكد أن التهمة ملفقة . وعادة يخترع خصومات وهمية هى التى دفعت بالمجنى عليه إلى اتهامه كأن يقول متهم بسرقة أو نصب على سيدة أنها كانت على علاقة غرامية به وأنها تدعى عليه ذلك انتقاماً لهجره إياها . .

وقد يكون هذا القول مجرد افتراء فإذا نقله المحامى متعصباً إلى المحكمة كان مرتكباً جريمة أخلاقية لا تتفق وفنه القويم .

أو أن يقول المتهم لمحاميه إن بينه و بين العمدة أو ضابط البوليس أو وكيل النيابة خصومات شخصية . والناس يتفننون فى خلق هذه الأكاذيب . ويندفع المحامى بانياً دفاعه على تجريح العمدة ورجل البوليس أو وكيل النيابة . بعد تجريح الشهود . ويكون بذلك متعصباً أعماه التعصب عن الحق ، ولعله لو انصرف إلى الحقائق لكان مفيداً ودفاعه مجدياً .

ومن هنا نشأت عادة مهاجمة المحامين لرجال البوليس و إلصاق التلفيق بهم ، والادعاء عليهم بالكذب وشهادة الزور .

و إننى أعتقد أن هذه العادة — عادة مهاجمة رجال البوليس — عادة غير سليمة . وأريد أن أقول شائنة . فهى شائنة لأن فيها ظلماً لكثير من رجال البوليس الشرفاء الذين يؤدون واجبهم بإخلاص وأمانة .

حقيقة إن هناك رجالا منهم يلفقون . والكثير منهم يلفقون وهم واثقون أن المتهم مرتكب حقيقة . ولكن لما كانت الأدلة عليه ضعيفة متهافتة فهم

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

يؤكدونها ويؤيدونها . . وهو عيب فعلا . والقليل منهم كباقى البشر قد يتأثر بضغينة أو كراهية . أو يكون مدفوعاً بمجاملة .

ولذلك وجب أن تتهمهم حيث يكون الاتهام صادقاً ونعف عن الاتهام حين لا يكون صادقاً .

والعجيب أن المحاكم أصبحت تعتبر مهاجمة الدفاع للبوليس أمراً تقليدياً . وعادة ثابتة . ولازمة من مستلزمات « المهنة » ! وبذلك ضاع كثير من الاتهام الصحيح فى غمرة الاتهامات غير الصحيحة .

أذكر مرات نجحت فيها زملائى الذين كان صالحهم كصالحى فى القضية . وكانوا يترافعون على أساس إتهام البوليس بالتلفيق وخاصة فى قضايا المخدرات . حتى إذا ما وقفت للادلاء بمرافعتى بدأتها بالثناء على مجهود رجال البوليس ثم قدمت الأوجه التى أراها جديرة بتبرئة موكلى .

وكما كنت أشعر بضيق زملائى كنت ألمس راحة المحكمة .

كنت أدافع فى قضية أمام محكمة عسكرية من محاكم الحدود . وكان من الأدلة التى قدمها الإتهام ضد المتهمين شهادة قصّاصى الأثر من رجال الهجانة . وقام زملائى المحامون يوجهون الاتهام إلى هؤلاء . يرمونهم بالتلفيق . ثم أخذوا يكذبون فراستهم ويعتبرونها خرافة .

فلما جاء دورى أثنيت على قصاصى الأثر وعلى سلاح الهجانة وقدمت أسفى لزملائى واعتذارى لمخالفتى إياهم فى الرأى الخاص بحقيقة فراسة هؤلاء . وضربت ما حضرنى من الأمثلة فى تاريخ الأدب العربى . ثم فرضت صحة ما وصلوا إليه . وأوضحت أنه لاقيمة له بالنسبة لموضوع الإتهام وقلت: «لنفرض أن آثار المهربين . ومحرزى السلاح وصلت إلى النجع وإلى دور هؤلاء فأين الدليل على أنهم هم هربوا سلاحاً أو مخدرات » ؟!

وبدا الارتياح على وجوه الضباط — القضاة — و بعد انتهاء الجلسة دعانى الرئيس وشكرنى وفهمت منه أنه مدير سلاح الهجانة وأنه مدرس علم قص الأثر !

* * *

إذن فواجب المحامى أن لا يأخذ كلام موكله حجة ويتعصب له . و إنما يتقصاه . ويبحثه ويناقشه . حتى تتضح له الحقائق التى إن بنى عليها دفاعه استوجبت احترام سامعيه وتقدير قضاته .

وعلى ذلك نحذر المحامى من أن ينفعل الانفعال الأعمى بما يسرد موكله وبالطريقة التى يسردها به .

وكم من مرة بكت امرأة وقالت مظلومة وهى جانية آثمة . فليعرف المحامى معنى الدموع وأنها ليست دائماً دموع المظلومات و إنما هى عادةً دموع الآثمات النادمات . فإن الندم يُجرى الدموع من المآقى بأسرع وأقوى مما تجريها آلام الظلم .

* * *

إذا استمع المحامى إلى صاحب الدعوى أو المتهم أو أهل المتهم ومحص هذه الأقوال ثم قرأ الأقوال الصامتة ، وحدثها وحدثته ، ثم أيقن بصحتها وآمن بصدقها عندئذ يحدث انفعال المحامى الفنان . الانفعال الصادق الذى يسير به فى طريقه نحو الهدف : وهو الحق . وهو بانفعاله الصادق سيؤثر حتماً فى قضاة قضيته لأن المعروف أن ما يخرج من القلب يدخل مباشرة إلى القلب . — أما المحامى الذى لم ينفعل بحق موكله فإنه يصبح ممثلاً يلقى كلمات المؤلف صنعة ومصيره الفشل ، وكذلك الذى يؤمن بحق موكله ولكنه لا ينفعل به ، إنه صاحب صنعة يؤدى ما يسميه واجباً وليس للأمر عنده أهمية أكثر من أن يقبض مقدماً ! ثم يقبض مؤخراً أو لا يقبضه !

وليست هذه هى رسالة المحامى ، ولا هى غايته ، ولا هدفه ، ولا لذلك وجدت المحاماة . إنما نشأت لغاية أسمى . وهدف أنبل !

* * *

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

انفعال المحامى بآلام المجتمع :

يجب أن يكون المحامى على صلة بالمجتمع الذى يعيش فيه . و يدافع عن أفراده و يجب أن ينفعل بآلام هؤلاء و بؤس حالهم ، و إلا كان ممثلاً فاشلاً .

كنت أنتظر قضيتى فى إحدى محاكم الجنايات بمدينة فى الصعيد الأعلى . وكانت تنظر أمامى قضية متهم فيها شاب بقتل أخته لسوء سمعتها وكان فارع الطول . وكان فى أجمل أيام عمره ، وسيماً ، قوياً . وأخذت أنظر إليه وأنا أرثى لهؤلاء البائسين ضحايا المجتمع الذى يأخذ بالشائعات ، ثم يعيّر الذى يسكت على الإثم المبنى على كلمة آثمة قد يكون نطق بها لسان حاقد مغيظ .

هذا المجتمع الذى لا يرحم . والذى يضطر مثل هذا الشاب الذى قد يكون أصلا كريم الخلق مستقيماً جاداً مجداً يشق طريقه فى الحياة ، والذى قد لا يكون فكر لحظة فى حياته أن يقتل دجاجة ، المجتمع الذى يضطر مثل هذا الشاب أن يتجرد من إنسانيته و يقتل فى قلبه عاطفة الأخوّة و يمسك بأخته التى شاركها أحشاءً واحدة و ثدياً واحداً وطالما لعبا معاً وتحاضنا ، وكم كان يحلم بأن يزفها إلى عريس كفء . وأن يجهز لها أثاثها و يقيم لها فرحاً . ولكنه بالعكس يمسك بها و يذبحها بيده و يطاوعه قلبه ، وترضى نفسه !

كنت منفعلا ببؤس هؤلاء الضحايا لأننى مثلهم صعيدى وفلاح ونشأت فى بيئة ومجتمع لا يرحمان ! ولا يتسامحان ! ثم تلفت منصتاً إلى المحامى المدافع عنه فوجدته يتحدث فى هدوء وتراخ ، وكأنه يقص نكتة بائخة سمجة ! ثم انتهى طالباً استعمال الرأفة بغير تقديم أسباب لهذا الطلب !

وكان رئيس المحكمة قاهرياً لم ينفعل بآلام مجتمع الصعيد فنادى المتهم فى القفص الحديدى قائلا له :

« يا ولد : مش حرام تقتل أختك مع أن الطبيب الشرعى أثبت أنها عذراء ! »

ثم أبدى تعجبه مما وقع عليها من ظلم . . ولم يجب المتهم . وقامت أمه . . وأمها وهى امرأة عجوز وقالت للرئيس « العرض « واعر » يا بيه ..

ورد عليها الرئيس :

« يا ستى بنتك كانت عذراء .. الطبيب الشرعى أثبت ذلك » .

وهى ترد ولا تفهم ما معنى الطبيب الشرعى :

« لا يا بيه بنتى كانت تستاهل ... العرض واعر »

وأدركت أن فى رأس الرئيس فكرة أن يعطى درساً لمثل هؤلاء الناس الذين يقضون على الأرواح البريئة لمجرد الإشاعة .. ولم أفق من انفعالى إلا وأنا واقف أقول :

« أنا منضم لزميلى فى الدفاع . .

و بدأت بعد ذلك أقول :

« إن مثل هذا الشاب الذى يقدس العرض كما يقدسه أفراد المجتمع الذى يعيش فيه والذى عبرت عنه الأم بأنه « واعر » أى قاس ... مثل هذا الشاب يكفيه أن يسمع كلمة تمس عرضه حتى يذهب عقله . و يفقد أعصابه . فليس لديه مايفكره بالطبيب الشرعى ولم يبق عنده بقية من عقل تميز بين الحقيقة والإشاعة ..»

واستمررت ساعة أرثى لمثل هذا الشاب . وأبكى الضحايا والقتلة فهم فى البؤس سواء .. وسمعت بكاء ونحيباً بين السامعين .

وخرجت من الجلسة وأنا لا زلت فى ذروة الانفعال..و إذا المحامون زملائى يتدافعون ورائى وهم أيضاً منفعلون .

وفى القطار ونحن عائدون إلى القاهرة قضيت السهرة مع المستشارين نتحدث فى هذه القضية . وكانوا قد أصدروا حكماً مخففاً وقال لى الرئيس :

دار المحامي للإصدارات القانونية
تأسست في ٢٠١٨
المحاماة علم وفن وعمل

« على كل حال أنت ربنا أرسلك لهذا الشاب فقد كدت تبكينا . وقد تصورنا أنا وزملائى أنك كنت تترافع عن نفسك وأدركنا أنك لو كنت مكانه لفعلت مثل ما فعل ! »

فقلت له :

« للأسف هذا صحيح ! »

* * *

هذا مثل صارخ لانفعال المحامى بالمجتمع الذى يعيش فيه البائسون والضحايا الذين يترافع عنهم والذين عناهم جامبتا حين تحدث عن لاشو وهو يهبط إلى أزقتهم الحقيرة وإلى مخابئهم المظلمة وينفعل ببؤسهم وآلامهم .

نبالة المحامى والمحاماة

سمعت فى إحدى الجلسات محامياً فى صدد الدفاع عن موكله يذكر خصمه بنعوت وأوصاف مرذولة . وكان أقسى ما نعته به أنه أعور العين أعرج وأنه جبار فى خصومته لأن كل ذى عاهة جبار .

وتطلعت إلى وجه الخصم الذى رُمى بهذه الشتائم فوجدته قد انهار وأغضى ببصره إلى الأرض وأحسست بإنسانيته تهتز ألماً ورأيته كأنما جراحاً قد انبثق منها الدم وسال على وجهه فى صورة انفعالات وأحاسيس .

وفكرت فيما أفاد المحامى من إصابة خصمه هذه الإصابات المصمية ولو أن دفاعه خلا منها لما نقص شىء من أركان هذا الدفاع ولا وهنت قوته .

وسمعت يوماً محامياً يدافع عن متهم سارق دخل منزلا فى غسق الليل وضُبط متلبساً فإذا به يتهم صاحبة البيت فى عرضها ويوجد صلة وهمية تربط ما بين هذه السيدة الطاهرة الآمنة فى بيتها و بين الطارق السارق .

وكان هذا الحديث مؤلماً إلى حد أن بدا الاشمئزاز على القاضى الذى يسمع . ولكن لا شك ولا مراء فى أن الأمر لم يخلو من تصديق بعض الحاضرين .

وفكرت فى أن هذا المحامى يعلم علم اليقين أن ما زعم كذب لا أساس له وأنه و إن كان بذلك الإفتراء يحاول أن ينقذ المتهم الذى يدافع عنه من تهمة ثابتة عليه إلا أنه كان غافلا عن أنه بمحاولته تبرئة سارق قد ارتكب هو نفسه جريمة ضد إنسان برىء . ولو أنه ألقى نظرة إنسانية على تلك السيدة البريئة ورآها وهى واقفة خلفه وقد جللها العار واصفرّ وجهها من أثر انفعال الغيظ والقهر والكمد . ورأى زوجها وهو على ثقته بزوجته وعلى يقينه من كذب هذا الافتراء قد تلجلج الشك فى نفسه كأثر من آثار الضعف الإنسانى . ورأى أولاد هذه السيدة ومنهم اليافع الذى يؤذيه أن يسمع عن أمه هذا الاتهام البغيض و يؤذيه أكثر أنه لا يملك الدفاع

عن أعظم عرض يقدسه لأن يده لا تطول المحامى وهو فى موقف الدفاع .

لو ألقى المحامى هذه النظرة الإنسانية واستشف عدد من أصاب بسهمه المسموم وأثر إصاباته فى نفوس هؤلاء الأبرياء لأدرك أية جريمة قد ارتكب ! ولوجد أن كفتى الميزان قد اختلتا بين وزن رغبته فى تبرئة موكله و بين ارتكابه جريمة أشنع من تلك التى يدافع عنها . وللخجل وانهار !

وحضرت مراراً قضايا متهم فيها خادمات بسرقات من بيوت مخدوميهن فيلجأ المحامون إلى التشكيك فى التهمة بمحاولة إثارة الظنون حول علاقات آثمة بين الأزواج وهؤلاء الخادمات ومحاولة تبرير الاتهام بغيرة الزوجات من العلاقات الآثمة المزعومة .

ورأيت كيف يغلب الأسى على هذه العائلات الآمنة يصيبها الاتهام فى شرف الزوج وكرامة الزوجة . وكم تصورت ما يخالج نفوس الزوجات من الشك بعد ذلك فى أزواجهن وما يفسرن به كل حركة قد تصدر بريئة ولكنها على ضوء الاتهام الذى وُجه تصبح آثمة . وقد ينتهى الأمر فى كثير من الأحيان لى تهدم أعشاش الزوجية الآمنة المطمئنة .

* * *

بعثت فىّ هذه الأمثلة وغيرها التى شاهدتها وسمعتها متفرقة وفى أزمان متباينة بعثت فىّ التفكير فى موقف المحامى من خصوم موكله .

هل يكون خصما نبيلا و يتصرف تصرف الخصم الشريف الذى يفهم من معانى الحياة العامة أن فيها خصومات واختلافات فى وجهات النظر ولكن حسن السلوك أوجب كما أوجب التشريع السماوى أن يكون الإنسان شريفاً فى خصومته شريفاً فى صداقته .

لقد بدأت الخصومة منذ بدء الخليقة وتشكلت أسلحتها بصور مختلفة وتلونت بألوان متباينة مع العصور المتعاقبة . فكان انسان الغاب إذا خاصم ضرب

وقتل . ثم عرف الناس المجتمع والقوانين وتهذبت طباعهم فتهذبت خصوماتهم وطرق مخاصمتهم . ثم عرفوا الاحتكام إلى القضاء ومقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل وأصبح المحامى هو المتولى الهجوم والدفاع فى حرب الحجة والإقناع . وكانت المحاماة مهنة الشرفاء يتولونها دفاعاً عن الضعفاء والفقراء . وكان أزهى عصور المدنية هو عصر الفروسية الذى كان يتبارى فيه الفرسان فى سباق الخصومات الشريفة حتى عرف فى هذا الوقت مايسمونهم باللصوص الشرفاء . ودلالة ذلك أن حتى اللصوصية وهى جريمة قد وجدت من يرتكبها وهو شريف القصد نبيل الهدف .

ما أجدى أن تكون المحاماة هى فن الفروسية من ناحية نبلها وشرف مقصدها !

١ — *موقف المحامى من خصمه :*

يجب ألا يناله بكلمة قذف أو بعبارة نابية أو بتعييره بعاهة فيه أو بإثارة الشكوك نحو سلوكه أو محاولة الاساءة إليه بوصف أو بنعت يكرهه وتكرهه كل أذن عن نفسها فإن بعض الألفاظ والعبارات والاختلاقات قد تكون أشد أذى من فقدان الحق فى ذاته .

وعمل المحامى يتصل بأدب التعبير وأدب التعبير متصل اتصالا وثيقاً بأدب النفس فما أجمل أن يذكر المحامى خصمه بجميع النعوت الجميلة ويحفظ له ألقابه ويحفظ له كرامته فى الوقت الذى يفند فيه حججه ويدحض أسانيده ويهدم القائم من بنيان مزاعمه .

وإننى لا أستطيع أن أفلت هذه المناسبة دون أن أؤكد أن أكثر من عرفتهم من كبار المحامين الذين كبروا وعلوا لم يعلوا بعلمهم ولا بفنهم وحدهما ولكن بأدبهم وسمو خلقهم فى معاملة خصومهم فأذكر « أحمد لطفى — مرقس حنا — مرقس فهمى — ثم أذكر أستاذى « محمد على علوبة » وادوار قصيرى — وأحمد رشدى — ووهيب دوس » .

ولا أنسى من الأحياء عبد الرحمن الرافعى — على بدوى — محمود جندية وغيرهم من لا تحضرنى أسماؤهم الآن .

هؤلاء كانوا دائماً فى الصفوف الممتازة من المحاماة فى عصورها وكانوا ولا زالوا يمثلون عصر الفروسية بنبالته وشرفه .

ولا أستطيع أيضاً أن أنهى هذا الفصل قبل أن أثبت قول الله سبحانه وتعالى فى الآية الشريفة .

« وادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم »
صدق الله العظيم

وظاهر أن عمل المحامى هو دفع وأن الله يوصى المحامى وغيره بأن يدفعوا بالتى هى أحسن وما الحسنى فى هذا المقام إلا أدب التعبير ونبل الخصومة وشرف التعبير والتصرف . وهنيئاً لمن فاز برضاء الله متقياً إياه سبحانه وتعالى فى عباده .

كما يحضرنى أيضاً قول المسيح عليه السلام :

« أحبوا أعداءكم وصلّوا من أجلهم » .

ولا ريب أن المرء عندما يحب عدوه لا يصطنع معه إلا أسلوب الود وهو نبل وشرف .

٢ — نجدة الملهوف :

كل صاحب قضية مهما صغرت ملهوف . وهو عندما يقصد مكتب المحامى يحس كأنه يأوى إلى حصن يحميه و يرد عنه غوائل الأحداث والزمن و يصد عنه نبال أعدائه . وقد وجب أن يجد هذا الملهوف من مكتب المحامى نفس المعنى الذى جال بخاطره وهدف إليه .

ويؤسفنى أن أقول إنه و إن كانت بعض مكاتب المحامين الذين فهموا المحاماة فناً جميلا وميداناً للفروسية النبيلة تمثل للقاصدين هذا المعنى فان كثيراً من

المكاتب لا يرى أصحابها فى صاحب الدعوى الملهوف الذى يلجأ إلى رحابهم ويحتمى بجاههم إلا قنيصة يحاولون الإمساك بها ويجهدون لاستغلالها وامتصاص آخر قطرة من دمائها . ويبذلون كل مجهود ليحولوا دون إفلاتها من بين أيديهم بالحق أو بالباطل . فإذا كانت القضية خاسرة فإنهم يؤكدون كسبها . وإن كانت متداعية وصفوها بأنها مضمونة . وإن كانت سهلة جعلوها صعبة يعوزها المجهود الكبير . وبذلك يضاعفون لهفة الملهوف ويزيدون ضيقه ويثيرون كربه .

وتحضرنى حكاية مضحكة — رواها لى أحد قدامى المحامين من أنه قد جاءه رجل ومعه إعلان حضور لمحاكمته طبقاً للمادة ٣٧٨ .

ويقص المحامى الكبير ، أنه عندما قرأ الإعلان ونظر إلى الموكل وجده فى حالة فزع فأخذ يضرب كفاً على كف ويقول :

« جزاهم الله ! ألا يكتفون بمادة أو اثنتين أو عشرة فيطبقون عليك ٣٧٨ مادة مرة واحدة دون رحمة بك وشفقة على شيخوختك ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! .. يا منجى يارب ! » .

ويستمر المحامى فى قصته قائلا :

إن الموكل قد اشتد فزعه وزاد هلعه وأخرج من جيبه حافظة نقوده واستل منها مائة جنيه وسلمها للمحامى مقبلا يده مسترحماً إياه راجياً منه أن يحضر بنفسه ، وقد رد عليه المحامى فى إشفاق يحذّره من الحضور إلى المحكمة لئلا يقبض عليه إذا حكم عليه بالسجن . ويستمر أيضاً المحامى يقول إن الرجل لم يحضر الجلسة وحكم بغرامة المخالفة ودفعها المحامى من جيبه ثم زف البشرى إلى الموكل ببراءته وقبض المؤخر مائة جنيه أخرى ! ! !

هذا مثل مضحك ولكننا سقناه لأنه معبر عن حالة واقعة وصورة ظاهرة واضحة لما قد يصنعه المحامى بموكله . ولا أنسى أننى وأنا محام صغير ذهبت مع بعض موكلى إلى محاميين كبيرين فى ليلتين متتاليتين لنعرض على كل منهما قضية

جنائية كبيرة رغب موكلىّ فى توكيلهما معى ضماناً لكسب الدعوى .

أما الأول فبعد أن استمع إلى موضوع القضية طلب مهلة لدراستها ثم أخذ يدير حديثاً جميلاً عن أحكام القضاء والقدر وعن إرادة الله النافذة . وكان حديثاً شيقاً أخذ بألباب أصحاب الدعوى حتى بث فى نفوسهم الطمأنينة وأنزل فى قلوبهم السكينة و بعث فيهم الأمل الممزوج بالرضاء بقضاء الله .

أما الآخر فقد جمع — بعد أن سمع موضوع الدعوى — كل مصائب الدنيا وكروبها وصبّها على رأس المتهمين وأولياء المتهمين وأخذ يهوّل فى الأمر ويبعث الرعب فى نفوسهم و يعظم من البلاء المحتمل وقوعه نتيجة لعدم استعداد أعضاء دائرة الجنايات لتفهم مثل هذه القضايا العويصة إن لم يكن هناك مجهود كبير يبذله المحامى ، ثم طالب فى هذا الجو القاتم بأتعاب مغالى فيها . وضربنا له موعداً فى الغد وخرجنا وأولياء المتهمين تمتلىء نفوسهم يأساً . أما أنا فأخذت أقارن بين الرجلين وخرجت بنتيجة لا تزال تعيش فى ذهنى من وقتها إلى الآن . وهى أن الصدق فى تقدير الظروف والعدل فى تقدير الأتعاب دعامتان قويتان فى السياسة التى يجب أن يتبعها المحامى فى معاملة أصحاب الدعاوى .

إن المبالغة لا تتفق مع الصدق الذى يجب أن يتحلى به المحامى لأنها نوع من الكذب ، والكذب رذيلة لا تتفق وشرف المحامى ونبالته . وإنها أى المبالغة لا تعيش طويلاً فالناس سرعان ما يكشفون الحقيقة بعد أن تهدأ نفوسهم من أثر المبالغة فينظرون إلى المحامى نظرة لا تتصل من قريب أو بعيد بالاحترام والتبجيل . و إن بعضهم قد يتأثر نفسياً أو جسمياً بالهزة التى تنتج عن حديث المبالغة .

أما المحامى الصادق فإن أول ما ينال من أجر هو احترام موكليه وتقديرهم ومهما وقع بعد ذلك من خسران الدعوى أو جحود الموكلين وعدم إنصافهم إياه من الناحية المادية فإنه يظل دائماً فائزاً باحترامهم وتقديرهم وثقتهم .

فالمحامى الذى يكسب كل يوم الاحترام والتقدير والثقة يكتنز بعد فترة من الزمن كنزاً لا يفنى .

وهنا يختلف رأيه :

فرأى يقول بأن من يسلك هـذا السبيل قد يبطىء عليه الـكسب المادى وقد ينفر منه الناس فيقعد ملوماً محسوراً .

ورأى يقول إن المـال وسيلة وليس غاية وهو إن جاء عن طريق شريف يكون محبباً ، وإن جاء من طريق ليس شريفاً كان بغيضاً . وسيئاً فى وسـيلته وسريعاً فى ضياعه . وهو على أى حال ليس هدفاً ولا غاية إلا عند الذين يصابون بمرض جمع المال وهو مرض كريه ولا يجد حتى من المصابين به من يتحدث عنه بتقدير وإعجاب .

والمال أيضاً غاد ورائح ولا يكون فى وجوده لصـاحبه حسنة إلا إذا آمن صاحبه بأنه آت عن طريق شريف . وإذا ضاع كان ندم صاحبه عليـه أقل من ندمه على طريقة كسبه !

أما الباقيات الصالحات فهى خير عند الله وعند الناس ثواباً وذكراً وهى خيرٌ عقبى .

وإننى لا أتفلسف ولا أعطى صوراً خيالية أو أتعلق بمثل عليا تعجبنى صورها فتضلنى عن الحقيقة «العملية» . وإنما أؤمن بعد تجربة طويلة مع نفسى ومع زملاء عاشرونى أن رأس مال المحامى الشريف لا يدر عليه ذكراً طيباً فقط وإنما يدر عليه أخلاف الرزق ويوسع له فى كسبه نتيجة للثقة به والإيمان بنزاهته وصـدقه وإخلاصه .

فمن أراد المال ولا تثريب عليه فليسلك السبيل المؤدى إليه وإلى الذكر الطيب أيضاً وبالإخلاص والصدق والأمانة . وهذا الطريق قد يطول قليلاً ولـكنه فى النهاية يصل بصاحبه إلى الـكسب المادى علاوة على الـكسب الأدبى والروحى وهنيئاً لمن جمع بين الحسنيين .

وإننى أؤمن إيماناً ثبته الزمن وأرسته التجاريب وهو ثمرة تفـكير ودراسة

وإيمانٍ بالله و بالمثل العليا أن المـال الحرام لا يبقى ولا يُبقى ما اختلط به من مال حلال وأن صاحبه منتهٍ حتماً إلى شر حال . ومثله كالذى ذُكر فى القرآن فى قوله سبحانه وتعالى « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه وقال ما أظن أن تبيد هذه أبداً » .

ثم قال وقوله الحق : « وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً . واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » صدق الله العظيم .

ولـكم رأيت من محامين أتقياء طاهرين بارك الله لهم فى مالهم وإن كان قليلا بالستر و باستغنائهم عن الناس تحسبهم أغنياء وكأنهم ملـكوا الدنيا جميعها .

وكم رأيت محامين كسبوا مالا وفيراً واقتنوا من عروض الدنيـا كثيراً ثم أحيط بثمرهم فانتهوا نهاية سيئة مؤلمة .

فإذا أردت صلاح دينك ودنياك أيها الزميل المحامى ، فـكن أميناً فى تقدير ظروف الدعوى فإن وجدتها قضية خاسرة فلا تظلم الذى جاءك تحدوه الثقة بك والأمل فيك والاستسلام إلى أمانتك وقل له إنها قضية خاسرة واخسر الأتعاب التى كنت تؤمل فيها واكسب رضاء ربك إذ اتقيته فى عباده . ورضاء ضميرك ورضاء الناس من بعد . وأقول من بعد لأننى واثق أن هذا الذى ترده عن السير فى القضية الخاسرة يلجأ إلى غيرك ثم يخسر قضيته و يخسر ماله ووقته وأعصابه . فيتذكر نصيحتك و يذكر فضلك عليه و يقارن بينك و بين الذى أسلـكه طريق الخسارة و ينتهى إلى تقديرك واحترامك فيلجأ إليك مرة أخرى و يدفع إليك الناس مزكياً إياك عندهم .

إن جزاءك أيها المحامى الصالح يأتى لك من عند ربك وعند الناس وهو مهما أبطىء آت إليك لا ريب فى ذلك .

الثقة بالنفس والغرور

إن من أهم مقومات الشخصية ثقة المرء بنفسه . فإنها تضفى عليه مظهراً يوحى للناس باحترامه وتقديره . ويدفعهم إلى التعامل معه والوثوق به . وتحيطه بهالة من القوة بحيث ينصت له السامع إذا تكلم ، ويخشاه إن غضب ، ويؤمن بكلامه ويصدق حديثه .

وهى أيضاً من دعامات النجاح فإنها إذا تمكنت من المرء محت تردده وخوفه ، وأغرته بالإقدام والشجاعة ، وعاونته على اقتحام الصعاب ، وثبتت أقدامه بالصبر حين تزعزع الحوادث وجدانه .

ولما كانت حاجة المرء إلى الثقة بنفسه تكبر وتضؤل بمقدار معاملته للناس أو بعده عنهم . وتعرضه للعمل العام أو انزوائه بعيداً عن الأضواء والأنظار .

ولما كان المحامى يعمل فى زحمة الحياة . يعامل الناس ويعاملونه . وعلى قدر نجاحه فى المعاملة يكون نجاحه فى فنه .

فهو إذن أحوج الناس إلى الثقة بنفسه .

لمست فى المحامين الشبان الذين قضوا مدة تمرينهم بمكتبى أنهم يتهيبون الوقوف أمام القضاة . ويحاولون فى الأيام الأولى التخلص مما يركن إليهم من قضايا .

وقد خططت لنفسى طريقة فى تمرين المحامين — أعتقد أنها أفلحت إلى حد كبير وإلى حد افتخارى بهم — ومنهم الآن كثيرون من المستشارين ورؤساء المحاكم ورؤساء النيابات والقضاة والمحامين والموظفين الإداريين وكلهم لامعون .

وهذه الطريقة أفصلها فى باب « المحامى فى مكتبه » . غير أننى ألمح لها

تلميحاً فأقول إنى وجدت أن خير علاج لتردد المحامين المتمرنين وخير دواء لتهيبهم الوقوف أمام القضاء أن أسلك معهم الطريق الذى اتبعته مع أولهم .

أعطيته قضية هامة وسألته أن يقرأها . فقرأها وعرضها علىّ .

فأبنت له وجه النقص فى دراسته إياها فعاد إلى دراستها ثم جاءنى بصورة أوسع ، فنبهته إلى البحث القانونى فيها فبحثه وجاء يتحدث عنها فخوراً .

فأفهمته أن هناك جوانب لا تزال غامضة . . .

واستمرت الدراسة والامتحان أياماً حتى عرفت أن القضية قد نضجت فى عقله وفى نفسه ووجدانه .

ثم قلت له :

« إنك بعد غد ستقف أمام القاضى وسترافع . . .

أرجو من الآن أن تقارن بين موقفك و بين موقفه :

إنه لم يقرأ القضية بعد لأن مهمة القاضى عادة أن يقرأها لكى يحكم فيها بعد أن يستمع إلى الخصمين .

وأما أنت فقد قرأتها و بحثتها وحفظتها وأصبحت بالنسبة لك كأى شىء سهل.

إن لدى القاضى عشرات القضايا بعد غد .

أما أنت فإن لديك قضية واحدة .

وفرق بين من يدرس عشر قضايا ومن يدرس قضية واحدة .

إنك بعد غد ستقف كالمارد بين يديك السلاح معد مجهز مهيأ » .

وأحسست بأننى قد ملأته ثقة بنفسه . وفى يوم الجلسة دلفت إلى الصفوف الأخيرة وجلست مترقباً . فإذا به يقف منتصب القامة مرفوع الهامة يتحدث فى

وثوق . وفى ثبات وكان رئيس الدائرة مجادلا ممن يحبون المناقشة فصمت لأنه أحس أن المحامى الشاب متمكن من قضيته .

وانتهى المحامى الشاب من مرافعته وخرج فلحقنى وإذا بوجهه يسألنى فى صمت ماذا رأيت :

فقلت له :

« لقد أجدت إلى حد أن كل من سمعك اعتقد أنك محام قديم وقدير ... » .

وفعلت هذه العبارة فعل السحر فيه . وهو اليوم من ألمع رجال القضاء .

* * *

ومنذ سنوات رأيت محامياً شاباً يترافع فى هدوء وثبات . وقد لانت قضيته فى عقله وعلى لسانه فناديته بعد أن انتهى من مرافعته وأثنيت عليه وشجعته . وقد كان عند حسن ظنى فقد تقدم سريعاً وأصبح اليوم نجما لامعاً فى المحاماة .

* * *

وبالعكس أجد كل يوم محامين قد فقدوا الثقة فى أنفسهم فهم يترافعون كأنهم يؤدون حملا ثقيلا يكاد ينقض ظهورهم ، وسرعان ما يرتج عليهم . وحين يناقشهم القضاة يبين أنهم ينهارون وحين يقاطعهم زملاؤهم يثورون ثورة الخائف لأن الواثق لا يثور . وعندما يهمس أحد زملائهم بعبارة فى موضوع القضية يتلقفونها ويكررونها كما يتلمس اليائس الغريق قشة عائمة لعلها تنجيه من ابتلاع اليم .

هؤلاء الذين فقدوا ثقتهم بأنفسهم كثيرون .

وهم فاشلون أو هم فى طريقهم إلى الفشل .

وفقدان الثقة بالنفس مرض نفسى يعالج وينجع فيه العلاج بل إن العلاج يحسمه ويجعله نسياً منسياً .

وأول توجيه إلى كل محام يحس عدم الثقة فى نفسه أن يحضّر دعواه

تحضيراً كاملا وأن يصبر على القراءة والبحث . وأن يجعل القضية التى بين يديه كأنها رسالة لنيل الدكتوراه فلا يترك شاردة فيها إلا ويجمعها فى عقله ووجدانه . وأن يكتب دفاعه فيها قبل أن يترافع — كما بينت فى موضع آخر من هذا الكتاب .

وعليه — حتماً مقضياً — أن لا يحضر فى أى قضية حتى لو كان مصيرها التأجيل إلا وهو متمكن منها .

فإذا كان متمكناً من قضيته غلبت الثقة بالنفس ما ينتابه من ضعف أو تردد أو خوف . و بدا فى الجلسة هادئاً ذلك لأنه مطمئن . ومطمئن لأنه متمكن ومستعد .

كن مستعداً :

من المبادىء التى يتلقنها الكشاف عبارة « كن مستعداً » . والكشف طريقة لبث روح الإقدام والشجاعة والثقة بالنفس والاعتماد على النفس والتعاون ومساعدة الغير .

وهى مبادىء تقرب من مبادىء المحاماة كثيراً .

و إن المبادى التى يلقنها الكشاف و يضعها فى شارته دائماً هى دعوة إلى النجاح : « كن مستعداً » .

فإن الإنسان إن كان مستعداً كان شجاعاً . وكان متمكناً . وكان واثقاً من نفسه . وكان متهيئاً للفوز والتغلب على الصعو بات .

وأنا أقولها للمحامى : « كن مستعداً » .

فإن كان المحامى مستعداً فى قضيته كان ثابتا وهادئا ، ولا سبيل إلى غمزه أو التغلب عليه بإثارة أعصابه .

و إذا كان المحامى دائماً مستعداً فإنه يوما بعد يوم ، وفوزاً بعد فوز يكتسب ثقته بنفسه ، فإنه مران ينتهى حتما إلى خلة أصيلة .

فاقد الثقة :

ولا خوف على فاقدى ثقتهم بأنفسهم فإنها صفة تـكتسب ، و إذا أضاف المحامى إلى استعداده ، إيمـانه بالله ، و بأن مصير كل شىء إلى قدر الله ، فليس كسبه أو خسارته القضية متوقفين فقط على مجهوده أو على تقدير القاضى و إنما على قدر الله .

وأضاف أيضاً أن رزقه ليس محدوداً مرسوما بالقضية التى يترافع فيهـا إنما متوقف أيضاً على قدر الله .

و إذا أضاف أيضاً إيمانه بفنه فإنه يكتفى — مستريحـاً — بأدائه لواجبه بصرف النظر عن النتائج .

وأضاف أيضاً إيمانه بعدالة قضيته فليس بمضعف للثقة بالنفس كأن يترافع المحامى عن قضية هو مؤمن بأنها خاسرة .

و إذا أضاف أيضاً إيجاد علاقة الاحترام والود بينه و بين الذين يتعامل معهم كالقاضى ووكيل النيابة والمحامين زملاءه وكتبة المحامين وكتبة المحاكم وحتى السعاة فإنه يشعر بأنه يؤدى واجبه فى جو محبب إلى نفسه . وفى ميدان سهل وليس وعراً وهذا الشعور ينمى فيه الثقة بنفسه .

الغرور :

وعكس الثقة بالنفس وطرفها الآخر السيىء ليس فقط انعدام الثقة بالنفس و إنما الغرور .

فإن آفة النجاح . . على مدى الأزمان وفى كل عمل وفن — هو الغرور .

وقد يأتى الغرور من الجهل كما يأتى نتيجة اشتداد ثقة الإنسان بنفسه واعتداده بمواهبه والإسراف فى تقدير علمه أو مهارته أو ذكائه مما يبعث فيه شعوراً زائداً بالأنانية . وهذا الشعور يعكس مواهب الآخرين وأقدارهم فيجعلها ضئيلة .

وعندئذ تعمى البصائر . وتعمى القلوب التى فى الصدور و يضل المغرور الطريق .

و يبدو عليه سيماء ذلك الداء : من تعالٍ وصلف وكبرياء . فإذا نظر أو تكلم أو أومأ كان معبراً عن أنانيته وعن تحقيره للآخرين .

والجماعات تحس بأعماق النفوس . وتنعكس فى إحساسها إحساسات الغير فإذا أحست بغرور الشخص الذى تتعامل معه كرهته .

والمحامى إذا كان مغروراً كرهه القضاة والمحامون وجميع أفراد المجتمع الذى يعمل فيه .

و إذا أحاطته الكراهية هاجمه الفشل وهرب منه النجاح .

ليس أقتل للمواهب من الغرور الذى ينتج البغضاء . وليس ينجو من آفة الغرور إلا من تنبه وتذكر وألقى السمع وهو شهيد .

إن الناس يترصدون للمغرور ولإخطائه . ولا يغفرون له الصغائر والهفوات بل يكبرونها و يضخمونها و يجعلون منها جرائم يعاقبونه هم عليها !

* * *

وللأسف إن المحامى الذى يبدأ فى ارتقاء سلم النجاح يحيطه عادة الناس بالإعجاب والثناء .

فإن كان سيء التكوين . ضعيف النفس . ضعيف القلب . ضعيف التقدير متهافت الإيمان بالله و بالعلم و بالمجتمع اغتاله الغرور .

و إن كان متين التكوين ذا نفس أمارة بالخير . كبير القلب . وطيد الإيمان بالله والعلم والمجتمع قاوم نفسه وألزمها مكانها ، وقال لها « على رسلك !

أين أنت وأين أنا من الأنبياء والرسل وزعماء الفكر ونبغاء العلم . وقادة الأمم ؟ أين أنا من هؤلاء ؟

إننى ذرة ضائعة فى وسط كرة أرضية تحمل آلاف الملايين من البشر يتجددون جيلا بعد جيل .

والكرة الأرضية قطعة صغيرة من السديم . فى الفضاء !

وهذه الحيوات كلها إلى فناء » .

عندئذ يدرك أنه و إن كان حتى نابغة لكنه ليس شيئاً منقطع النظير .

فالمحامون كالعلماء والسياسيين والفنانين يذهبون و يجيئون يولدون و يموتون. يتكررون . و يتكاملون . ومن يأتى بعد الحاضرين خير من السابقين .

إذا أدرك المحامى ذلك وألزم نفسه مكانها انتصر . ودرج دائماً فى سلم الارتقاء .

إننى أكتب هذا الحديث وأمام ناظرى شريط سينمائى لمحامين سموا وعلوا ثم انطفأوا وفشلوا بسبب الغرور . ولا زال زملاؤهم من المحامين والقضاة يذكرونهم بكل حديث سيء . و يروون عنهم كل أمر بغيض .

إن المحامى المغرور يعكس ضوءاً خانقاً على القضاة وعلى زملائه و يملأ مكانه بالضيق والبرم فلا يجامله أحد ولا ينصت إليه أحد ولا تنفذ كلماته إلى نفس أو قلب لا وهى شوهاء .

فلنحذر الغرور . . فإنه آفة المجد وهو سم النجاح . وفيه مصرع الأذكياء النابهين .

أين أنت وأين أنا من الأنبياء والرسل وزعماء الفكر ونبغاء العلم . وقادة الأمم ؟

أين أنا من هؤلاء ؟

إننى ذرة ضائعة فى وسط كرة أرضية تحمل آلاف الملايين من البشر يتجددون جيلا بعد جيل .

والكرة الأرضية قطعة صغيرة من السديم . فى الفضاء !

وهذه الحيوات كلها إلى فناء » .

عندئذ يدرك أنه و إن كان حتى نابغة لكنه ليس شيئاً منقطع النظير .

فالمحامون كالعلماء والسياسيين والفنانين يذهبون و يجيئون يولدون و يموتون. يتكررون . و يتكاملون . ومن يأتى بعد الحاضرين خير من السابقين .

إذا أدرك المحامى ذلك وألزم نفسه مكانها انتصر . ودرج دائماً فى سلم الارتقاء .

إننى أكتب هذا الحديث وأمام ناظرى شريط سينمائى لمحامين سموا وعلوا ثم انطفأوا وفشلوا بسبب الغرور . ولا زال زملاؤهم من المحامين والقضاة يذكرونهم بكل حديث سيء . و يروون عنهم كل أمر بغيض .

إن المحامى المغرور يعكس ضوءاً خانقاً على القضاة وعلى زملائه و يملأ مكانه بالضيق والبرم فلا يجامله أحد ولا ينصت إليه أحد ولا تنفذ كلماته إلى نفس أو قلب لا وهى شوهاء .

فلنحذر الغرور . . فإنه آفة المجد وهو سم النجاح . وفيه مصرع الأذكياء النابهين .

التملق

ويجدر بنا أن نحذر من آفة خلقية أخرى . لها وجودها ومظاهرها فى وسط المحاماة . . وهى التملق !

يحدث أن تقع مناقشة بين القاضى و بين أحد المحامين و يتبادل فيها الإثنان الآراء . وكثيراً ما يلتفت القاضى إلى المحامين سواء بنظرة غير مقصودة أ و بنظر استنجاد . . أو نظرة سخرية بالمحامى الذى يجادله .

ويحدث أن يلقى القاضى نكتة تصيب أحـد أفراد الجمهور أو تصيب أحد المحامين .

كما يحدث أن يلقى القاضى موعظة أو حكمة أو مثلاً .

وهنا تجد نفراً من المحامين ينصرون القاضى على زميلهم . . بالبـاطل . وتجدهم يضحكون للنكتة ويقهقهون كأنها فريدة النكت . وخلاصة الفكاهة . ويهزون رؤوسهم ويحركون ألسنتهم تقديراً للموعظة والحكمة والمثل كأنمـا هى تنزيل من التنزيل والذكر الحـكيم !

وإذا وقع خلاف شديد بين القاضى و بين محام ورفعت الجلسـة ودخل القاضى غرفة المداولة وهو ثائر ساخط . . لا بد أن تجد بعض المحامين قد اندفعوا يؤججون نار الثورة . مدافعين عن موقف القاضى . مبدين سخطهم على المحامى .

لقد كرهت هـذا النوع من المحامين . ولا زلت أكرهه وكرهه غيرى . لأنه جدير بالـكراهية والتحقير .

فهو يعبر عن خلق غير قويم . ويمثل رأياً منافقاً غير منصف . ويصور شخصيات نفعية . متملقة . مداهنة تسىء إلى المحاماة . وتصمها بالفساد .

كما أننى كرهت ذلك النوع من المحامين وخاصة فى الأرياف — ومنهم فى

القاهرة والمدن الكبرى أيضاً — وهم الذين يسعون إلى تملق القضاة والسير فى ركابهم . وجعل أنفسهم تابعين . ينقلون أسرار زملاءهم و يشون بهم . وذلك كله استجلاباً لرضاء القضاة . بغية معاونتهم على كسب قضاياهم . أو إذاعة لأنباء اتصالهم بالقضاة لكى يتهافت عليهم أصحاب الدعاوى على أساس أنهم أصحاب القضاة .

هذا نوع من المحامين ضعيف الخلق . لا يثق بنفسه ولا بعلمه ولا بفنه . لا يؤدى واجبه و إنما يسعى للرزق . لا يحقق مُثلا عليا . ولكن يستجلب المال أياً كان مشرعه أو مشروعيته !

وعكس هؤلاء محامون آخرون يتعالون على القضاة . وينفرون منهم . ويغتابونهم . ويطلقون ألسنتهم فيهم . يعددون أخطاءهم . ويتحدثون عن نقائصهم . . وقد تمتد ألسنتهم إلى عائلاتهم وأخبار منازلهم !

كلا الاثنين مذموم . مكروه .

وكلاهما فاشل وذو نسب فى الفاشلين عريق .

وخير المحامين من يكون منصفاً للقاضى . يعامله كزميل . ويقدره لقداسة منصبه . يدارى عوراته و يستر أخطاءه و يسعى له بالنصيحة إن استطاع . ويعمل على التأليف بين القضاة و بين زملائه . يترفع عن الملق . ولا يتصف بالصلف والغرور والكبرياء .

إذا وقعت بين القاضى و بين زميل له موقعة كان هو فيها عنصر التهدئة . والساعى إلى إصلاح ذات البين .

يعامل القاضى فى بلده كضيف يجب له الاحترام . و إن كان الضيف غير جدير بالاكرام فهو جدير بالانصراف عنه .

لا يتعصب للمحامين ضد القضاة ولا يتعصب للقضاة ضد المحامين و إنما يكون الصديق للطرفين بالنصيحة السديدة . و بالسعى للخير .

المحامى فى المحكمة

البَابُ الثَّانِي